مختارات قصصية

من الميناء والمقهى	محمد المخزنجي
فى الزقاق	محمود الوردانى
الليل	يوسف أبو رية
يونس البحر	اعتدال عثمان
الفتاة ذات الوجه الصبوح	محمد المنسى قنديل
حكاية جنون ابنة عمى هنية (تونس)	حسونة المصباحى
مدينة الموت الجميل	سعيد الكفراوى
الابتلاع	أحمد الشيخ
فصول	عبد الوهاب الاسوانى
الكاميرا	عبد الله خيرت
الوجه (العراق)	عبد الستار ناصر
شجرة الحب	عبد الحكيم قاسم
صديقى الكاتب (المغرب)	محمد صوف
محاورة الجبل	بهاء طاهر
السحاب الأبيض الجامح	إدوار الخراط
تكوينات رمادية	محمد جبريل
شر البَلّيه	سمير رمزى المنزلاوى
أجمل يوم اختلفنا فيه	منى حلمى

محمد المخزنجي | من الميناء والمقهى

البمبوطيه

بينما كان زورقنا يجوب مياه الميناء ، شاهدت تجار البحر - البمبوطية وقد ربطوا زوارقهم إلى أحد الشمندورات الطافية على الماء ، وخلعوا ملابسهم ، وراحوا معاً يسبحون ، ويمرحون !

اندهشت لمرآهم هكذا ، إذ أنى لم أرهم أبدا من قبل إلا متعاركين ، متشاتمين ، مختلفين على شىء ما ، وهم يتزاحمون بزوارقهم الصغيرة ، حول سلالم السفن الراسية فى الميناء ، يستبقون على الدرج ، ويتصارعون على البحارة الغرباء ، لبيع بضائعهم ، والمبادلة .

عندما فتحت جهاز اللاسلكى لأستقبل توجيهات راديو الميناء علمت بخبر السفينة الجانحة عند البوغاز ، وسمعت إشعار توقف الحركة ، وانقطاع السفن عن المجىء ، حتى يتم تعويم السفينة الجانحة وسحبها .

نظرت إلى الرجال وزوارقهم ضاحكا ، وقد كانوا يبدون الآن وهم يصخبون.. يقفزون إلى الماء ، يسبحون ، يغطسون ، ويطفون ، ويتراشقون بالرشاش مازحين.. يبدون كصغار الدلافين الوديعة المتحابة عند اللعب .

دون توقف

أقفز ، ويتبعنى مساعداى ، من حافة ظهر زورقنا المبتل المنطلق فوق الماء ، إلى عتبة السلم المعلق للسفينة الأولى التى تعبر القنال ، ضمن قافلة الفجر دون توقف ، وأصعد لفحصها ، وأعطيها تصريحا صحيا بالعبور . ويأمر قبطانها المرح العجوز بشاى وإفطار «للدكتور ومساعديه يا شيف . إفطار جيد وشاى ساخن يا شيف . فقد استيقظوا مبكرين وجاءوا على عجل فى هذا الجو البارد من أجلنا يا شيف» .

«- أوكى كابتن»
«- ثانكس كابتن»
«- بايباى دوكتور»

وعلى المائدة ، وأنا جالس مع مساعدى ، يبدأ تقاطر الذين صعدوا توا إلى السفينة ، ولابد أنهم لـ

يجدوا وقتا ليفطروا على البر مثلنا فهم حولنا يتوقفون : عمال الأنوار والرباط ، وعساكر الميناء ، وبعض البمبوطية الصغار ، يرتعشون من برد النسمة البحرية ، ويقتربون من الأطباق التى بها شرائح اللحم :

«اوعى إلا يكون دا لحم خنزير يادكتور» - يقول أحدهم ، ويمد آخر يده : «أدوقه لك الا يكون لحم خنزير صحيح» ، ويهمهم ثالث وهو يمضغ : «والله طعمه قريب من طعم الخنزير» ويعطى للآخرين كى يذوقوا . . مرة ، ومرة ، ومرة ، ومرات كثيرة ، حتى يتأكدوا أن اللحم الذى يأكله «حبيبنا الدكتور» ليس لحم خنزير يُدخِل النار .

ولا ينتهى توجسهم إلا بعد أن تفرغ الأطباق ، فينصرفون مسرعين لإنجاز أعمالهم المطلوبة ، فوق ظهر السفينة المسرعة .

امرأة فى المقهى

دخلتِ المقهى الذى يؤمه الرجال ، ومعها الولد الصغير ، فالتفتت إليها الأنظار لحظة ، ثم راحتْ النظرات تختلسها من وراء صفحات الجرائد ، وخلال اشتباكات الطاولة ، والدومينو ، وحكايات الرجال المحالين إلى المعاش .

كانت فارعة القوام ترتدى (تاييرا) بسيطا أسود ، وجوارب سوداء ، وكان وجهها الخالى من المساحيق شاحبا ، وتطوف به ظلال حزينة ، وكان الولد الصغير فى يدها يبدو فى نحو الخامسة ، يرتدى حلة ضابط خضراء بأزرار نحاسية وثلاث نجوم نحاسية ، تبرق على كل من كتفيه ، وكان الكاب الصغير الذى يعتمر به تحلى بغصنىْ زيتون متقاطعين ، من النحاس أيضا .

جلست فى الركن مع الطفْل ، وعندما ذهب إليها الجرسون لم تطلب شيئا ، وانتظرت حتى جاء الرجل الوسيم بقوامه الفارع ، وشاربه المنكس . كان أنيقا ومنتعشا ، كأنه أخذ حماما دافئا لتوه ، بعد أن استيقظ متأخرا من النوم .

أخذ الرجل قهوة مضبوطة وطلب (تمباكا) ، وقالت هى بخفوت : شاى ، وجىء للولد بفنجان من الكاكاو ، وكوب فارغ - أخذت تنقل إليه الكاكاو الساخن ثم تعيده ، وتنفخ فيه حتى يبرد ولا يؤذى الصغير .

كانت تتحدث بإلحاح وتلاشٍ إلى الرجل ، وهو يدخن ويشرب قهوته ، والولد الصغير يتحرك بقلق الأطفال على الكرسى فيهتز فى يده الفنجان ، حتى يوشك ما فيه أن ينسكب ، عندئذ تسرع إلى ضبط الفنجان بين يديه ، وتنهره بعصبية ، وتأمره أن يجلس ساكنا ، ورفعت الكاب الذى كان قد سقط على عينيه ، ووضعته على رخامة الترابيزة أمامها .

راح الولد يحاول النزول وهى مأخوذة بالحديث مع الرجل ، فاندلق الفنجان ولوث بالكاكاو حذاءها وجوربها ، وحذاء الرجل ، ورجل بنطلونه ، ففزعت ومالت محرجة تلتقط الفنجان من الأرض وضربت الولد بالكاب على رأسه متضايقة ، وقالت له وهى توشك على البكاء أن يبقى ساكتا ، ثم عادت إلى التلاشى ، تحادث الرجل الذى لبث هادئا مع ذلك .

وقف الولد ساكتا منكس الرأس برهة ، ثم بدأ يتحرك ، ويلعب بين الترابيزات والكراسى ، ويرفس بحذائه الصغير نشارة الخشب التى تغطى أرض المقهى فتنتشر أمامه ، كاشفة عن زخارف البلاطات البنية وهو مبتهج بذلك ، يعاود الرفس .

هب الرجل واقفا فجأة ينادى الجرسون ، وبدا غاضبا وهو يدفع الحساب ، ثم اندفع خارجا ، بينما ظلت هى فى مكانها مبهوتة شاحبة ، وشردت شرودا عميقا للحظات ، ثم فزعت واقفة تتلفت وتنادى :

«وليد . وليد يا وليد» ، ولما بدأ صوتها يختنق انحدرت أصوات اللعب تخفت ، وأحاطتها نظرات الشيوخ .

الخرس

لم أره يقبل مبكرا فى طليعتهم ، كما فى كل ليلة ، وقد كان الجو قارسا ، والمطر لا يتوقف فى الخارج ، وهم يتقاطرون ، يدخلون منكمشين مبتلى المناكب والرؤوس ، ويتجهون إلى ركنهم المعهود بالمقهى ، حيث يتجمعون حول صف من الطاولات المضمومة إلى بعضها بعضا ، ينفضون عن رؤوسهم ومناكبهم البلل ، وينتعشون فى الدفء ، ويأخذون فى التحدث معا بالإشارات ، ويتلعيب الملامح ، وتنفلت من بين أحاديثهم البكماء صرخات مبهمة ، يقبل عند سماعها (الجرسون) ، ويجيل البصر فيهم ، وإذ لا يراه على رأس جماعتهم ، يشيح بوجهه عنهم ، ويمضى .

لقد كان وحيدهم الذى استطاع أن يتحكم فى صوته ، بحيث يحيل صراخه المبهم إلى كلمات . كلمات كانت تبدو غريبة ، وبلا معنى فى أول الأمر ، إلا أنه يمكن فهمها بقليل من التكرار والتمثيل ، والإشارات المساعدة . فهم يقولون له بلغتهم البكماء عما يريدون ، وهو يترجم تلعيب ملامحهم والإشارات إلى لغته : يصفق فى البدء مناديا الجرسون : آآدان (يا حسن) ، فيأتى «حسن» ، وينظر ماذا يشربون وماذا يطلبون ، ويترجم لحسن : أمداداى (خمسة شاى) ، وايدنين إنفا (واثنين قرفة) ، وايدينين آواياد اوادى بود (واثنين قهوة زياده وواحد مضبوط) ، ودالادا داداو (وثلاثة كاكاو) ، ودالاد داولاد (وثلاث طاولات) ، وايدينين دامانا (واثنين دومينو) ، وأنبع بونى (وأربعة بورى) . وعندما يريدون تغيير قناة التليفزيون يبلغونه - بالإشارات ، فيتوجه إلى رواد المقهى الآخرين بالاستئذان : دامأتم (لو سمحتم) . لكنه الليلة تأخر ، وهم فى انتظاره مكثوا واجين .

فجأة انفجروا صخبا ، فرحين كأطفال صغار جاء أبوهم بعد غيبة ، هذا : حالما أبصروه فى مدخل المقهى . خبطوا بأياديهم فوق الطاولات ، ودبوا بأقدامهم على الأرض ، وصفقوا ، واندفعوا نحوه يتطاير من أشداقهم المشرعة الصراخ ، وتكاد وجوههم تتفسخ من فرط الابتهاج ، ويبادر هو يهدئهم ممتنا ، ويبدى لهم عذره : يمسك بصدره متوجعا ، ويشير إلى أنفه ، ويلمس العنق ساعلا سعلات بلا صوت ، أو بصوت كالفحيح الباهت ، أبانتها لهم اللغة البكماء ، فبهتوا .

حاول «حسن» أن يصغى إلى الصوت الذى لعقته نزلة البرد ، دون جدوى . وحاول أن يفهم بالإشارة فلم يستطع . عندئذ هبوا يقذفونه بصراخهم وبغضب السحنات المربدة ، فهرول مبتعدا ، وذهب يلبى نداءات رواد المقهى الآخرين التى تراكمت ، وتعالت تحتج .

بدوا الآن منسيين ومقهورين ، وهم يقعدون سكوتا منكمشين حول صف الطاولات الخالية ، لا يشربون شيئا ، ولا يلعبون ، يختلسون النظر بحرمان وابتراد إلى أكواب المشاريب الساخنة فى أيدى الآخرين ، ويرنون بعيون مختنقة تحمر إلى اللعب المتوهج على الطاولات الأخرى حولهم ثم إنهم شرعوا فى تصاعد مكتوم .. يدخنون .

المنصورة : محمد المخزنجى

محمود الوردانى | فى الزقاق

عندما وصلت إلى بداية الميدان : تحت مبنى البريد العالى ، راحت تدور بعينيها ، حيث كانت السيارات المتزاحمة السريعة تطلق نفيرها ، وتخلف دخاناً وغباراً ، بينما الناس يركضون ويزعقون فى مواجهتها . أطبقت بكفها الأيسر على كف الولد الصغير الواقف بجانبها ، وبيدها اليمنى ضمت اللفة الكبيرة المغطاة بورق جرائد إلى صدرها . تهيأت للتركض ، ما إن عبرت سيارة النقل الضخمة ، وتمكنت من الوصول إلى محطة الترام المطلة على الحديقة الصغيرة المبللة .

تمهلا قليلاً ، حين وصلا إلى أول شارع ، وشاهدا التجمعات الصغيرة من الناس ، الملتفين حول واحد ممن يبيعون ما سرقه من ملابس أو ساعات أو أجهزة راديو . قال الولد لنفسه : فى كل المرات التى أتينا فيها ، كان لابد أن نجد واحداً منهم ، وتكاد أمى أن تركض ، حين نمر من أمامهم .

على ناصية الشارع القليل الضوء ، والخالى تقريباً إلا من الناس الجالسين أمام الدكاكين ، رجل له شارب قصير ، ويشترى منها . لكن الولد يكرهه كما تكرهه الأم ، لما يتكلم ويضحك بفمه الواسع . دون أن يذكر ثمناً ، حتى يجعل الأم تسعى للانتهاء بأى شكل . لتتخلص من صوته الذى يشبه أصوات النسوة .

نادى عليها الرجل ، غير أن الأم أسرعت ، وراح الولد يجرى خلفها . ثم جاءت الرائحة الخفيفة ، وجعلت تتكاثف رويداً ، وهما ينحرفان فى الزقاق الضيق المرشوش بالماء ، حيث محلات العطارة الصغيرة ، ثم محلات العطور : تلك التى تبيع عطوراً سائبة . وفكر الولد : كنا نأتى هنا أنا وعمى « فؤاد » حين كنت أقيم عند عمتى « أفكار » وعنده فى عزبة النخل ، وهو يخب فى سرواله الواسع وسترته المفتوحة ، ضارباً الأرض بعصاه البنية الداكنة . كان يصطحبنى معه عندما يذهب ليصرف معاشه من المصلحة ، ثم نمر على هنا ، لنشترى كل الأشياء التى لا تشترى سوى مرة واحدة فى الشهر . يأخذ من هنا عطارة الشهر ، وزجاجات العطور التى يخلطها فى حجرته ، ويصنع منها الرائحة التى يتصايح أقاربنا عندما يدخلون عنده ، ويكتشفونها بأنفسهم .

توقف عندما سمعها تقول : « تعالى نشوف هنا . . » كان دكاناً مرشوشاً أمامه بالماء ، والأم تشد كمى فستانها الداكن عند الرسغين ، محاذرة أن تفلت اللفة الكبيرة من يدها . كان الجو بارداً مايزال فى أول النهار ، والريح الخفيفة تبدو أكثر برودة فى الزقاق الضيق الذى لا يكاد يبين .

قال الولد : فى كل مرة نأتى ، تقسم أمى بعدها أنها لن تفعلها مرة ثانية . لكننا كنا قد وجدنا حجرة خالية فى شارع المستشفى ، تنبعث منها رائحة الجير المختلط ، برائحة دورة المياه المشتركة بجوار الباب . على أننى كنت أعرف لماذا كان مفروضا علينا أن نترك شقتنا فى شارع السينما ، ونحن لم نسكنها إلا منذ فترة قصيرة . ولقد أصبحنا ثلاثة الآن ، بعد أن تركت عمتى « أفكار » وعدت مرة أخرى . ومنذ أن تركنا بيتنا الذى كنا نسكنه قبل أن يموت أبى ، ونحن ما نكاد نستقر ، حتى

تبحث أمى مكان آخر . وعندما أتى النجار فى الصباح ، واشترى البوفيه وترابيزة المطبخ ، دفعت أمى بقية الإيجار والتأمين . ثم مضينا إلى جارتنا ، وتركنا « منى » وقالت أمى : إننا سنذهب فى مشوار قصير .

سمع صوتها : « سلام عليكم . . » . ونهض الرجل المرتدى جلباباً أبيض ، فوقه « جاكت كحلى » . قال : « عليكم السلام . . » . مد يده وأخذ اللفة من الأم ، وجعل يخلصها من ورق الجرائد .

وعلى طول الزقاق الممتد ، على الناحيتين ، عُلقت البدل والمعاطف الداكنة والممتلئة بالمربعات ، والمحلاة بالفرو من أعلى ، وقد تراصت وتلاصقت ، وبدت صفوفاً وراء صفوف ، داكنة لا يكاد لونها يتغير . رأى الزقاق ضيقاً والملابس المعلقة تمتد إلى الخارج ، كأنما يسكنها الناس ، وتنبعث منها رائحة ، ما لبث الولد أن تبينها ، وهو يرى أن ما تبقى من الزقاق ، فى المنتصف ، كان ضيقاً للغاية ، مكتوماً وبلا ضوء . وقال لنفسه إنه إذا ما مشى قليلاً ، ورفع رأسه ، فسوف لا يستطيع أن يمتنع عن ملامسة كل هذه الملابس الداكنة المعلقة برأسه . عندئذ لابد أن الرائحة ستكون عنيفة بالفعل ، تحيط بكل جسمه .

أمسك الرجل بالمعطف الكحلى ، وعندما فرده ، انحنى سريعاً ، والتقط الذيل قبل أن يلمس الأرض المرشوشة . خطا إلى الخارج ، وتحت قرطاس الضوء ، المنسل بين الملابس المتراصة ، أنشأ يفرد جسم المعطف من الخارج ، وأمسك بالكتفين ومضى يحدق ، وهو يتحسس الجيبين الخارجيين ، ثم الجيب الداخلى المثبت فوقه العلاقة المكتوبة الملونة . قال الولد : إنه لا يتذكره بهذا المعطف سوى مرة واحدة ، شاهده يرتجف وهو يناولها المعطف المبلل ، ويضحك على باب الحجرة .

عاد إلى مقعده ، وألقى بالمعطف ، ثم وضع السروال على كتفه ، بينما أمسك السترة بيده . وتحت قرطاس الضوء ، عاد يتحسس البطانة الداخلية : لامعة ماتزال ، وحول الياقة من الأمام قبل أن يقلبها ، وهو يضيّق ما بين عينيه ، ويدور بأصابعه حول الأزرار البنية الداكنة . تحشرج صوتها ، وفوجئت - هى - به يخرج عالياً فجأة : « البدلة فى ايدك جديدة . . كفى يا عم . . » لكنه اختطف السروال ، ورفعه من عند الحجر ، ليجوس بأصابعه فى أماكن يعرفها جيداً ، ويعرفها الولد أيضاً ، حيث كان الرجل الآخر ، الذى نادى عليها عند الناصية ، يتحسس ويحرك بأصابعه الطويلة . تلك بدلته البنية ذات الخطوط الخفيفة الخضراء ، التى رأيته يرتدى للمرة الأولى ، حين أخذنى وذهبنا إلى جدتى التى لم أرها بعد ذلك ، فى شقتها البعيدة عند الجامع الكبير . وانتهى الرجل إلى قدم السروال ، وجعل يقلّب ثنية القدم . ويبصّ داخلها . بدت عيون الرجل ضيقة ، وهو يرمش بها ، داخل وجهه الأبيض النحيل ، ويبتلع ريقه ، قبل أن يعود إلى مكانه . صمت قليلاً ، ثم قال وهو يحوّل عينيه عنها : « جنيهان ونصف ياست . . » .

سكتت الأم قليلاً ، ثم رفعت صوتها ، وهى تبتعد بيدها عن رأس الولد : « ياعم أنا أبيعلك ملابس جديدة . . » قال الرجل : « من أجل خاطر الولد الذى معك والله يا ست . . » . كان الولد ينظر إلى ملابس أبيه التى فردها الرجل على ذراعه مرة ثانية ، واكتشف أن رموش الرجل قليلة للغاية ، وأن عينيه الضيقتين حمراوان ، لا يكف عن إغماضهما وفتحهما . قال الولد لنفسه إنه مازال لديها بدلتان لأبيه ، قالت أمه : إنها لن تفرط فيها مطلقاً .

سمعها تنادى عليه ، وتقدم إليها ، ومدّ كفه . عادا للسير مرة أخرى ، وفكر الولد بأنه سيسمع الرجل الذى عند الناصية ينادى عليها بعد قليل . كانت الرائحة تنسحب رويداً ، كما بدأت ، بينما كانا يطلعان من الزقاق ، ويتطلعان إلى الميدان المزدحم .

القاهرة : محمود الوردانى

يوسف أبوريه | عباءة الليل

● كنت أنا وهى والليل فى مدينة كبيرة نائمة ، بعد ان فارقنا الصديق سكران بخمر حانتين ، وقف يودّعنا ليلحق بآخر قطار ، ولم يدعنا معه ، فهو يسكن الغرفة الضيقة التى لا تتسع إلا له ولزوجه وبنتيه .

قلنا لليل : يا ليل هل تأوينا ؟

قال الليل : أنا أكتم سر العشاق والسُّرّاق ، وأستُر على فرشة الزوجين ، وأدارى نومة الفقير .

قلنا : فنحن عاشقان غريبان ، ليست هذه مدينتنا ، غادرنا بلدنا لأنها تترصد للمحبين ، وتفضح سر القلوب .

قال : شقا طريقكما وأنا معكما أسمع وأرى .

وكان طريقنا طويلاً وبعيداً ، قلت آخذها إلى غرفتى التى منحها لى صديق .. ولأجرب معها الحب ، ولأكون مثل كل الأحبة الذين قرأت عنهم ، ورأيتهم على الشاشة يتأبطون الأذرع منطلقين فى خفة ، يرمى الهواء شعرهم إلى الوراء ، وحولهم تطير النسمة المغردة ، وينمو الزهر المبتسم ، وتزقزق لهم بلابل لا تراها العين . وخفت لأن صديقى حين أسكننى قال : لا تصحب إلى غرفتك امرأة ، فأنا أخاف الناس ، ولا تأت آخر الليل سكران ، فأنا لا أحب الخمر التى حرمها الله .

تمنيت لو أجد البوابة الحديد مفتوحة ، سنمرق منها خفية ، وأدير فى ثقب الباب مفتاحى الكتوم ولا أشعل مصباحاً ، ففى الظلمة سأرى على نور وجهها الحبيب ، ولا أرفع صوتاً ، فيكفينا همس القلوب .

هناك وجدت المصباح يرش على البوابة نوره المتشبث كبرص ، وسقطت خيالاتنا على قضبان الحديد المربوطة بالسلسلة الغليظة ، نظرت إلى أعلى ، ولم أقدر أن أرفع صوتى لأنادى عليه ، وغاظنى انغلاق نافذتى القريبة ، نظرت إلى وجهها الشارد وقلت : لا تحزنى .

قالت : طالما أنا معك لا يهم .

والليل كان قابعاً هناك فى الأرض الخلاء ، يكتم ضحكة .
قلت : ياليل .

قال : أنا لا أغلق البوابات .. فأرضى رحبة ، ويدى بعرض السماء .

قلنا : ولكننا نريد جداراً وفراشاً .

قال : أنا لا أملك غير عباءتى السوداء .

قلت لها : فلتذهبى إلى صديق قريب من هنا . ينام النهار ويسهر الليل .

قالت : كيف ننام عند غريب ؟

أحطتها بذراعى ، وقلت : لا تبالى .. فقلبه مفتوح .

كان النور يخرج مع الموسيقى من شيش نافذته المغلق ،

مددت يدى على آخرها ، وخبطت طرف النافذة ، فارتجفت الضلفتان ، وتردد صوت الطرقات كأنها فى فراغ ، وكانت هى واقفة عند البوابة ترقب الباب من الداخل ، خبطت مرة أخرى ، وناديته باسمه ، وفى المرة الثالثة انطفأ النور ، وخفت صوت الموسيقى ، وانتظرنا ، فلم يخرج أحد ، قالت : لا فائدة .

وعدنا نعبر بقع الماء بين البيوت المغلقة الأبواب ، كانت فى الصمت وفى الضوء القليل شبيهة بشواهد القبور ، وألف عين من وراء النوافذ ترقبنا ، وتحس ضحكات متشفية .

والليل العجوز يسير خلفنا يخبّ فى عباءته ، كنا نسبقه بمسافة ، وهو على آخر ظلنا المتعرج ، مجتهداً فى مشيته . . يحاول اللحاق بنا ، يرفع العباءة المهترئة من حين لآخر ، ويلقيها على كتفه فتلم بعثرة لحيته الرمادية .

على أول الشارع الكبير كانت السيارات المجنونة تمرق مسرعة ، سرنا على الرصيف فرحين بالنور الغامر ، وإن كان قد جمع باصفراره قليلاً من الوحشة فى جانب القلب .

خرج علينا الشرطى فجأة من وراء سور تنشر عليه الأشجار المتشابكة ظلمة قاتمة ، كان وجهه مشدوداً ، وأسنانه سوداء ، بل كل لباسه كان أسود : البيريه ، والسترة ، والسروال ، والنعل ، تقدّم نحونا ، فكدنا نرجع بظهورنا فارين ، حمامتان سقطتا بغفلة على «خيال مآتة» ، وكانتا تمنيان نفسيهما بحب وفير فى أرض خصيبة .

قلنا : نحن أخوان ذاهبان إلى قريب يحتضر .

ونظر خلفنا فرأى الشبح الكهل ، فتراجع وقال : لا تفعلاها مرة أخرى . . فإن الدولة تدفع لى راتبى من أجل أن أمنع أمثالكما من السير أثناء الليل .

وانطلقنا . . فى البدء سرنا بجوار السور متلاصقين نخاف من انقضاض اليد على أقفيتنا وبعد أن سرنا مسافة معقولة ، مشينا متحررين ، ولكننا لم نتكلم ، فقط نظرنا إلى الوراء لنطمئن ، فواجهتنا الابتسامة فى الوجه العجوز ، والفم المفتوح كطاقة مقبرة مهجورة .

فى المقهى المفتوحة على الميدان الواسع ، والتى تظل ساهرة طول الليل ، جلسنا على منضدة ، طلبنا قهوة تعين على السهر ، وتقاوم النوم الذى بدأ يتسرب . أمسكت بكفها الباردة وقلت : أنا آسف . قالت مبتسمة : أنا سعيدة ، قلت كنت أود أن . . قالت : وأنا .

ولا أدرى إن كانت عرفت مقصدى ، فأنا كنت أمنى نفسى بليلة ينفتح فيها القلب ، ويقول لها كل ما طواه تحت لسانه المتلعثم ، وكنت أريد أن أقول لها كلام العشاق المعتاد ، لقد أحببتك من أول نظرة ، جرحتنى عيونك ، وحين عرفتك قلت هى الفتاة الممنوحة لى من السماء ، سأدفن أحلامى فى صدرك ، وأطوى فى صدرى أحلامك ، وإننى أرى فى عينيك مدينتى البهيجة بأضوائها ، وطيرها المحلق فى سماء لا تعرف الغيم ، ولا تعرف المطر ، صحو مقيم وأبدى ، وشمس رحيمة لا تغرب ، نهار خالد .

وفى اللحظة التى أردت تأمل عينيها لأتشجع وأقول ، رأيته على المنضدة البعيدة ، قابعاً تحت مصباحها الذى ينز ضوءاً بلون السل . كان يهرش جنبه بيد مقشوطة الجلد ، ويبدو كأنه مشغول عنا ، ثم رفع لى عينه فجأة ، فارتد بصرى ، وماتت الكلمات فى حلقى .

وكنت أريد أن أقول له : لم نعد بحاجة إليك . . فنحن فى ونس الناس والمصابيح . ولكنه واصل الهرش ، وواصل بحلقته كمن يقول : لقد استعنتما بى ، وأنا لا أتخلى بسهولة .

قالت : القهوة لم تفعل شيئاً . . والنوم غلبنى .

قلت : اقتربى منى ، ونامى على كتفى .

ارتاح رأسها على كتفى ، وأملت برأسى ، وجعلت الخد على الخد ، ويدها كانت تحت المنضدة فى يدى ، قلت فى أذنها : أحبك .

وحركت شفتيها بخدر هو مزيج من خدر النوم والحب الهادىء ، وكأنها تردد كلمتى ، وغفونا . . كان نوماً جميلاً خالياً من الأحلام والكوابيس ، قامت تفرك عينيها وترجع شعرها إلى الوراء ، وأنا برنشت بجفونى ، وهالنى أن النهار كان يحبو فى الميدان ، يحاول أن يشب على الجدران العالية ، ولما نظرت إلى المنضدة البعيدة وجدتها فارغة ، والكرسى كان مائلاً على طرفها ، ولكننا لم نسمع شقشقة العصافير ، فقط رأينا صحوة مدينة كبيرة ، تدور فى شوارعها سيارات مضببة الزجاج ، وعربات تجرها الخيل ، عليها أقفاص الفاكهة والخضار ، وجنود يجرون حول اسطوانة الميدان ، وكان صوت أحذيتهم الثقيلة ، يسمع من موضعنا .

يوسف أبو رية

يونس البحر

اعتدال عثمان

أنت الذى أخذتنى إلى البحر يا يونس . تجدف وتوغل حتى يغيب الشط ، ونصبح وحدنا فى عالمك الأزرق . لا تكف عن التجديف إلا عندما ينشق البحر عن كهف صخرى مثقوب من أعلى . تثرثر فى الطريق بأخبار الخلق ، فتتنزلق الأسرار على صفحة وجهك المحمص بشمس البحر ، دون أن يتأثر جلده المشدود حول عظام خديك البارزة ، أو تظهر ثنايا التعجب لأحوال الدنيا ، فى جبينك الواسع الملتمع بالنسيم المملح ، تنتشر دهونه من منابت شعرك الكثيف الأسود ، المسجى تحت طاقيتك الأسوانلية المخرمة ، حتى قصبة أنفك ، وتغطى انحدارها على الجانبين ، فى امتلاء غير مفلطح ، يزيد وجهك المليح حلاوة فى لفتاته الجانبية ، لولا تلك الندبة فى خدك الأيمن . وتثرثر بصوت مشروخ خفيض ، تضبطه على نغمة واحدة لا تتغير .

صامتا ، أستمع أنا إليك ، حتى نصل إلى الكهف المثقوب ، فتكف عن الحديث ريثما ترفع المجدافين قليلا داخل أنشوطتى الحبال الليفية الخشنة اللتين تشبتهما إلى جدران القارب ، وتسمح بتحريك كفيك الخبيرتين لهما ، تلك الحركة الرتيبة المتوازنة . تدفعهما قليلا باتجاه جسدك حتى يصيرا فى وضع أفقى ، ويستقرا على حافتى جدار القارب : ثم تلتفت إلىّ ، وفى عينيك بريق مخيف ، ينفذ إلى قلبى الصغير الراجف كنصل سكين شرس يعرف وجهته فى جسد الفريسة .

فى هذه اللحظة وحدها يتغير وجهك ، تهب عليه أعاصير ، لا أعلم مصدرها ، فتبدو الندبة الغائرة فى خدك الأيمن ، أشد غورا ، وترتعش حوافها ، البارزة غير المستوية ، بانفعال مكبوت يمور فى باطنك ويطفو موجا يجتاح الجلد والعظام من تحته . ويزداد ارتجاف جسدى المضروب بسكين عينيك المخيفتين ، ويتضاءل ضاغطا على جدران الزاوية القصية المقابلة لك فى القارب ، ويضغط . يود بكل عضلة فيه أن يشق الجدار وينفذ إلى البحر ، يختفى ، يغرق لا يهم ، ولا يشعر إلا بضرورة التخلص من إحساسه المرعب الذى يقلب أحشاءه ويعتصرها ، ويجعل أنفاسه تتلاحق ، وقلبه يفر داخله ، ولا يستطيع اللحاق به .

لم تكن ترانى ، يا يونس ، أو تدرك وجود كتلة الرعب فى الزاوية المواجهة . تنظر ناحيتى ، وترى شيطانك الذى انبعث لتوه من القمقم ، يرفع يده إلى الندبة ويتحسسها ، على مهل ، بلذة تستغرقك تماما ، كمن يستحلب قالب سكر ، ويضن به أن يذوب فى فمه قبل أن يستقطر كل ذرة فى حلاوته ، ويظل بعدها لا يحرك فمه محتفظا بريقه المحلى بآخر الذرات .

لم تكن الحلاوة خالصة يا يونس ، وإنما ممتزجة بألم حاد يظهر فى أطراف أصابعك المتوترة على حواف الندبة ، وفى التواء فمك بصرخة مكتومة تخرج أنينا مجروحا خافتا ، كأنك تقطع قالب السكر من لحمك ، ولا تكف عن نهش موضعه ، ولا تكف عن استحلاب الألم .

مرتعب أنا ، يا يونس ، متجمد فى مكانى . أخشى النظر إليك ، وأخشى ألا أنظر إليك فيلمحنى شيطانك ، ويفتك بى . شيطانك الذى فاضت به اللذة والألم ، ذات مرة ، فحكى لى عن فج النور ، الأفندى المقمع ، الذى هبط على قريتنا ، فى يوم ، وكأنما جاء من القمر ، وبصحبته كتب وأوراق ، ومردة تسير على عجلات ولقلبها صوت هادر مثل صوت وابور الطحين ، وغندورة تضع الأحمر والأبيض وكحل عينيها ليس ككحل نساء القرية . تظهر فى أوقات فترتج الأرض فى كل خطوة ترتعش لها كتلة اللحم الأبيض المخنوق فى استدارات بارزة تدوخ العقول .

طار عقلك يا يونس ، فما كنت تعرف غير اللحم القمحى حين تنجح فى اقتناص واحدة ، فى الليالى الفاحمة ، وتأخذها وراء مركب مهجور ، فى المينا القديمة ، تتخلص فى لحظات ، من بعض فتوتك ، ثم تنفلت المرأة منك راضية بقمطة ليمونية تدسها فى صدرها ، تبرق ثنايا أطرافها ، على أضواء مراكب الصيد البعيدة ، بنمنمة خيطية زرقاء متداخلة فى ترتر فضى .

لم تكن تعرف أيهن ، إلا حين تنحسر الطرحة السوداء ، فى هرولة السوق ، فتظهر القمطة الليمونية ، يخطف بريقها بصرك فى وهج الظهر . لحظتها ، يبتسم شيطانك فى خبث ، ولا تظهر أنت البسمة ، ويتمادى فى عبثه ، فتتقدم إلى المرأة

بوجه صاف «عنك يا خالة» ، وتحمل عنها أثقالها ، ولا يهم لو انسالت كرات الزبدة السائحة على جلبابك السمنى النظيف ، المفرود دائما على جسدك الممشوق كعود الخيزران ، أو نقرك ديكها ، الموثق الأرجل ، محاولا الهرب من قبضتك الخانقة .

لا يهمك ثقل الحمل أو طول المشوار ، وإنما يتمركز شيطانك فى طرف عينك المحاذية للمرأة ، يرقب بجماع مكره لمحةً تطرف بها عيناها ، أو حركة لا إرادية تحكم التفاف الطرحة حول قمطتها ، وكأن الحركة كفيلة بطرد هاجس بدأ هجومه ، ويبدأ يربك سيرها ، وتكاد تتعثر مرات ، وكلما أوشكت على الانكفاء ، تلحقها يدك فى اللحظة الأخيرة «حاسبى يا خالة» تقولها بنبرة خفيضة كالمشفق ، فيزداد ارتباك المرأة ، وتتمتم بألفاظ مختلطة ، وهى تنتزع نفسها من قبضتك ، فى عنف ، يعرف أنه مهزوم .

ويطول المشوار ، تحسبه هى دهرا لا ينقضى ، ومرة تلو مرة تمتلك قبضتك تعثرها ، وتخفت قدرتها على المقاومة والانتزاع . وتعرف يدك كيف تسلل تحت الجلباب الأسود من فتحة الصدر الجانبية ، وتغور أصابعك فى تلافيف القماش حتى تصل إلى اللحم الحى ، تداعبه فى رفق أول الأمر ، ثم تعنف وتشتد ، والمرأة تختنق بصراخ مكتوم ، وتدفع بجسدها ، المتهالك المشلول ، إلى الأمام فى حركة تبدو سيْرا عاديا . وأنت تحتفظ بمسافة محسوبة بينك وبينها ، لا تثير ريبة المارة ، ويدك تعمل دون هوادة ، واللحم يسخن تحت أصابعك ، ويغلى بدم يفور ، ويهدد بالانفجار .

أخيرا تصلان إلى مشارف بيتها ، فتضع حملك على الأرض «أوصلك لحد الدار يا خالة» ، وبالكاد ، يخرج صوتها الحبيس ، متكسر الأنفاس ، مرتعشا بفرحة اقتراب النجاة «لا . . كتر . . خيرك . . الدار . . قريبة هنا» ، ويأبى شيطانك أن ينهى الموقف فيمطه إلى أقصى درجة يحتمله ، ويستثمر كل ثانية باقية فيه . تتظاهر أنت بتسوية ما نفر من الحمل ، بينما عيناك ترقبان المرأة ، وتحاصران تعلقها بفتات مقاومتها ، قبيل الانهيار الكامل أو الصراخ المجنون ، فتقول ووجهك يشرق بابتسامة طفل نجح فى ابتزاز قروش إضافية من أمه فوق مصروفه المعلوم «قمطتك حلوة يا خالة» ، ويتلون وجه المرأة بلون التراب الممزوج بالأحمر الكابى ، وتتجمع قطرات متجمدة فى ركنى عينيها ، بينما يدها تتشبث بالطرحة ، تشد طرفها بتوتر مستميت ، وكلما عنف الجذب انزلقت الطرحة ، فترفعها إلى رأسها المنكس بيدها الأخرى ، وما إن تستقر فوق رأسها حتى تعاود الانزلاق ، ويتضاعف الجذب ، وتسارع اليد الأخرى إلى وضعها ، وتظل رائحة غادية ، والعروق تنفر فى جبهتها وعلى جانبى رقبتها ، ونظراتها تغيم وتصل إلى حافة الإغماء . فى هذه اللحظة تنتصب أنت واقفا ، وتولى المرأة ظهرك «فتك بخير يا خالة» ولا تنظر خلفك مطلقا ، وإن التقطت أذناك تدافع خطواتها ، تاركة حملها للغيب .

وأنت يا يونس ، فى كل مكان ، تظهر دائما خفيفا مسرعا ، لا يوقفك غير امرأة تلبس قمطة ليمونية يبرق فى ثناياها ترتر فضى ، لا يعلم أحد من أين تأتى بها كلها على شاكلة واحدة ،

شيطانك كفيل بكل شىء ، وأنت طفل وكهل وصبى لا يكبر ، تصلح ألواح المراكب ، وتضبط دفتها ، وتصب القار على قاعها من الداخل ، وتطليها بألوان الطيف الفاقعة ، وتزوقها كعروس فى ليلة الفرح ، وترتق لساعات طوال قلوعها ، وتحمل الطوب ، وقصعة الأسمنت المختلط بالرمل والزلط ، تبنى سورا أو حائطا مهدما ، وتبيع الصيد فى حلقة السمك ، وتقايض ، فى المواسم ، على وزة سمينة مزغطة ، ولا تتأخر أبدا عن مساعدة المحتاج ، خصوصا النساء فى يوم السوق ، ولا تغير جلبابك السمنى النظيف ، المفرود دائما على جسدك الممشوق كعود الخيزران ، ولا تكبر أبدا يا يونس .

أنا الذى طاوعتك يا يونس ، وذهبت معك إلى كهفك البحرى ، وحكيت لى عن الغندورة التى خطفت عقلك ، ودوخت شيطانك . بت على بابها الليالى الطوال والغندورة نجمة فى السما ، تسكن القصر العالى ، وتعرف قراءة الجرائد ، وكتابة الخطابات ، ولن تفرد لك شعورها الطوال يونس . شعرها مقصوص كفروة خروف جز صوفه فعاود النماء . تذوب أنت يا يونس فى النسمة التى تنفشه فيصير تاجا فوق رأسها الغالى . والشاطر يونس يقف على بابها يخالسها النظر ، ويرقب ساعاتها الملول . وفج النور منشغل عنها بالرجال ، يجمعهم فى داره ، ويظل يحادثهم طوال النهار وساعات الليل الأولى ، يتكلم عن مردة يهدر قلبها كوابور الطحين ، تدور عجلاتها فتسابق الريح ، وتسبق حصان العمدة ، وعن وحوش حديدية لها قوة ألف رجل ، ومراكب بحجم القرية يسكن الناس إليها ، فتحملهم إلى البحر الكبير ، ويريهم تصاوير لجن على هيئة بشر ، عجيب أفعالها ، تنفذ إلى السماء السابعة ، وتخترق الأرض ، وتغوص فى بحر بلا قرار . يستمع الخلق صامتين ، تصدر عن شفاههم ، كل حين ، مصمصة خافتة تحرص على ألا تصل إلى سمع فج النور ، إكراما للمضيف ، ولهيبة الأفندى المقمع ، الذى يسخو عليهم فى طعامه وحديثه ، ولا يلوح عليه الملل أو نية الكف عن الحديث .

والغندورة وحدها ، بين الكتابة والقراءة والاستلقاء فى نسيم العصارى المشبع بالتمر حنة وزهر البرتقال . عيناك ، يا يونس ، ترصدان شرودها ، وتنزعان أثواب نومها عن جسد ، بات ناحلا مع الأيام ، وخيالك يعربد فى ثنايا لم تعرفها . يرشف رحيقا ما ذقته . تغوص أصابع وهمك فى ملمس حريرى ، تشهق بنور يباغت ظلام عينيك ، تجن ، يا يونس ، وأنت مسمر على الباب لا تتقدم ولا تتراجع ، وشيطانك يضج داخلك ، يعلن عجزه المتشبث اليائس ، ويظل يعافر كى يتثقب المستحيل .

أخيرا ، يا يونس ، حانت لحظة تعلقت بها فى جنون ، لحظة استرخاء كامل بين اليقظة الناعسة والمنام ، والوجود ساكن فى غبشة الغروب ، تسلل المجهول بين أقدام الليل والنهار ، لحظة تغيير نوبة الحراسة «إلا ياست . . ما تجيبى لك حتة عيل . . يملا الدنيا عليك» . لم تكن قد تجرأت يا يونس ، ووجهت إليها الحديث من قبل . اعتادت هى وجودك الصامت ، وقيامك بتوافه الأعمال ، وإسراعك المتفانى النشط لتلبية أدنى إشارة تصدر عنها ، ثم تعود إلى وجودك الصامت كحائط ، أو كقطعة أثاث . لوهلة إنتابتها أريحية مباغتة «كده أمر الله» قالتها دون اهتمام ظاهر ، لكن عينيك التقطتا هبوب زوابع أسى دفين ، هاجع فى الأعماق ، حركته كلماتك من مستقره ، فاجتاح الوجه ، دون أن تتمكن هى للحظات من الإمساك به ، كانت تقف فى وجه الريح مستسلمة للعاصفة ، وأى ضرر فى أن تكون على سجيتها فى حجرتها شبه الخالية ؟ راقبتها أنت بحذر ، مقدرا عواقب الخطوة التالية ، وفى اللحظة

التى بدا فيها انحسار العاصفة ، جرحت السكون بنبرة صوتك القديم المشروخ «بيقولوا ياست إن الواحدة إذا طلعت للقمر ليلة تمـامـه . . وخبـطت . . لا مؤاخـذة يعنى . . عـلى صدرها . . تجيب خلفة على طول» التفت رأسها ناحيتك فى عنف ، وبعينيها غضب مهان ، كأنها اكتشفت تلصصك على عريها فى الليلة القمـريـة ، وجـذعهـا ينتصب عـلى حـافـة الكرسى ، وهى تهم بالقيـام لطردك ، أو لقـذفك بمـا تنالـه يدها . كان وجهك فى مواجهتها تماما يعكس دهشة طفل لا يعرف أنه أذنب . هدأ توترها ، وعادت إلى استرخائها «دى خرافات» قالتها بسرعة وغيظ ، وبشىء من الندم ، لانسياقها فى الحديث منذ البداية .

لجأت أنت إلى الكمون فى الأيام التالية ، ترصد ، وترقب ، وتسجل فى بالك ، كل نأمة تصدر عنها . ازداد الشحوب ، وطالت فترات الشرود ، وصارت جلسة الاسترخـاء المختارة فوق سطح البيت ، فى الليـالى القمريـة . وأنت يا يـونس ، تحترق وتشم رائحة الشياط فى لحمك ، ولا يطفىء لهيبك ماء البحر ، ولا بحار العالم . ليس غير هذا الرحيق الذى لم تذقه . تبحث عن كل وردة طاف عليهـا النحل ، تتحسسها بشبق ، وتشمها بملء رئتيك ، فتضطرب أوراق الوردة ، وتكاد تتساقط تحت لهاث أنفاسك . تنزعها ورقة ورقـة ، وتلوكها لحـظات طـوال ، تلون فمك بنـزيفهـا ، ثم تـزدردهـا فـيزداد سعـار أحشائك . وأنت ترقب ، وترصد ، وتحاذر أن تختفى تماما ، وتحاذر أن تظهر ظهورا كاملا . وتحترق .

وليلة استجـاب القمر فصـار بدر التمـام ، ومـد ذراعيـه للغندورة ، كشفت له كنز عريها ، ودارت الدنيا بك يا يونس ، فى مـوضعـك المستخفى ، فتشبثت بنتـوء بـارز فى الجـدار المجاور .

الاستـدارات الفضية الحليبيـة المعجونـة بالشهـد المصفى تنطلق من عقالها ، واهتزازها يملأ عينيك ، وأذناك معلقتـان بخبطات هينة رفيقة ، تصاحبها تمتمة كائنات غير مرئية تحوم فى الفضاء ، ولسان لهيب يندلع من بين شقوق البركان ، يطاول السماء ويطول الغندورة ، وهى ذاهلة كالغائبة .

بجسدك كله تدكها ، بفمك وأطرافك ، باللحم والعظم ، وتغور فيها مستطلعا مبهورا ، وأطنان عسل مذابة فى أسماك بحرية مملحة تنهال عليك ، وأنت تنهل ولا تـرتوى ، وتعـود لتنهل فلا تحس بالارتواء ، فتغور أكثر لعلك تصل إلى منابع العسل ، ومنبت الرائحة الحلوة الحارقـة النفاذة ، التى تسـد عليك منافذ الهواء ، تلك الرائحة التى صاحبتك ، يا يونس من وقتها ، وتصاحبك حتى قبرك . لم تعـرف ، ولن تعرف سرها ، يـا يونس ، ومـا كنت بقادر عـلى فك طلسمهـا مهما غـرت ، وحتى لو لم تفق عـلى لذعـة ألم جهنمى ، فاق آلام لذتك ، ألم انغـراس قطعـة من لحم خدك الأيمن بـين أسنان الغندورة .

أنت الذى أخذتنى إلى البحر ، يا يونس ، وحكيت لى عن الغندورة التى أمرت بطردك دون جلبة . لم تكن تجديك الدموع تنسال فى كل طلعة قمر ، ولا استعطافك بدر التمام ، وطوافك الدائم فى البحر ، تعاشر أمـواجه ، وتـأكل إذا منت عليـك أسماكه ، وتوشوش رمال الشطآن ، حبة حبة ، عن البذرة التى نمت فى جسد الغندورة ، فانتفخ بطنها الأملس المشدود ، وصار بحجم القمر . وفج النور يطير فرحا ، ويولم للناس ويغـدق عليهم ، ويجلب المردة والوحوش الحديـدية ، يهـابها النـاس ويتحاشونها أول الأمر ، ثم يقبلون عليها فى حذر ، ويعتليها أصحاب الجسارة منهم ، ويعـرفون كيف يـديرونها . والمينـا القديمة تشغى بعمال كالنمل ، ومراكب الصيد مهجورة مكومة على الشاطىء ، والقروش تجرى فى الأيدى ، والنساء ينحشرن فى ملابس زاهية ، ويسببن شعورهن ، التى ما عادت تغطيها قمطات ، ولا تنسدل عليها طرح سوداء .

والغندورة ، يا يونس ، يوافيها الوعد ليلة اكتمال القمر ، وترضع وليدها شهدا خالصا ، فيكبر الولد كتلة لحم طرية كأنها بغير عظام . ويخرج فى أوقات للعب معنا فى الساحة قرب بيته ، وما إن نراه حتى نهلل «سونه جه يا ولاد» ، وتتشابك أيدينا فى حلقة يدور وسطها حول نفسه ، وهو بين الضخك والبكاء . نتعب من الـدوران ، فتنفلت أيدينـا ، ولا نهمد ، فيسـارع عفريت منا وينط على الولد ، يقرص خدوده السمينة ، ولا يطلقه حتى يتعالى صراخـه ، ويكر عـائدا إلى بيتـه ، ونحن وراءه ، لا نكف عن الصياح ، والضجيج ، والتبارى فيمن يلحقه ويطبق على مؤخرته المترجرجة .

وأنت ، يا يونس ، تجلس القرفصاء ، متخفيا وراء جدار ، ترقبنا وتنكش الأرض بعصا رفيعة فى يـدك تبحث عن شىء ضاع منك . لا يعلم أحد بوجودك غيرى ، وتناديني «بتعاكسوا سونه ليه ياولاد . . ما تخلوه يلعب معاكوا» وأطاوعك ، فأنت الذى أخذتنى إلى البحـر ، يا يـونس . ويلعب معنا سـونه . لأجل خاطرك ، أحتمل رخامته ، وأرفض أن ننحيه عن فريقنا فى لعبة الغماية . أطير به ، ويده فى يدى ، إلى كومة التبن فى جرن دارنا ، وهو يلهث ويتملص وأنا أشد على يده الرخوة ،

وأجره خلفى ، ولا أتركه إلا بعد أن نستقر داخل الكومة ، ونختفى عن عيون الفريق الآخر .

مرة ، انفلتت منى يده ، حسبتها انخلعت من كتفه ، لكن يدى كانت خالية . اختبأت أنا وانتظرت .

فجأة ، طبت العفاريت على أنفاسى ، فعرفت أن الولد دلّ علىّ . لا أدرى ، يا يونس ، كيف طق عرق الغضب فى رأسى ، ووجدت نفسى خارجا من كومة التبن أصيح «سونه مش ابن فج النور ياولاد . . ده ابن القمر» وأجرى وأصيح «سونه مش ابن فج النور ياولاد . . بأمارة الوحمة الحمرة اللى فى صدر أمه الشمال . . يونس قاللى ياولاد . . سونه ابن القمر ياولاد» .

هاجت الدنيا وماجت ، وتجمع الخلق ، وغبت عما حدث . ثلاثة أيام بلياليها الطوال وأنا فى الحبس ، يا يونس ، يصلنى لغط كثير ، ومجالس تعقد وتنفض ، وصوت أبى بين أصوات كثيرة لا أستبين لها كلاما . وأمى تولول فى أقصى الدار عندما تخفت الأصوات . وأياد تتخاطفنى ، وتعلقنى من أقدامى كذبيحة العيد . أصرخ ، ولا أتبين أنها يد أبى تدفع بالطعام من فرجة الباب .

لم أعرف ماذا حدث ، لكننى أصبحت ذات يوم ، فإذا بفج النور وامرأته وقد اختفيا ، وتلاشيت أنت يا يونس .

قالوا ، فج النور قتل يونس ورمى جثته فى البحر الكبير .

قالوا ، يونس حملته مركب إلى بلاد الله الواسعة .

قالوا ، يونس آخته جنية من بنات البحر ، وهو الآن يعاشرها ، وينجب منها ، فى كل طلعة قمر ، عروساً ما رأت جمالها عين ولا سمعت به أذن .

قالوا ، يونس رأى الذى لم نره ، رأى الشر يأتى مع فج النور الذى قلب حالنا ، وخرب بيوتنا ، وأتلف علينا نساءنا ، وسخر الجان ، يونس ، أبطل السحر ، فدى أهله وناسه ، وأنقذنا من شر مبين .

قالوا ، يونس بلعه الحوت ، مثل سميه النبى ، وهو الآن فى بطن الحوت يأكل ويشرب ويسبح بحمد الذى نجاه . يونس ، لابد يوما يعود ، وكل آت بميعاد .

وأنا ، ما قلت شيئا ، يا يونس ، وإنما كبرت ، وركبت البحر الكبير ، وعرفت الوحوش الحديدية المهجورة ، أغوص فى شعاب غاباتها السوداء حتى منابت الشعر ، وأتسرب فى

مسام جلدها ، وفى عروق معدنها ، وألوب فى جذورها وأعود ، كل مسمار فيها يعرفنى ، وتعرفنى التروس وأسنانها الصدئة تلين فى يدى ، وصرير قلبها ينادينى ، فى طلعة القمر ، ويعلو النداء ليلة بدر التمام .

صرت أخرج إلى البحر الكبير ، يا يونس ، وفى قلبى رياح المينا القديمة ، وعيون صبية انكشف رأسها ، فى يوم ، عن قمطة ليمونية مهترئة ، ما عادت أطرافها تبرق . قالت ، وخدودها تطفر بحب الرمان على غصنه «دى بركة سيدى يونس . . بتجيب العَدَل» .

أخرج إلى البحر الكبير ، وأصل إلى الحوت ، أشق بطنه ، آتى بلحمه وعظمه وزيته ، مهرا لعيون الصبية ، وللتروس السمراء .

أخرج إلى البحر الكبير . أشق بطن الحوت ، وآتى بلحمه وعظمه وزيته ، على مركبى ، فى عز النهار .

القاهرة : اعتدال عثمان

الفتاة ذات الوجه الصبوح

محمد المنسى قنديل

لليل رائحة الخبز الطازج . .

حدقت « سعيدة » فى أضواء المطار . . كانت صفراء ساطعة كأنها أرغفة الخبز الشمسى . ابتسمت وهى تقول لنفسها فى همس :

- والله ريحتك حلوة يا مصر . .

ورغم ذلك كان هناك شعور خفيف بالغثيان . وظل هذا الشعور يلازمها حتى بعد أن توقف الأتوبيس عن الاهتزاز . كانوا فى منتصف الليل ، والركاب ذوى الوجوه المتعبة يهبطون فى صمت ، يحملون على أكتافهم ، وفوق ظهورهم حقائب ثقيلة مربوطة بإحكام . .

استدار السائق فى مقعده . ووقف المحصل بجانبه . كان السائق قد لمح عينيها فى المرآة الأمامية ، وأوشكت عجلة القيادة أن تفلت من يده . وشعر المحصل بحرقة . كان يشع منها وهج غريب . تتناثر ذراته وسط عتمة الأتوبيس ورطوبة الليل . وكانت سعدة تحاول إيقاظ الغلام النائم بجانبها . استيقظ ووقف وهو يفرك عينيه بظهر يديه . حمل اللفافة التى كانت معها ونزل أولا . واقتربت سعدة منهما فشعرا بالدفء حين ابتسمت وقالت :

سا الخير عليكم .

كانت تحمل فى يدها جواز سفر . فشعر كل منهما بالحزن . أحسا أنهما لن يقدرا على قيادة الأتوبيس مرة أخرى حتى يقوما بالرحلة الأخيرة قبل الفجر . وقال المحصل فى حسرة :

- دى مسافرة . .

ووضع السائق يده فوق جهاز التنبيه فارتفع صوته عاليا . التفتت « سعدة » فى خوف ، ولكنها حين لمحت وجهيهما يطلان عليها من خلف الزجاج ابتسمت ابتسامة ساطعة . وضغط المحصل على كتف السائق فى امتنان « يكفيهما أنهما ظفرا بهذه الابتسامة .

كان هناك مسافرون كثيرون بالنسبة لهذا الوقت من الليل . ولكن الشرطى الذى يحرس الباب الرئيسى كان نائما . يجلس فوق الكرسى واضعاً البندقية بين ركبتيه ، ورأسه مائلة على جنب حتى أن غطاء الرأس كان على وشك السقوط . وحين مرت سعدة بجانبه ابتسم ، ولابد أن حلما قد عبر مخيلته فى هذه اللحظة . كان هناك أيضا الكثيرون ومن المنتظرين والنائمين فى القاعة الرئيسية . وتوقفت « سعدة » مبهورة . كانت القاعة كبيرة وممتدة . مليئة بالأبواب ، واللافتات ، وإشارات التحذير ، والرجال ذوى النظرات المستريبة . قالت فى حيرة :

- والله ما أنا عارفه آروح فين ؟ . .

وفجأة دبت فى القاعة حركة غريبة . جاءت سيارات

مسرعة وألقت برزم من الصحف الجديدة . كان حبر الصفحات الأولى لم يجف بعد . والأخبار قد تداخلت . وارتفعت مكبرات الصوت تعلن عن وصول كل الطائرات المتأخرة . واستيقظ النائمون على المقاعد ، وأخذوا ينفضون الغبار من على ثيابهم . واشتعلت المصابيح نصف المحترقة فى تألقها الأخير . وأخذ موظفو الجوازات يدقون أختام الدخول والخروج فى جذل . وتقدم حمال محنى الظهر . أمسك لفافة « سعدة » ومسح تراب السفر من عليها وسار فسارا خلفه . كانت هناك بوابة حديدية أخرى يقف عليها شرطيان . توقف الحمال وأشار لها بالدخول . بحثت « سعدة » فى جيوبها عبثا عن أى نقود ، ولكن الحمال سلمها اللفافة وتراجع وهو يقول فى خجل :

- بالسلامة . . بالسلامة . .

ورفع الشرطى الواقف على الباب يده وهو يقول :
- مين مسافر ؟ . . التذكرة والجواز . .

وقدمتهما « سعدة » فأعطاهما لرجل يجلس خلف منضدة خشبية صغيرة فأخذ يقلب فيهما بريبة بالغة . أشار للغلام وهو يقول : ودا ؟ . . قالت سعدة : بيوصلنى . قال الرجل : لغاية هنا ممنوع . وتراجع الغلام وهو يقول :

- خلاص أنا . . مع السلامة ياسعدة . .

ووضعت سعدة يدها على رأسه . أدخلت أصابعها فى شعره وقالت :

- مع السلامة . سلم على كل الناس اللى فى البلد .

ورفع الطفل ذيل جلبابه ، وأمسكه بأسنانه ، ثم أخذ يعدو مبتعداً . وظلت تراقبه حتى اختفى فى الظلام خارج المطار . وانتابت الرجل حالة نادرة من حالات المودة فسألها :

- أخوكى ؟ . .

قالت وهى تمسح دمعة صغيرة من طرف عينيها . .

- لأ . . من البلد . .

ونظر الرجل فى أثره . كان الطفل صغيراً جداً على مثل هذا المشوار ، فى مثل هذا الوقت من الليل . قال فى استغراب :

- حيرجع ازاى ؟ . .

هزت سعدة كتفيها فى بساطة :

- حيركب فوق ضهر القطر . . احنا جينا كده . .

ومد الرجل يده لها بالجواز . وحين أخذته لمست أطراف أصابعه أطراف أصابعها . أحس بقشعريرة . هواء الليل ولا شك . ترى ماذا سيكون شكلها تحت ضوء النهار . تذكر أنه لم ير وجه الناس تحت ضوء النهار منذ زمن بعيد ، وأنه يشرب الكثير من أكواب الشاى والقهوة ، ويحرق عشرات السجائر ، ويراقب قائمة الممنوعين ، ويومىء فى السر لأمين الشرطة . . يفعل ذلك كله كأنه يعانى من كابوس لا ينتهى . تمنى لو أن اسم هذه الفتاة كان فى القائمة . لو أنه يستطيع أن يمنعها من السفر لأى سبب . ولكنها مضت مبتعدة . كان قد تعود بعد أن مارس العمل فى الليل على أن يرى الكثير من الأشياء الجميلة ، خاصة فى ساعات الليل الأخيرة . وفى لحظات الوحدة الممضة ، وفى آخر الشهر . . ولكنها دائما كانت تبدو . . تذوب وسط ذرات الليل .

وضعت سعدة اللفافة فوق الميزان فلم يسجل شيئا وكان الصف طويلا أمام ضابط الجوازات . وقفت فى مؤخرة الصف ولكن شخصاً ما مد يده ، وأخذها ، وأوقفها أمام الضابط . كان مشغولا ، منكفئا على الجوازات يفر أوراقها بسرعة ، ثم يختار ورقة فارغة ، ويضع عليها الختم بحركة قوية . وكانت يده مرفوعة بالختم عندما رفع رأسه فى نظرة عابرة فرأى « سعدة » ، فظلت يده معلقة فى الهواء . وابتسمت سعدة فى تودد . ولكن وجه الضابط ظل جامدا . كأنه رآها فى مكان آخر قبل الآن . فطن إلى أن الجميع ينظرون إليه ، فأنزل الختم ، وأزاح الجواز الذى كان مفتوحا أمامه ، فهتف صاحبه محتجا :

- ختم الخروج يابيه . .

ولكن الضابط طوى الجواز فى عصبية ، وهتف به :

- بعدين . . بعدين . . أقف فى آخر الصف .

وقال الرجل فى احتجاج منكسر

- آخر الصف . .

ورمقه الضابط بنظرة غاضبة . فرمق الرجل « سعدة » بنظرة أكثر غضبا . وعاد إلى آخر الصف . كان الضابط عصبيا لدرجة أخافتها . وفكرت أن تعود هى أيضا إلى آخر الصف ، ولكنه هتف بها :

الجواز .

أعطته له صاغرة . قلب أوراقه بسرعة ، وقال وهو يأخذ نفساً عميقا :

- حاتشتغلى إيه هناك ؟ . .

قالت سعدة مستغربة :

- فين ؟ . .

- حيكون فين . . فى الخليج . .

قالت سعدة فى استكانه :

- الله يعلى مراتبك يابيه كمان وكمان حاشتغل أى حاجة .

ولكن الضابط أحس أنها تحاول خداعة فهتف غاضبا :

- أى حاجة ازاى . لازم فيه حاجة . . معاكى عقد ؟ .

وفتشت سعدة فى الأوراق الموجودة فى جيبها ، وأعطت للضابط ورقة مطوية ، وقد بدأت تشعر بالخوف . قرأها بسرعة ثم ألقاها فى إهمال وقرف وصاح :

- دا عقد دا . . شغالة . . هيه . . شغالة . .

ونظرت سعدة إلى الناس مبتسمة ، وإلى الضابط متوجسة ، وقالت :

- آكل عيش يابيه . . ربنا . .

ولكن غضب الضابط الجامح لم يترك لها فرصة للاسترسال فصاح مقاطعا :

- تشتغلى هناك ليه . . ليه . . ليه مش عندى . .

وفوجئت سعدة بالاقتراح . وبدا أن الضابط قد فوجىء باقتراحه أيضا . حاول أن يتلافى ذلك فأشار للصف الطويل الواقف أمامه وهو يهتف :

- أو عند أى حد من الناس دول . .

ولم يكن يعنى ذلك . قالت سعدة فى توسل :

- ربنا يخليك يابيه . دا انا دقت المر على ما بال ما جانى العقد دا . .

دق الضابط المكتب الذى أمامه . أوشك أن يهشم الزجاج . لم يكن فى جوازها شىء غير عادى . جواز جديد بلا خدش واحد . وتأشيرة دخولها البلد الآخر جلية واضحة . ولكنه كان يريدها . سوف تقيم زوجته الدنيا وتقعدها عندما يعود إلى البيت . وسوف يتسلل إليها فى الليلة الأولى من نومها فى غرفة الأولاد . ويقص القصة كاملة فى وردية الليل التالية . سيلمِّع النجوم . وينظف الحلة الرسمية عند « اللوندرى » ، ويتفاوض مع كل المهربين . ويعرض عن كل المضيفات . ويؤدى له كل النجوم التحية الكاملة . وهتف بها للمرة الأخيرة :

- حايدوكى كام . . هيه . . هنا أحسن لك ؟ . .

ولم تتكلم سعدة . استنفدت كل ما لديها من توسلات . كان الصف الواقف يحدق فيها بوجوه جامدة لا تحمل تعبيراً . كانوا بشكل أو بآخر أجراء مثلها . يمسكون جوازاتهم الخضراء ، وينتظرون فى صمت كئيب . وصرخ فيها الضابط :

- يعنى إيه . . ما بتتكلميش ليه . . يعنى أقبض عليكى . .

وشهقت « سعدة » فى خوف . كانت على وشك البكاء . وابتعد الشرطى الواقف بجانب الصف خطوة حتى لا يلاحظ الضابط جوازها وهو مازال يصيح :

- حيضحكوا عليكى . وشرفى حيضحكوا عليكى . وحايسلفوكى لبعضهم كمان . . اللى تعجبيه حايديكى لصاحبه . وابقى تعالى قوليلى شغلنى . . بشرفى لما ترجعى ما حتساوى نكلة . . إتفضلى . .

وأهوى بالختم على الجواز فتحول الختم إلى بقعة غير منتظمة من الحبر الأسود . ألقاه إليها فى غيظ فاحتضنته فى صدرها ، ومضت مسرعة دون أن تدرى إلى أين تذهب . أشار لها أكثر من شخص على أكثر من اتجاه . كانت الأرض لامعة . والبوابات متشابهة . أشار لها الجندى أن تمر من خلال جهاز التفتيش ، وفجأة أخذ الجهاز يطن

بشكل متواصل . وتركها الجميع ، وأخذوا ينظرون للجهاز فى استغراب . كان معطلا منذ سنوات طويلة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون من الركاب أن يعرفوا ذلك . ولكنه الآن يطن بقوة كأنه يعوض أيام العطل القديمة . وأخذت تظهر على شاشته المضيئة أشكال غريبة . . كأنها طيور أو أسماك . . أو مجرات سابحة . . خطوط ودوائر ومثلثات . . وابتعدت سعدة كثيرا ، ولكن الجهاز ظل يطن ، وضربه الشرطى الواقف بجانبه فى عنف وغيظ ، فسكت فجأة وانطفأت الشاشة ، وساد الصمت .

كانت ما تزال حائرة ، ومكبرات الصوت تصرخ ، والطوابير تتراص أمام الأبواب . وكل طابور لجأت إليه لم يكن لها . كانت حزينة ومنكسرة . أحست فجأة بتعب السفر المتواصل . عبر مخاضات الترع ، والمصارف ، وفوق ظهور الحمير ، وعلى سطح القطار ، وفى زحام الاتوبيسات ، وانقلاب النهار إلى ليل ، والتراب إلى أسلفت ، والأدعية إلى كلمات جارحة . وللمرة الأولى أحست بالتردد نحو بقية الرحلة . لم تدر أى مواصلات أخرى عليها أن تركبها . وأى إهانات سوف تتلقاها . ولكن حين دوت مكبرات الصوت من جديد نهضت . وقفت فى الصف الطويل . ركبت الأتوبيس الواسع نهض فلاح شاب كان يبدو عليه أنه أكثر ذعراً منها ، وعرض عليها الجلوس فى مكانه . فغدت لمصر رائحة الخبز الطازج . وأصبحت أعمدة الضوء شاحبة وعلى وشك الانطفاء . صعدت على سلم الطائرة المعدنى . ابتسمت لها المضيفة عند الباب فلم تجد فى نفسها القدرة على مبادلتها الابتسام . جلست بجانب النافذة ، وظل المقعد الذى بجانبها شاغرا . نظرت للظلام خارج الطائرة . ترى هل استطاع الغلام الصغير أن يجد طريقه وسط طرقات الأسلفت المتشابهة ؟ أغمضت سعدة عينيها فنامت ، وكانت متعبة فلم تستطع أن تحلم .

اهتزت الطائرة فاستيقظت « سعدة » . وجه المضيفة وهى تبتسم . كانت الابتسامة قريبة جدا من وجهها فابتسمت . أشعلت الطائرة كل أضوائها وتراقصت المؤشرات فى غرفة القيادة ، وفك الركاب الأحزمة ، وانطلقوا فى صخب محموم فى طرقات الطائرة ، يشربون المياه الغازية ، ويتحدثون عن الأيام الماضية . وأخذ صعيدى ذو صوت مشروخ يغنى : يابو العيون السود . . ياللى جمالك زين فأسكتته احتجاجات الجميع . كانت الطائرة تخترق سماء مظلمة لا توجد فيها أى ملامح . استعادت « سعدة » سعادتها . ونهض الصعيدى وأصر على مواصلة الغناء . وبعد مقاومة . وافق البعض وسد البعض آذانهم ، وارتفع صوته المشروخ فوق صوت محركات الطائرة . اكتشفوا أن فى صوته بعضا من الجمال ، والكثير من الأسى والحنين : إمتى الزمان حيعود . . ونرجع سوا الاتنين . . وضحكت « سعدة » بصوت عال ، فقالت لها المضيفة :

- ياه . . دا انتى ضحكتك حلوة قوى . . مش بتضحكى كثير ليه ؟ . .

وغابت المضيفة . وكفت سعدة عن الضحك لأنها اكتشفت أن وجه الشاب الفلاح يطل عليها من خلف مقعده . نفس الفلاح الذى تنازل لها عن مقعده . وجهه مشدود ، مغطى بالعرق . حدقت سعدة فيه بمرح ، فأدار وجهه فى خجل . عادت المضيفة ومعها مضيفة أخرى وقالت لها :

- شفتى . . هى دى البت اللى قلت لك عليها . .

وابتسمت سعدة وهى تقول :

- قلتلها إيه ياست هانم .

وضحكوا جميعا . وعاد الفلاح ينظر . وارتفعت عقيرة الصعيدى بالغناء . ومرت الطائرة فى مطب هوائى فارتج الجميع فى نشوة مفاجئة : وقالت المضيفة الأولى :

- أنا جبت لك هدية صغيرة . . خدى . .

وأخرجت من جيبها اسطوانة طويلة من الورق المقوى . تناولتها سعدة فى دهشة ، وأخذت تقلب فيها . وانصرفت المضيفتان ضاحكتين . اكتشفت أن أحد طرفيها مسدود . والطرف الثانى له عين زجاجية . رفعتها سعدة وأخذت تنظر فيها . كانت جدرانها مكسوة بالمرايا المتقابلة بينها قطع صغيرة ملونة . ومن خلال هذا التمازج كانت الأسطوانة تصنع فى كل حركة من حركاتها عشرات الانعكاسات . نظرت سعدة فرأت خطوطاً خضراء . تتقاطع وتتمدد وتتداخل كأنها حقول متشابهة تفور

بالخضرة والنضارة . أحست سعدة بالريح الرخية وهى تهب ؛ والحشرات وهى تطن . والعروق العطشى وهى تنتفض فى لحظة الرى . وخيم على كل شىء صمت لا يليق إلا بتفتق البراعم . وأدارت سعدة الأسطوانة فتشابكت الخطوط الزرقاء . تداخلت الترع النحيلة الضحلة والمصارف المالحة ، لكى تكون رياحين مترعة ، تخترق أحضان الجبال والجزر الرملية ، لتصب كلها فى بحر النيل الذى لا يمتلىء ولا يفيض ، ولا يرد عطشانا ، ولا يبتلع غريقا . ولا يرضى - إلا مرغما - بنوم الجوعى على ضفافه . أدارت سعدة الأسطوانة فتداخلت الألوان . وجرت بنات القرية فى ثيابهن الملونة وأكفهن المخضبة بالحناء . ونقت الدجاجات . وأكلت الماعز كل الأوراق القديمة . وأدارت سعدة الأسطوانة . . كتلة البيت الطينية تحت النخيل ، وبقعة سوداء حيث تجلس أمها ساكنة تنتظر . وبقعة حمراء حيث الشال الأحمر الذى استعارته من صديقتها لتسافر به ، وتحضر لها أحسن منه . وبقعة صفراء حيث كومة القش التى انسربت إليها - مثلما تفعل البنات - ومارست أولى تجارب الحب المتعجلة ، وشعرت فيها بالخوف أكثر مما شعرت باللذة . ورأت القطن ناصعاً ، والقصب شامخا ، والفول عذب الريق كالعسل المصفى . رأت طيوراً ملونة تنطلق فى سماوات عالية لا نهاية لها ، ولا سحب فيها . وضحكت « سعدة » ورفعت عينيها من فوق المنظار ، فرأت الشاب الفلاح جالساً بجانبها .

لم تدر سعدة متى جلس بجانبها . كان يجلس وهو يحملق أمامه فى خط مستقيم كأنه لا يراها . عيناه جاحظتان ، وشفتاه جافتان . حاولت سعدة أن تعود للأسطوانة فلم تستطع . كانت تسمع أنفاسه الثقيلة فى وضوح . التفتت إليه وهى تسأل :

- مالك . . تعبان ؟ . .

وحرك الشاب شفتيه كأنه يحاول عبثا أن يخرج الكلمات من بينهما . ثم قال فجأة :

- عايز أقول حاجة . .

- قول . .

كان ينتفض تقريبا وهتف :

- تتجوزينى . .

كان فى حالة يرثى لها . وأوشكت سعدة أن تضحك أو تغضب . ولكن كل هذا سوف يزيد من متاعبه . وساد الصمت . لم تنظر إلى وجهه ، ولكنها كانت تحس به وهو ينتفض ، ويحاول أن يتماسك . كان صوت الطائرة عاليا لدرجة أفقدتها القدرة على التفكير فى أى شىء . قالت فى هدوء :

- ما تروح تقعد مطرحك . .

ولكنه استعاد بعضا من قوته وهتف بها فى حرارة :

- أنت أصلك فكرانى باهزر . وربنا المعبود أنا بتكلم جد . هى الحاجات دى فيها هزار . أنا صحيح لسه شايفك دلوقت . يعنى وانت داخله المطار . بس وربنا المعبود زى ما أكون عارفك . عارفك من زمان خالص . أنا حتى متهيألى إنى أعرف اسمك . . واسم بلدك . . واخواتك . .

وردت سعدة فى برود

- أنا ماليش اخوات . .

فانطفأت حماسته ، وساد الصمت بارداً . وكف المغنى الصعيدى مجهدا . وواصلت الطائرة سيرها ظلت تحملق من خلال النافذة ، ولكنها أحست به وهو ينهض من جانبها ، ويذهب بعيداً . أحست أن جسدها بارد ، وفى حاجة لمن يمسك يدها . تمنت لو أن الغلام كان معها فى هذه اللحظة إذن لاحتضنته وأخفت وجهها فى صدره . . وعادت المضيفة مرة أخرى . كانت تحمل صنية من الطعام وقالت لها :

- عاجبتك الهدية . .

قالت سعدة وهى تحاول الابتسامة :

- دى الدنيا كلها فيها . .

وضحكت المضيفة ، ووضعت الطعام أمامها ومضت . كانت سعدة جائعة فأكلت كل شىء : المربى ، ثم الخضار ، ثم اللحم ، وكل الحلو على كل المالح . كانت محرومة منذ زمن بعيد . تقوم دائما وبطنها نصف ممتلئة . وفى كل مرة كان هناك سبب حتى لا يمتلىء النصف

الآخر . وأحست بسرور حقيقى بعد أن شربت الشاى ، وتمنت لو أن هذا الليل ينتهى ، وتبدو السماء الرائقة حتى تستطيع أن تفكر بعقل رائق . ورفعت عينيها تبحث عنه

كانت المقاعد عالية فلم تستطع أن تراه . فكرت أن تنهض وتتعلل بأى حجة ، ولكنها استكثرت الأمر على نفسها . ثم رأته يطل عليها من خلف المقعد . لم يكن يظهر من وجهه إلا عينا فأر مذعور . ابتسمت سعدة فابتسم . ضحكت فضحك . ثم توقفا سويا عن الضحك ، وواصلا النظر ، كأن كلا منهما يعيد اكتشاف الآخر . واستلزم الأمر كثيرا من الشجاعة حتى ينهض ويجلس بجانبها من جديد .

ظلا صامتين وخف صوت محركات الطائرة كأنها قطعة من السحاب . كأن الريح هى التى تدفعها . وقال الشاب فجأة :

أصلى أنا حاشتغل فى مزرعة كبيرة ملك واحد من الشيوخ الكبار قالولى كده . أصل دى أول مرة أسافر فيها . مش عارف حظى حيبقى إيه إنتى سافرتى قبل كده . . ؟

قالت سعدة :

أول مرة . .

– كان عندى بقرة يعنى ما فيش إلا هيه بعتها عشان الشغلانه دى السمسار والتذكرة ، والمصاريف وياريتها كفت . ربنا يسهل وأقدر اشترى واحدة غيرها . أمى زعلانه عليها قوى كانت بتعتبرها من العيلة .

قالت سعدة :

– وأنا بعت جوز معيز وأربع بطات وعشرة فراخ ، وثلاثة ديوك ، ويجى متين بيضة ، واستلفت فوق دا ودا . .

ثم صمتا وعادت المضيفة فنظرت إليهما سوياً وابتسمت ، وهى تقول . . انتم عاملين جو . . واحمر وجه الفلاح فى خجل . وابتسمت سعدة وهى تقول . . يعنى . . وقالت المضيفة : مش عيزين حاجة . مع الأسف ما فيش على الطيارة ورد . وانصرفت ، وبدءاً يشعران بالبهجة من جلوسهما متجاورين سألها عن اسمها فقالت سعدة . وسألته فقال : مرعى . وعاد يقول :

– أنا كنت بتكلم جد ساعة ما طلبت منك تتجوزينى .

قالت بابتسامه : تانى . .

قال بحماس . . وربنا المعبود .

قالت :

– هو انت عارف احنا حانشوف بعض تانى والاّ لأ . انت عارف أنا رايحة فين . أنا نفسى مش عارفة . ولا انت كمان عارف إنت رايح فين أول ما الطيارة حتوصل كل حى منا يروح لحاله . .

قال مرعى بسرعة :

– لا . . حانتقابل . .

قالت : إزاى . . صدفة . .

وسكت مرعى . كانت محقة . وابتسمت سعدة وهى تقول :

– شفت بقى إنك أى كلام . .

وظل مرعى حائراً . كانت سعدة تأخذ المسألة بمحمل السخرية ، ولكنه أحس أنه فى ورطة . ولكنه هتف :

نتقابل فى مصر إيوه . لما نرجع إنت حاتخدى أجازتك بعد سنه من دلوقت وأنا حاخذ أجازتى برضه بعد سنه من دلوقت وآجى عندكم البلد ، وأقابل أمك . .

قالت سعدة :

– يا مين يعيش بعد سنه . .

– لو عشنا حانتجوز . . يعنى انت حتعملى إيه السنه دى ، مش حتشتغلى وبس . أنا كمان حاشتغل وبس . ونرجع نتجوز . .

ونظرت إليه سعدة : تأملته للمرة الأولى كان جاداً بشكل يثير الدهشة قالت :

– والله فكرة ياواد يا مرعى .

– عرفتى بقى إنى مش أى كلام . .

كانت هناك ندبة فى رقبته ممتدة إلى أعلى الأذن . مدت سعدة يدها . ولمستها بأطراف أصابعها . كل ما فى الأمر

أنها أرادت أن تلمسه . أن تتأكد من وجوده . ولكنه انتفض ، فقالت :

- من إيه ؟ . .

قال وهو مازال غير قاذر على السيطرة على نفسه :

- من الحرب . . أنا أصلى حاربت كثير قوى كويس إنى نفدت بعمرى . .

وضحك بجفاف وأضاف فى صوت خافت سمعته «سعده» بالكاد : أنا كنت بخاف من الطيارات قوى . ثم قال فى صوت عال :

- ما قلتليش . . تتجوزينى . .

وضحكت سعدة وهى تقول :

- بعد سنة أقولك . .

وبدت فى السماء أولى تباشير الفجر ونهض المغنى الصعيدى فأخذ يشدو حتى أبكى الجميع من الطرب . ووضعت بنت صغيرة حزاماً حول وسطها وأخذت ترقص ، وأمها تصفق فى حماس . وطاف أحد الركاب يحمل علبة «ملبس» وأخذ يفرقها على الركاب . ثم بدأوا يقولون النكات بصوت عال . عن الصعايدة ؛ والفلاحين : والأزواج المغفلين ، ورؤساء الجمهورية السابقين . وضربت المضيفة كفا بكف وهى تقول . أنا عمرى ما شفت رحلة زى دى أبداً .

ولكن الرحلة انتهت وارتفع صوت يأمر الجميع بأن يربطوا الأحزمة وكان الفجر قد بدأ يحط على الأرض .

عندما كانوا يستعدون للهبوط كانت سعدة ماتزال تكرر - بناء على إلحاح مرعى - اسم أمها ، والبلد ، والمركز ، المحافظة ، وطريقة الوصول والسؤال . وهو يكرر كل حرف وراءها ورغم أن نشوة الرحلة قد تبددت وكشف ضوء النهار [illegible] الوجوه المتعبة فقد تمنيا فى لحظة واحدة أن توجد طائرة ما ، تحملهما فى رحلة مباشرة إلى تلك البلدة الصغيرة النائمة فى حضن الجبل ، خلف النيل . تحت النخل ، فوق هضاب مقابر الذين رحلوا ، حيث يتم زواجهما فى ذلك الفجر الندى . ولكن باب الطائرة انفتح ، وقالت لها المضيفة : مع السلامة يا سعدة ، فتعلقت برقبتها ، ودمعت عيناها ، وهى تقول : سلمى لى على مصر . فقالت لها المضيفة فى رفق وحنان : وهى مصر فيها إيه ؟ وهبطت هى ومرعى فوق السلم المعدنى . .

كان الفجر ساخناً بعض الشىء وساعدها مرعى على ركوب الأتوبيس كانت همهمات السائق غريبة يتحدث مع شخص آخر بجانبه بلهجة لم تفهم منها سعدة شيئاً . فهتفت دول مش عرب ؟ قال مرعى : دول هنود . فقالت باستغراب أشد : هو احنا فى الهند . وتوقف الأتوبيس أمام بوابة زجاجية كان المطار صغيراً ، ووجود مرعى بجانبها يعطيها الأمان . لم تحس بالرهبة أمام السكون الذى يخيم على كل شىء ، والناس الصامتين الذين يتأملونهم بلا مبالاة ، وربما بلا ارتياح أيضاً . وأمسكت فجأة بذراع مرعى للمرة الأولى ، وهتفت كأنها تستنجد به :

حاتيجى البلد . .

فهتف مرعى فى حرارة :

- وربنا المعبود لأكون جاى . .

كانت الإجراءات تسير بسرعة وصف الركاب يتناقص . وجاء رجل يلبس ثوباً أبيض وضع يده على كتف مرعى ونظر فى جوازه . وحمل مرعى حقيبته المربوطة على الكتف الآخر ، وقال لها فى حزن :

خلاص . . . أنا حامشى . .

وسار مبتعداً وخرجت من البوابة الأخرى وتلفت نحوها ، ولوح بيده ، ثم اختفى . ذهب نهائياً كأن لم يكن كأنه كان حلماً . . طلب منها الشرطى المزيد من الأوراق وفتش اللفافة التى تحملها فى شك واضح ولم يأت أحد ليأخذها . وعندما خرجت من البوابة كان الجميع قد انصرفوا تقريباً . وسألت الشرطى الواقف على الباب ، فأشار عليها أن تجلس على أحد الكراسى ، وتنتظر ، حتى يحضر كفيلها ويأخذها . وجلست سعدة ، ووضعت اللفافة أمامها ، وساد الصمت . .

ظلت مفتوحة العينين ، تترقب أى ثوب أبيض يقبل نحوها ولكن أحداً لم يأت . بضع من رجال الشرطة ، وأناس آخرون يتجولون ، ويحدقون فيها بلامبالاة . أحست أنها مخنوقة وعلى وشك البكاء ، نهضت مرة

أخرى وسارت إلى الشرطى . إدته الاسم الموجود معها طلب منها رقم تليفون لعله يساعدها . ولما لم يكن معها عادت للجلوس . جاء أحد العمال الهنود أخذ يمسح الأرض من حولها ، فرفعت اللفافة وضمتها إلى صدرها .

وبعد ساعة علت ضجة في المطار جاء أناس كثيرون لهم ملامح غريبة . وهبطت طائرة صاخبة . وتوافد ركاب جدد ثم هدأ كل شىء وذهب الجميع وبقيت جالسة .

بعد ساعة أخرى كانت ما تزال منزوية شاعرة بالبرودة الشديدة وهى تمتد كالنمل فى جسدها . ألم يكن مرعى قادراً على الانتظار حتى يطمئن عليها ؟ . . وتنهدت ليته كان قادراً . امتلأت عيناها بالدموع ، ورفعت رأسها ، فوجدت شخصاً يلبس ثوباً أبيض ، وغطاء أبيض للرأس ، يقف أمامها وهو يتساءل :

- إيش فيك ؟ . .

أدركت أنه يسألها عما بها قدمت له صورة العقد . وإذن الدخول . نظر إلى الأوراق طويلا . وجاء شخص آخر من الخلف وأخذ يتطلع معه . كانت امرأة تلبس ثوباً أسود يغطيها من الرأس إلى القدمين . تغطى أنفها بقطعة غريبة من الجلد . وقال الرجل :

- زين . . زين . .

فهتفت سعدة :

- أنت ال . . ال . . كفيل . .

عاد يكرر زين . . زين . .

وابتسمت سعدة ، ولكن المرأة ظلت متجهمة . قال الرجل :

- تعالى . .

قالت المرأة فى حزم : لا . .

وتركاها ، وأخذا يتناقشان فى كلمات سريعة . لم تفهم سعدة منها شيئا . ثار الرجل وتلفتت المرأة حولها فى خشية ، وقال الرجل لسعدة :

- تعالى . .

وسار ، وسارت المرأة . وحملت سعدة لفتها ، وسارت وراءهما إلى الخارج . كانت الحرارة قد بدأت تشتد ، وأحست سعدة أن الحياة قد بدأت تعود إلى عروقها . سيارة كبيرة فى انتظارهم . دخلا أولا . وفتح الرجل الباب الخلفى لسعدة .

العربة تسير . الشوارع واسعة صامتة متشابهة . الأركان لا يسير فيها أحد على قدميه ، ولا يوجد فيها ظل لشجرة . شوارع لا يوجد فيها معلم محدد يمكن أن يلتصق بالذهن عمارات واسعة . دورات واسعة أحياناً ، وفراغ صحراوى فى أحيان أخرى . عبرت السيارة أحد الأسواق وأحست سعدة بصخب الحياة لدقائق معدودة . ثم عاد الصمت . ثم دخلت السيارة فى شارع ضيق يكاد يشبه شوارع قريتها لولا أنه مرصوف بالأسفلت واحتدم النقاش مرة أخرى بين الرجل والمرأة . واستغربت سعدة لأنها غير قادرة على فهم كلامهما . كانت تعرف بعض الألفاظ المتناثرة ، ولكنها لم تدرك محور هذا الحوار المحتدم . نهضت المرأة هبطت من السيارة وأغلقت بابها بعنف دخلت البيت وأغلقت الباب أيضاً بنفس العنف . . وعادا للسير . .

شوارع أخرى . . وميادين . . ودوارات . . كأن السيارة تدور حول نفسها . . ثم فجأة أصبحا فى الخلاء اختفت البيوت كأن لم تكن وامتدت الصحراء بصفرتها الباهتة , وبدا خط الأسفلت الذى يشقها نحيلا وعلى وشك الاختفاء . وقالت سعدة .

- هو احنا رايحين بلد تانية . . ؟

فلم يرد عليها . واصلت السيارة انطلاقتها المخيفة . عبر التلال الرملية والصخور . ثم انحرفت فجأة ، وتركت الطريق الأسفلتى الأسود ، وبدأت تتوغل فى الرمال ، وهتفت سعدة :

- انت واخذنى ورايح فين يا خويا ؟ . .

فلم يرد عليها . ارتفعت السيارة وانخفضت دون أن تكف عن التوغل فى الرمل . والتفتت سعدة إلى الوراء فرأت شريط الأسفلت يختفى آخر شىء كانت تعرفه . لم يبق إلا هذه الصحراء الغريبة ، والسيارة الغريبة والرجل الغريب .

توقفت السيارة وسط الخلاء فتح الرجل الباب فهبت لفحة من الصهد جعلتها تنتفض . خلع الغطاء الأبيض

من فوق رأسه وألقاه على المقعد ، واستدار حول السيارة ، وفتح الباب المجاور لها وهو يقول فى صوت خشن :

- انزلى . .

تشبثت بالمقعد ، ولم يكن هناك ما تحتمى به . ولكنه مدّ يده ، وجذبها بقوة . تشبثت بالباب . بالزجاج بأى شىء . ولكنه حملها وألقاها فوق الرمل . أحست به لافحاً يلسع وجهها . كان وجهه بارداً بلا أى انفعال يتطلع إلى محاولاتها للخلاص فى سخرية . كان يعلم أنه فى مثل هذه الصحراء ، لا يوجد بديل عن الاستسلام . كان من العبث أن تتوسل إليه . أو تستعطفه . وقع الصيد وانتهى الأمر . حاولت أن تنهض وأن تعدو مبتعدة ، ولكنه لحق بها ، وحملها وقذفها بعنف إلى الأرض . وظل الصمت الموحش المتواطىء يسود الصحراء وللمرة الثالثة عندما حاولت الهرب ألقى بها فى عنف أكثر . كأنه كان يريدها جثة هامدة . أو كأن هذه الارتطامات جزء من المتعة التى يبحث عنها . أحست بجسمها وقد امتلأ بالكدمات تتصاعد منه خيوط الألم . بدأ يقترب منها.وجهه يقترب من وجهها . رفعت أظافرها ، وغرستها فى وجهه فرفع يده ولطمها على وجهها . لطمات عديدة حتى أحست كأن أسنانها تتهشم . أمسك شعرها وجذبها حتى انثنت رقبتها ، ووضع ركبته على بطنها حتى يمنع حركتها تماماً . فتحت عينيها فرأت وجهه كان الرمل ساخناً فى ظهرها . ويده تغوص فى جلدها . تتحسسه تكتشفه . ثم جذب الثوب من على صدرها فى حركة عنيفة . أغمضت سعدة عينيها فى خجل بالغ . كانت أصابعه تقبض عليهما كأنه يريد أن يخلعهما من مكانهما . انتفضت من الألم ومن التقزز . لم يكن نهداها منطقة محرمة . فقد لمسا مراراً ، وهى صغيرة فى كومة التبن . وهى كبيرة على حافة الترعة ، فى حارات القرية المظلمة ، فى زحمة الأفراح والموالد ، عندما تشتعل الرغبات ، وتكتسح حواجز التمنع . لكنها الآن تحس بهما جمرتين تتقدان فى صدرها . تود لو يخلعهما ، ويلقى بهما بعيداً وسط الأحجار . أصابعه مثل ديدان غليظة لا تكف عن الزحف ، كانت ترى - أخيراً - السماء البعيدة من خلف كتفه . ترى ذلك الشىء الذى يتحرك من خلف التل الرملى . تريد أن تصرخ ، ولكنها لا تستطيع . ولكن الشىء واصل الظهور من خلف التل فى بطء شديد . شىء له لون الصحراء ، وصمتها المفزع . كان جملا يسير بلا صوت ويقترب بهدوء ، حدقت فيه بعينين ضارعتين . ولكنه حدق فيها بلا مبالاة . تمنت لو أنه يقترب أكثر . يدوس عليهما سويا بأقدامه الضخمة حتى يغيبا تماماً داخل الرمل . ولكن الجمل ظل واقفاً . يحدق فيهما بعينيه الجاحظتين ويحرك فمه فى حركة دائرية يلوك شيئا لا ينتهى ، ويجمع على شدقيه الرغوة البيضاء . .

كان الألم لا يطاق فأخدت تبكى . وضربها فازدادت حرقتها . انفتحت كل أغوار الحزن فى داخلها . وخرج صوتها أخيراً فى صرخات متوجعة . وهدر الجمل فى صوت غاضب فرفع الرجل جسده من عليها فى رعب . كانت كل ذرة من ذرات جسدها ترتعد . والشاهد الأخرس يتطلع إليه . أمسك ثوبه وجرى إلى السيارة عاريا . أدارها بسرعة ولف بها لفة واسعة ليبتعد عن الجمل . وارتفع صوت بكاء سعدة حتى ملأ الصحراء كلها .

وبعد مدة كانت قد أنهكت من كثرة البكاء . لمت جسدها المتعب وجلست بصعوبة . كان نصفها الأسفل مليئا بالجروح وبقع الدم المختلطة بالرمل . وكان عليها أن تنهض وإلا ماتت فى هذه الصحراء . يجب أن تتبع آثار السيارة قبل أن تمحوها الريح . لملمت الثوب الممزق ، وبدأت تسير مترنحة تحت الشمس القاسية . لم تكن هناك نسمة واحدة من الهواء . والآثار تتلوى . تظهر أحيانا وتندثر أحيانا . . كانت سعدة تسقط . وتعاود النهوض وتترك على الرمل أثراً منها ، وتلملم الثوب الممزق حول جسدها العارى ، وكان الجمل ما زال يتبعها يقف عندما تقف ويسير عندما تسير . .

وأخيراً ظهر شريط الأسفلت الأسود . شهقت فى ألم ، وأخذ جسدها كله يرتجف . ارتمت بجانبه . مدت يدها ولمسته فلسعها . وظل الجمل واقفاً على مبعدة منها . مرقت سيارة فرفعت يدها ، ولكن السيارة لم تقف . ثم مرقت ثانية . . وثالثة . .

وبعد زمن لا تدرى طوله ، وسيارات لا تدرى عددها ، توقفت سيارة ، وأحست بيد توضع على ظهرها . . كان أحد رجال الشرطة : أسمر الوجه . ابتسم لها وساعدها على النهوض . ثم على الجلوس داخل

السيـارة . وقـال يخـاطب زميله الجـالس خلف عجلة القيادة :

– هادئ ما هى جثة يا أخى زى ما البلاغ جـال . . هادى . .

ونظر إلى ثيابها الممزقة وقال فى تأكيد :

– حالة اغتصاب .

كـانت مـا تـزال تـرتعـد . أكلت بعض قـطع من البسكـويت ، وشـربت قليـلا من الشـاى . . وأخـذت تستعيـد كل التفـاصيل المـروعة . كـانت قد دخلت فى الكابوس ولم تعـد تستطيـع الخروج منـه . ظلت تتكلم بهرف . . تداخلت التفاصيل . . وفى قسم البوليس طلبوا منها إعادة كـل شىء . ولكن كل شىء كـان بلا بـداية ولا نهاية . سألوها إن كانت بحاجة للذهاب إلى المستشفى فبكت وقالت : إنها فى حاجة للعودة إلى مصر . أعطوها ثوبا من ثياب السجن . وضعوها داخل إحدى سياراتهم وبدأوا جولة جديدة فى أنحاء المدينة . لعلها تتعرف على الشخص ، أو السيـارة ، أو مكان البيت الـذى هبـطت عنده المرأة . كانت المدينة ما تـزال متشابهـة ، وما تـزال معادية . مليئـة بالفخـاخ . طلبوا منهـا أن تركـز ، وأن تساعدهم . ولم يكن هناك من يساعدها . والسيارة تدور فى دوامة لا تنتهى . وأسئلة رجال الشرطة تحاصرها كأنها هى التى حرضته على اغتصابها . أخذوهـا إلى المستشفى . وفحصهـا الطبيب فعـادت تبكى حتى تـركهـا . عـادوا يطوفون بها فى الشوارع . ثم أعادوها إلى القسم وضعوا المداد الأسود على أصابعهـا ، وجعلوها تبصم عـلى عدة أوراق . هتفت فى توسل :

– رجعونى

أخـذوها للمـطار . وضعـوهـا فـوق مقعـد فى أحـد الأركـان . جلست القـرفصـاء وأخفت وجههـا خلف ركبتيها . لم تكن تعلم من أين تأتى الطائرة . ومتى تأخذها بعيـداً ؟ أحست بالانكسـار المر . . وفكـرت فجـأة فى مرعى . . هل مـا زال يذكـرها ؟ . . هـل كان مصيـره أفضل من مصيرها ؟ هل سيأتى إلى بلدتها بعد عام حقا ؟ ماذا ستفعل إذا جاء وطلب الزواج منها . سوف يجد أنها ليست نفس الشخص . . لن يجـد إلا بقيـة ضئيلة من سعدة القديمة . . وطغى عليها شعور بالمرارة ، فأجهشت فى البكاء ، وهى تقول :

– حاقولك إيه بس يا مُرعى

المحلة الكبرى : مُحمد المنسى قنديل

حكاية جنون إبنة عمّى هنيّة

حسونة المصباحى

فاجأنا الخريف كعادته كل عام . جاءنا متمهلا يسترق الخطى وراء الصيف . . وأفقنا يوما فإذا به جاثم على الدنيا كلها . وشيئا فشيئا راحت الرياح تنزل باردة فى مرتفعات الشمال ، وامتلأت المسارب بلغط الصبية العائدين إلى المدارس ، وأخذ الفلاحون ينشرون الزبل والروث فوق الحقول ، استعداداً للحرث ، وتساقط التين الوحشى متعفنا فى الطرقات ، وارتفعت العيون إلى السماء باحثة عن المطر .

وعندئذ حدث مالم يكن متوقعاً !

الجميع فى قريتنا وفى القرى المجاورة وحتى البعيدة يعرفون أن عائلتنا التى أتت من الجنوب إلى سهول القيروان فى سنة مجاعة وعواصف صفراء ، لم يسبق لها أن أصيبت بتلك الأمراض الخبيثة التى يرجف لها الناس . والكبار يذكرون أن جدّى - يرحمه الله - كان وهو فى التسعين يقطع راجلا المسافة الفاصلة بين سهول القيروان ومرتفعات - مكثر والسرس[1] . وعمّى الذى شارك فى حرب «الريف» وغشى معارك «فاردان»[2] كان وهو فى الثمانين يمتطى بغلته الصفراء ، دون الاستعانة بأحد . وأذكر أن أبى أنجب وهو قريب من التسعين ! وكان يحذف عصاه فتصيب هدفها . وظل إلى آخر حياته رشيق الحركة حتى أننا كنا نظن ونحن صغار أنه معصوم من الموت (استغفر الله) !

وعندما أصيبت عمّتى فاطمة بالجنون لم يستغرب الناس ذلك . سرعان ما وجدوا لحالتها تفسيرا . فقد قيل إنها ترملت وهى فى الثلاثين ، وكانت جميلة من أجمل نساء القرية . وكل الرجال الذين طرقوا بابها عادوا خائبين . كانت تقول : «أقسمت فى رحاب الولى سيدى أحمد بن أبى سعيد ألا يعاشرنى رجل بعد الطيب !» ثم سارت فى القرية منتعلة حذاء عسكريا ثقيلا ، وماسكة بعصا غليظة شبيهة بعصا الرعاة ، وراحت تزرع وتحرث ، وتقلم الأشجار وتعزق الأرض . وغلظ صوتها ، وتيبست عروقها ، وشحب صدرها ، ولم تلبث أنوثتها أن غابت تماما . وعندئذ سمّاها الناس : « فاطمة - راجل » . وتهامس أعمامى غاضبين : « فضحتنا . . الفاجرة . . » . ولكنها لم تعبأ بهم ، ومرّت أمامهم ضاربة الأرض بحذائها الثقيل . ومع الأيام كبر أبناؤها وتزوّجوا . وذات قيلولة ثقيلة سمعها الناس تصرخ ، وتولول ، فحسبوها تخاصم إحدى كناتها ، ولكنهم لمّا خرجوا إليها وجدوها وحيدة . . وجهها أزرق كوجه غريق ، وعيناها تتقدان كعينى كلب مصاب . تغيّرت ألوانهم وذهلوا . وظلوا كذلك فترة من الزمن ، ثم راحوا يبسملون ، ويذكرون أسماء الله الحسنى . وواصلت عمتى صراخها ، وولولتها ، وكأنها لا تراهم . ثم جرت رافعة ثوبها إلى ما فوق الركبتين وألقت بنفسها فى الصّبار . ومن يومها إلى أن ماتت وهى مربوطة بحبل فى ركن فى أركان بيتها . . مطلقة ليلا ونهارا صراخا شبيها برغاء الناقة حين تفقد ابنها . وأذكر أن أبى وأعمامى ، وعمّاتى ، رُوّعوا عندما جنّت عمتى ، ودعوا مؤدبى القرية ليتلوا القرآن ، وينشدوا البردة فى بيت جدّى . وذبحوا ثوراً أسود أمام مقام

الولى سيدى أحمد بن أبى سعيد ، ووضعوا قصاع الكسكسى على جانبى الطريق ليأكل منها الفقراء ، وعابرو السبيل . وامتلأت بيوتنا بروائح البخور وقال لنا أحد أعمامى وكان إماما : « اذكروا دائما أسماء الله الحسنى ياأولاد ، ولا تمروا فوق الرماد والدم ، دون أن تبسملوا ! » . ثم مسحت أجنحة الأيام تلك الواقعة الغريبة من قلوبنا ، وأذهاننا ، واعتقدنا كباراً وصغاراً فى سرّنا أنها لن تعود إلى عائلتنا أبدا . حتى جاء ذلك الخريف !

هنية ابنة عمّى حرقت قلوب الرجال فى شبابها . وكانت إذا ما غنتّ يتململ الكون من حولنا ، ويصرخ أعمامى : « اسكتوها . . وإلاّ فسنذبحها !» ولم أكن استطيع أن أدرك السبب حتى سمعت أبى يوما يعترف لأمى : « لا أريد أن أسمع صوتها لأنها تبكينى » . وكنا ونحن صغار نراها فى « مليتها »[٣] الحمراء ، تصعد الوادى على مهل وعيناها مكحّلتان وفتيان القرية هناك على الربوة يدخنون ، وعيونهم مصّوبة إليها كالشهاب . فيرتفع صوت عمّى من أمام المسجد : « اذهبوا من هناك يا أبناء الكلب ، والا ذبحتكم » وكانوا يتفرقون فى المسارب مطأطئين الرؤوس من الخجل ، وأحيانا كان يدخل بيت عمّى رجال على ظهور جياد يكسوها العرق ، ثم يخرجون عابسى الوجوه . وتتهامس أمهاتنا من حولنا حائرات : « ترُى من سينالها ؟ »

ونالها محمد « الفأر » .

عندما انتشر الخبر فى القرية لم يهتم به أحد . كلهم حسبوه كذبة من تلك الأكاذيب التى يصنعها البعض لقتل كآبة الأيام العابسة . وواصل الرجال أعمالهم فى الحقول ، وألعابهم فى الحوانيت ، وكأنهم لم يسمعوا شيئا وعلقت النسوة : « الشيخ صالح ليس معتوها حتى يزوّج هنية من رجل فى حجم الفأر » . ويوم السوق الأسبوعية وقف عمّى فى الساحة العامّة وقال وعكازه ينتفض فى الفضاء :

- انزلوا أسلحتكم . . انها لمحمّد « الفأر » !!

وعندئذ أصيبت القرية بذهول عجيب استمر عدة أيام . ثم راحت النسوة تتسربن من بيت إلى بيت كالأفاعى كاتمات ضحكات ساخرة : «مسكينة هنية . . صامت ، وصامت ، لتفطر على «الفأر» . وتجمع الرجال فى الحوانيت ، وفى المشارب ، ليناقشوا الأمر ، وما وقع للدنيا من غرائب فى هذا العصر : « عيب عليه الشيخ صالح : يزوج ابنته لواحد كان يرعى أغنامه » ، وانتظرت القرية كلها رد فعل هنية . قالوا ستلقى بنفسها فى البئر . وقالوا ستشرب الد.د.ت . وقالوا ستهرب لدار خالها فى القيروان . . وقالوا . . . . ولكنها جاءت للعين يوما «هادئة» مكتحلة العينين ، وملأت جرتها ، وراحت تصعد الوادى على مهل . وأوقفتها هالة بنت العربى : «ماذا فعلت فى تلك المسألة !»

- مسألة ماذا ؟

قالت هنية دون أن تدير رأسها :

مسألة زواجك من محمد «الفأر» ؟

استدارت هنية وواجهتهن غاضبة : أنا أشتهيه وهو يشتهينى وأنتن لماذا تقطعن قلوبكن .

- نقطع قلوبنا على ماذا ؟ على هذا «الفأر» الذى لن يصل إلى ركبتيك !

ووضعت هنية جرتها ، ومدت عنقها الجميل فى اتجاههن وهزّت كتفها :

- أنا أحبه وانتن متن حسرة وراحت تدير قبضتها اليمنى فوق كفها الأيسر .

وعندما اختفت قلن : «أكيد أنها مسحورة !» .

سمّته القرية بكبيرها وصغيرها محمد «الفأر» لأنه قصير ، ومدور ، وأفطس ، وأبتر الأصابع .

والذين شاهدوا رجليه اللتين يحرص على إخفائهما دائما ، قالوا إنهما مشققتان صيفاً وشتاءً ، وإنهما شبيهتان بحوافر الحمير . كان يلبس الصوف طول الوقت ، فى البرد والحر ويتحاشى الجلوس مع الناس وارتياد الحوانيت . ولم يسبق لأهل القرية أن شاهدوه يدخن ، أو يعاكس النساء ، أو يضحك . كان كتلة من اللحم الغامضة . تتحرك فى أى اتجاه تؤمر به . ومنذ أن كان مراهقا أتى به عمى ليرعى أغنامه ، وليساعد فى فصل الحصاد والحرث . وقيل أنه يفضل النوم دائما فى أكوام التبن وفى الأركان المنسية . وقيل أيضا إنه قتل يوما فى الغابة ذئبا هاجم القطيع فأحبه عمى وبنى له بيتا قريبا من بيته ، وقال له : «أنت من الآن ابن من أبنائى» ثم راح يأخذه معه إلى أسواق مكثر ، والسرس ، والروحية ، وكان هو يتبعه راجلا فى الذهاب والإياب . ولم يلاحظ عليه الناس ولو مرة واحدة آثار تعب أو تأفف . وبعد انتشار خبر الزواج مر به فتية وهو يحرث ، فأرادوا معاكسته قليلا : مبروك

- مبروك على ماذا ؟ قال ذلك وهو يواصل عمله .
- مبروك على هنية !
- الله يبارك فيكم . ولم يزد كلمة واحدة على ذلك ورأوه ينتفخ مثل كرة .

وصمت الفتيان لحظات . ثم بادره سالم الأحمر قائلا : تعال يا محمد . .

- لماذا ؟
- تعال نضحك . .
- ليس عندى وقت للضحك .

وغمز سالم الأحمر بعينيه وقال : تعال واحك لنا ماذا ستفعل لهنية ليلة الدخول .

وعندئذ أوقف محمد « الفأر » الناقة ، وأخذ حجراً ضخماً وصرخ :

- اذهبوا . . وإلاّ فلقت رؤ وسكم !

فتفرّقوا خائفين .

وتزوجها ذات صيف . وكان عرساً شبيهاً بمأتم . قاطعته القرية كلها إلاّ بعض الشيوخ والعجائز حضروا لتأدية الواجب وهم واجمون . وتفرق الفتيان فى بطن الوادى وراحوا يشربون ويغنون ويتندرون : « الله يهب الفول للذى لا أضراس له » . وبكت غزالة - أم هنية - من القهر ، وضربت فخذيها وهى تصرخ ملتاعة : « ماذا فعلت لكنّ يانساء الذهبيات حتى تتركن ابنتى وحيدة كالبومة يوم فرحتها ! » ولم تجلب دموعها إلاّ القليل من النساء . أماّ البقية فقد اعتصمن فى بيوتهن ورحن يغلين كالمراجل : « كل شىء يحتمل إلاّزواج هنية من ذلك الخنفساء النتن » ، ولأشهر عديدة ظلت القرية مشدودة إلى بيت عمى فى انتظار انفجار العاصفة . وتخيّل الناس أن تخرج هنية هائجة كالفرس قبل السباق شعرها للريح ، وصدرها يهتزّ تحت « الملية » الحمراء : « اذبحونى إن شئتم ، ولكنى لن أعيش مع رجل هكذا ! » ولم يقع شىء من ذلك . وظل بيت عمى هادئا وشجرة الزيتون العجوز تنحنى عليه من الخلف كأنما لتحميه من شر ما . ثم شعرنا بوحشة شبيهة بتلك التى يشعر بها المسافر ، حين ينزل منحدرا مقفرا . وجاءنا عمار الأعور ، وكان أونباشيا فى الجيش الفرنسى ، بآلة « تتكلم وحدها » وتزاحم الكبار والصغار فى بيته ، ليستمعوا إليها ، وهو جالس مثل السلطان فوق الوسائد ، وبطنه إلى الأمام والسيجارة تحترق بين شفتيه الغليظتين . وتهامس الكبار ووجوههم منقبضة : « الله يقدر الخير ، ويبعد عنا البلاء» .

وهجم علينا الموت فى سنة من السنوات الثقيلة فحصد أعمامى ، وعماتى ، وأخى على أبى فى الحقل وهم يرعون البقرات وارتفعت أصوات النائحات فتجاوزت معها الجبال والوهاد . وتغيرت الدنيا فجأة ، وابيض شعر أمى ، وامتلأ بطن هنية أكثر من مرة واختفت البنات اللاتى كنت يلعبن معنا فى الوادى ، وتحت الزيتونه وفى ضوء القمر . ولم نعد نراهن إلاّ لماما ، وهن مكتحلات العيون ، ممتلئات الصدور ! ووقفنا نحن أيضا فوق الربوة لنشاهدهن وهن يصعدن الوادى على مهل . وعلمنا أحدهم - وكان من أشهر الفاسقين - التدخين والخمر ، والسهر حتى الفجر . وواصلت الحياة جريانها هادئة مرة ، عابسة مرة أخرى ، مثل واد يفيض . وأتى يوم تفرقنا فيه مثل فراخ الحجل عندما يكبر - حتى جاء ذلك الخريف ، وحدث مالم يكن متوقعا !

الحكاية بدأت هكذا . روى الناس أن محمد «الفأر» استيقظ ذات ليلة من ليالى الشتاء ومد يده إلى حيث تنام هنية ، فلم يعثر لها على أثر . وبما أن مكانها كان ما يزال سخنا ، فقد حسب أنها خرجت لشأن من الشؤ ون . ولكن غيبتها طالت فساورته الشكوك والمخاوف ، وخرج يبحث عنها ، طاف حول البيت ، وناداها مرتين ، وثلاثا . فلم تجبه سوى الرياح والكلاب . عندئذ جرى إلى الغرفة وأشعل المصباح ، وأيقظ أولاده الثلاثة وبنتيه : « انهضوا يا أبناء الكلب ! أمكم اختفت !» .

وخرجوا يرتعشون من الذعر والبرد . وطرقوا أبواب الجيزان ثم ما لبثت القرية أن أستيقظت كلها وامتلأ الليل بالصياح ، والحركة ، ونباح الكلاب ، وبكاء الأطفال . وتفرق الناس يبحثون عنها فى الحقول والوهاد . وعند الفجر وجدها ابنها عيسى فى مقام الولى الصالح سيدى احمد بن أبى سعيد راكعة تصلى على ضوء الشموع وجسدها ملفوف فى غطاء أبيض . وقيل إنه ناداها أكثر من مرة فلم تجبه ، واستمرت فى صلاتها شاخصة كالتمثال ، وهو ذاهل أمامها يكاد لا يصدق أنها هنية أمه . وحين أكملت صلاتها التفتت إليه ووضعت يدها على رأسه وقالت : «هيا يا ولدى نعود إلى البيت !»

ولاحظ الناس بعد تلك الحادثة أنها أصبحت ميالة إلى العزلة والصمت ، وحكى أولادها أن الأكل احترق أكثر من مرة فوق النار لأن أمهم كانت تتوه أحيانا ولا تنتبه حتى عندما ينادونها بصوت عال . وتهامست النسوة أنها هجرت زوجها ، وأصبحت تنام وحدها فى مخزن التبن ، قرب البقرات ! وشاهدها الناس تتردد على المقبرة كل يوم جمعة ، وتجلس طويلا أمام قبور أعمامى ، وعماتى . وقالت ابنتها مريم إنها ضربتها ضرباً مبرحاً لما كحلت عينيها فى ختان ابن خالها المولدى . وفى إحدى العشايا سمعها الجيران تخاصم زوجها وتأمره بأن يغتسل لأن رائحته شبيهة برائحة الخنزير . وكان هو يهمس لها : اسكتى يا امرأة . الناس يسمعون !» وكانت هى ترد عليه :

«فليسمعوا . . لقد تحملتك أكثر من اللازم !» وعلقت الجازية ابنة عمتى : «استيقظت بعد أن فات الأوان وأصبحت عجوزاً !» .

وفى الربيع طافت فى القرية ، وأمرت الناس أن يحطموا تلك الآلات التى «تتكلم وحدها» . قالت لهم : «لقد أفسدت عقولكم ، ونفوسكم ، وأصبحتم يحارب بعضكم بعضا بسببها ، وتعلمتم منها الدناءة والكذب ، والنفاق . من قبل كنت تجتمعون كل ليلة ، وتشربون الشاى ، وترووون قصص الجازية الهلالية ، ومحمد بن السلطان . . والآن أنتم تختفون من الغروب وتغلقون أبوابكم ، ولا تهتمون بما يقع لجاركم القريب . حطموا هذه الآلات الخبيثة ، وستعود البركة إلى بيوتكم ، وينزل عليكم الخير من السماء ، كما تنزل الأمطار الغزيرة» .

ولم يهتم بكلامها أحد . استمعوا إليها . وهم يبتسمون ابتسامة باردة . وقال أخوها المولدى ، وهو يخيط جبّته ويستمع إلى ما يرويه الناس عنها : «أختى هنية تريد أن تصبح ولية صالحة ، مثل سيدنا أحمد بن ابى سعيد !»

وروى ابنها موسى وكان قصيرا ، ومدورا مثل أبيه ، أنه عاد من الحصاد ميتا من التعب والعطش ، فوجد أمه جالسة تغزل الصوف ، وسطل الماء أمامها ، فلما مدّ يده ضربته بالمغزل على رأسه فصرخ فيها : «لماذا تضربيننى يا أمى ؟» ، فتوقفت عن الغزل ، وتأملته مليا ثم قالت له : «اعذرنى يا ولدى . . حسبتك ديكا روميا» .

ولأسابيع عديدة ظلت القرية من شمالها إلى جنوبها تروى هذه الحكاية وتضحك . وكان الناس عندما يعترضهم موسى فى الطريق ، أو فى الحقول ، يوقفونه ، ويطلبون منه أن يقصّ عليهم الحكاية ويتمنع هو مغتاظاً : « دعونى . لقد حكيتها ألف مرّة » ، ويمسكون بثيابه ويلحون حتى يلين ، ويبدأ فى رواية الحكاية ، وهو يغمض عينيه ويضحك ضحكاً شبيهاً بخشخشة التبن ، وعندما ينتهى يسقطون هم على الأرض من شدّة الضحك : « قتلتنا يا موسى . . إنت مثل خالك المولدى !! » .

وفى أواخر الصيف جرت هنية مساء فى شوارع القرية صارخة : « أيها الناس إنى أرى الجبال تتحرك ! » . ونظر الناس شرقاً وغرباً فإذا الجبال هادئة فى أماكنها وإذا الدنيا كما هى منذ فتحوا عيونهم : « إنها تزحف نحوكم ، وبعد حين ستحوّلكم إلى غبار . هيا اخرجوا من بيوتكم ، واطلبوا لكى يخففها الله عنكم ! » كانت زرقاء تماماً كأنها ضربت بالسوط .

وكانت عيناها مثل عينى عمّتى فاطمة لّما أصيبت أول مرّة . وجرى الناس لتهدئتها ، ولكنها كانت تتملص منهم ، مواصلة صراخها : «أنظروا حولكم . . المدافع مصوّبة نحوكم ، والجيوش والدبابات تزحف باتجاه قلوبكم ، وبعد حين ستصبحون أنتم وحيواناتكم وأشجاركم ودياركم غباراً فى السّماء . اخشعوا إلى ربكم ، ونادوا سيدنا أحمد ابن أبى سعيد علّه يخففها عليكم . قلت لكم منذ زمن طويل إنكم هالكون شرّهلكة . . لكنكم سخرتم منى ، ومضيتم إلى شئونكم ، غير مكترثين بى . . والآن ها أنتم على شفا الهاوية ، وبعد حين سينفجر الكون بأسره ، وستقفون عراة أمام ربكم ! » .

وراح الكبار يقرأون سوراً من القرآن ، ويبسلمون ، وبكى الصغار من الذعر وهم يحاولون الاختفاء فى ملاءات أمهاتهم ، ولم تهدأ هنية إلاّ عند هبوط الليل . انهارت على الأرض ورغوة بيضاء تملأ فمها ، وراحت تنتفض كالمقرورة وأسنانها تصطك ، وأعادها الناس إلى بيتها ، وهم يواصلون البسملة وذكر أسماء الله الحسنى . ولّما وضعوها على الحصير قالت لهم : « غطونى » فوضعوا فوقها عباءة ، ولكنها صرخت : « غطونى . . إنى أموت من البرد !! » ووضعوا فوقها أغطية كثيرة وبعد منتصف الليل أخذت تهذى وتتلفظ بكلام غريب . وعند الفجر نامت نوماً عميقاً ، حتى منتصف النهار .

وعندما استيقظت عادت إلى حالتها الطبيعية ، وقبلت أولادها ، وضمتهم إلى صدرها وكأنها تراهم بعد فراق طويل ، وشربت الشاى مع النسوة ، ومزحت معهن . وقالت إنها قبل أن يصيبها ما أصابها ، أحست فجأة بحمى تصعد من قدمها إلى رأسها . ثم لم تعد تشعر بشىء بعد . وتجنبت النسوة الحديث فيما وقع ، وقلت لها : « إنها مجرّد حمى قوية . . » ونصحنها ببعض أعشاب الجبل ، ونادى الناس محمد « الفار » ونصحوه بأن يذبح عنزاً أمام ضريح الولى سيدى أحمد بن أبى سعيد ، وأن يدعوا مؤدبى القرية ليرتلوا القرآن ويطردوا الشياطين من بيته ، وتدحرج محمد « الفار » مثل عدْل ملء وبدأ فى تنفيذ ما نصحوه به : « المهم أن تعود هنيّة كما كانت . . طول حياتى لم أسمع منها قولا بذيئا أو كلاما فاحشاً - طول حياتى لم أرها كما رأيتها البارحة . . كنت مستعداً أن ألقى بنفسى فى البئر لو حدث لها سوء ، ولكن الله سبحانه وتعالى غفور ورحيم » .

ومضى أسبوع أو أكثر على ذلك الحادث المخيف . وتماثلت هنية للشفاء ، وخرجت شاحبة هزيلة لتطوف فى القرية كعادتها من حين إلى حين ، واستوقفها محمد « الفار » عند الباب :

« لا تخرجى .. أنت لا زلت مريضة » ودفعته بيدها قائلة : « دعنى أرى وجه ربىّ . . وأشبع من وجوه الأحباب ! » وتركها تخرج ، ويده على قلبه ثم نادى ابنته الكبرى ، وقال لها : « راقبى أمك ولا تدعيها تطيل الحديث مع الناس » . ولم تعد هنية إلى البيت إلا فى المساء . وروى محمد « الفار » بعد ذلك أنها كانت منبسطة النفس ، وقال إنها كانت تريد أن تحدثه عن أشياء كثيرة فى الدنيا ، غير أنه كان متعبا فنام حالما ، وضع رأسه على الوسادة . وقال إنه لا يدرى كم ساعة نام ، أحسّ فجأة بضربة مرفق فى جنبه الأيمن ، وبهنية تقول له بصوت كأنه آت من قاع : «انهض يا رجل !» ، وبين نوم ويقظة ، قال لها : «ماذا تريدين يا امرأة ؟» فأجابته : «انهض . . سأذبحك !» وكأنما صُب عليه سطل ماء مثلج ، أو ضرب بالسوط . استوى جالسا على مؤخرته ، وحين نظر إليها كانت امرأة أخرى تماما . كأنما ذهبت هنية ، وجاءت أخرى مكانها . ولما حاول الهروب أمسكته من تلابيبه ، وشهرت فى وجهه السكين ، وصرخت وهى تكزّ على أسنانها : «سأذبحك أيها الفأر» ، وأيقظ صراخها الأولاد . فراحوا يتوسلون إليها ، وهم يبكون ولكنها لم تزد إلا إصراراً : «سأذبحه وأشرب من دمه . . الفأر ابن الفأر !» وكانت السكين تقترب منه وهو جامد من الرعب لا يدرى ما يصنع ، وجرى موسى وهو يصرخ فى الظلام : «تعالوا يا ناس أمى ستذبح أبى !» . ولم تمض لحظات قليلة حتى أنيرت كل البيوت ، وتدافع الناس فى الظلمة متمتمين بكلام مبهم . وسقط المولدى أخو هنية ، أكثر من مرة ، عندما سمع الخبر واصطدم العربى بحجر فكاد يفصل رأسه عن جسده . وخرجت الجازية ابنة عمى شبه عارية من بيتها . وتزاحم الناس أمام البيت ليشاهدوا محمد «الفار» ينتفض مثل فرخ الدجاج فى يد هنية : « سأذبحه الكلب ابن الكلب وأشرب من دمه !» . وتوسل إليها الناس . . غير أنها ظلت تصرخ ، وتتوعد ، ثم لا يدرون كيف تمكن محمد «الفار» من الإفلات من قبضتها ورمى بنفسه وسطهم وهو يلهث ، ويمسح عرق الذعر . وجرت هى وراءه شاهرة السكين : «أين هو . أريد أن أذبحه ، وأشرب من دمه . . الفار بن الفار !» . ولم يتوصلوا إلى نزع السكين من يدها إلاّ عند انبلاج الصبح ، لما تعبت ، وانهارت على الأرض . وانتظروا أن تمر تلك النوبة مثل سابقتها ، غير أن هنية كانت قد ابتعدت عنهم ؛ وضاعت فى الفراغ ، وأصبحوا يتحدثون عنها مثلما يتحدثون عن أبطال الخرافات .

***

آخر مرة رأيتها فيها كانت وأنا انتظر الباص ليحملنى إلى العاصمة .

كانت تلبس أسمالاً قذرة وفى جيدها حبل ، ورجلاها منتفختان . وكانت تجرّ وراءها عُلباً مختلفة الأشكال والألوان ، وتخور مثل بقرة ، وكان محمد «الفار» مقرفصاً أمام حانوت بولا عراس ينظر لها وهى تمر ، وكأنه لا يعرفها البتة !

تونس : حسونة المصباحى

(١) مكثر والسرس : قريتان جبليتان متاخمتان للحدود الجزائرية التونسية .

(٢) معارك فاردان : كان الاستعمار الفرنسى يجند أبناء الارياف والمدن التونسيين إجباريا والكثير منهم شاركوا فى معارك حرب الريف بالمغرب وفى الحرب العالمية الأولى والثانية ، وفى حرب فيتنام فى صفوف الجيش الفرنسى .

(٣) الملية : اللباس التقليدى للمرأة الريفية التونسية . وهو عبارة عن قطعة واحدة يلفها حزام فى الوسط .

سعيد الكفراوى

مدينة الموت الجميل

لم يكن ذلك النهار مفعما بالحنين ، بالقدر الذى ألفه فيما مضى من أيام ، حيث كانت شمس آخر النهار تبدو له ، وهى تغيب ، كعين معتمة فى عمق جفنات العرافين . خاف الليل ، وخاف عصف الهواء ، وخاف من صوت البحر الذى مايزال قائما .

أشعل سيجارته ، وأخذ منها نفسا عيمقا طرده من صدره ، فاختط مسارا جليلا كخيط مهاجر .

(وكنت من زمن ليس ببعيد أقف بالقرب من السور أنظر إلى البحر حيث تتدافع موجاته إلى الشاطىء فوارة بما تحمله من زبد ، ولم أكن أعيش فصول السنة بتتابع دورات الأيام ، وفى لحظة سقوط ضوء الشمس على الحديقة ، بطول السور ، كنت أقود نفسى المتعبة صاعدا درجات المنزل حتى أصل إلى السطح . وكنت أرى فيما أرى سيدة تلبس السواد تهبط المنحدر ، وتظل تنظر عبر البحر ، وكأنها تنتظر شخصا ما ربما يأتى به البحر)

سمع دقات الساعة الخشبية فى المنزل الخالى . . خمس دقات روعته ونظر العقرب المنفرج ، ولم تهب من حديقة الدار العتيقة رائحة الورد ، ولا فارقته ظلال الجدران .

بيت منعزل يحوطه سور من حديد مدبب . للسور بوابة مهيبة ، عليها رسم لتنين يفح النار . داخل السور حديقة بلغة وأناشيد . للبيت سقف من قرميد أحمر يتحدث فى ليالى المطر ، وحجرة استقبال واسعة ، وغرف معتمة عديدة . فى آخر الحديقة يوجد الملحق القديم .

(كأننى سمعت طرقا على الباب)

بالأمس خرج من حجرته ، وفى الصالة الواسعة واجهته مرآة بإطار نحاسى من طراز عتيق ، ورأى فيها نفسه تبدو تحت الضوء الأصفر ، فراعه شكله ، فأطفأ المصباح . خرج من باب البيت إلى الحديقة وسط شجيرات ورد يأتيه عبقها ، وكذلك رائحة عشب الأرض ، قبل المساء .

يسير على ممشى من العشب على يمينه المياه الرخامية ، التى تتدفع مياهها عبر أنابيب ضيقة فينثال ماؤ ها على تمثال لسمكة ذات حراشف . ضباب خفيف يرقد فى شكل سحابة وكأنه سديم هابط من الأفق ، حيث تأتى الفصول بالحياة والموت .

هو الملحق ما يريد .

وضع المفتاح القصير فى فتحة الباب ، وسمع تكة لسان الطبلة فتسارعت دقات قلبه . انفتح الباب على ظلمة ، وزكمت أنفه رائحة رثة مكتومة لأثاث مكوم . مد يده ، وأشعل المصباح فيما كانت يدى الأخرى تستكشف المكان . سمع فرار الجرذان إلى مخابئها ، وبدت له الحجرة كخزانة قديمة .

الزمن المحبوس وسط ركام الأشياء والحجرة غاصة بتحف لا عمر لها . تمثال مقلد (للأسير المحتضر) الذى حول جسده الحبال ، بينما يده ترتفع حتى رأسه الذى يسقط على كتفه ناحية

اليمين ، وعند قدسيه تتشكل كتلة من الصخر ، كأنها القدر بعينين مفتوحتين على الغيب . سلع قماشية من طرز قديمة معلقة على الحائط ، وقد لوحتها الأيام باخضرار زرع ذابل . محارات بحرية ملونة بألوان وجوه الموتى . تماثيل فرعونية ، عليها تراب يبدو خلف أريكة ، الإله (أوزيريس) يلتف بثوب من الكتان ، تبرز منه يده ويقبض على عصا الراعى الصالح . وأيقونات مطموسة اللمعة تحت ركام فوضى حجرة الملحق . لوحة النساء بلا أثداء يطاردهن نسر أسود ، ناشرا جناحيه فى الغياب ، والنسوة تخرج من أطلال صحراوية متجهات إلى البحر . بيانو بغطاء أسود مقفول ومنسى . كراس فوق بعضها قد اهترأت ، وبان تنجيدها الذى نسلت خيوطه القطيفية . على الحيطان صور لعرفات ، وأضرحة لأولياء . صبيان رابضون ، ولوحة (يوم الحساب) بعنفها وضراوتها كأنها لوح من سفر الرؤيا . فوق ترابيزة مستنده إلى الجدار (بيانولا) صغيرة بنابض على شكل نجمة الأيام السحيقة ، تقف على أرجل أربع من نحاس أصفر ، على غطائها رسم لثلاث طفلات يابانيات يلبسن كيمونات حمراء ويرشقن فى شعورهن ثلاث زهرات ملونة . امتدت يده وملأت النابض وفتح غطاء البيانولا ، فانسابت فى فراغ الملحق موسيقى متقطعة بنغم رتيب موحد الإيقاع ، له صدى جليل مساو للزمن الوهمى الذى يحياه . لمح على الجدار الأيمن الصورة التى جاء من أجلها .

(البنت . . والسفينة . . والنورس . .)

كأنه يعيش النشوة التى يحملها الريح من البحر عبر تخوم الفجوات من ملايين السنين ، والتى تأتى إلى مدينة لم يعد يفهم سرها .

أغلق البيانولا فصمتت موسيقى الإيقاع الموحد ، وتقدم ناحية الجدار . مدّ يده وأنزل اللوحة .

كأنما البنت قد ذعرت . . وأن السفينه تمتلىء قلوعها بالرياح . . والنورس يطلق استغاثة)

أطفأ المصباح فغابت الأشياء فى الظلمة الكابية . خرج إلى ممشى الحديقة ، يحمل تحت إبطه اللوحة ، ولم يكن الليل قد أتى بعد . قطف وردة وألقاها لماء الفسقية الذى دفعها خفيفا . سار صاعدا درجات المنزل . دخل حجرة مكتبه ذات الطراز العتيق ، وعلق اللوحة تحت المصباح الأمامى ، وظل يتأملها . ما يروعه عين البنت الواقفة عند مقدم السفينة ، والنورس المستغيث يرف بجناحين عاجزين مستقبلا عاصفة وليدة .

(كأن الطرق على بابى)

تشاغل بالنظر إلى اللوحة لكن الطرقات كانت تستحثه ، تناديه . . تولد لديه شعور بأن لصوت الطرقات سر مبهم كأنه يشده إلى الباب .

سحب « الروب » . وضعه على كتفه وخرج ، على بسطة السلم حدق فى فراغ أفق صحو لمغرب قادم . فتح البوابة المرسوم عليها التنين الذى ينفخ النار . رآها تقف بالباب بملابسها السوداء ، وطرحتها الملتفة بوجه كالقمر . ونظر فى عينيها ورأى مساحة الأسى والحزن وقد اكتسيا بغرابة أخافته . وشعر ببدنه يهتز : (هل هى السيدة التى أراها من السطح تهبط المنحدر ، وتظل تنظر إلى البحر ، وكأنها تنتظر شخصاً ما ربما يأتى به الموج ؟) .

- هل جعلتك تنتظرين كثيراً ؟

(ربما فى الحلم . . فى حكايا الكتب القديمة . بالله يا سيدتى لا تلاحظى هروب الدم من وجهى)

- أى خدمة ؟

تنظر صامتة ، وبسمة خفيفة على شفتين قرمزيتين ، تلوح وتختفى ، يحدق فى العينين الغامضتين اللتين لها وميض مخيف مع البسمة الصامتة .

- هل أستطيع شيئا لك ؟

خرج صوتها متقطعا :

- أليس هو العنوان ؟

بدت السماء بحمرة الشفق كجرح .

(لم يحدث أننى رأيت الشمس بهذه الحمرة من قبل)

- عنوان من ؟
- إننى أبحث عنه منذ سنين . هل رأيت السماء بهذه الحمرة من قبل ؟
- لا . . الليل داخل . . أى خدمة ؟

نظرت إليه بشراسة . قالت :

- لكنهم قالوا إنها نفس المدينة .
- أية مدينة ، وأى عنوان ؟
- مدينة الموت الجميل

ارتعد . هاهى ذى طيور سوداء تعبر الأفق على البحر . ترف بأجنحتها هواء يعلو فوق شوارع خالية . يزوم بأعالى الشجر

بهزيم يخيف . قالت :

- إذن فأنت لا تعرف «مدينة الموت الجميل» ؟

شعر برعب غريزى ، والعينان تفيضان عليه وتخوفه . واستند لبوابة الحديد حيث تساوى قلبه وفم التنين نافخ النار . مدت يدها وأعطته ورقة فضها وقرأ .

(مدينة الموت الجميل . شارع البحر . فيلا النورس)

قالت :

- هو العنوان ؟

(وكنت فى الأيام التى أمضيها فى الملحق - خزانة الذكريات القديمة - أسمع أصواتا فى الجنبات)

(وكأننى كنت أرى الظلال تتقارب وكأنها تتحادث)

قالت :

- أليست هذه فيلا النورس ؟
- نعم هى فيلا النورس .
- والشارع أليس هو شارع البحر ؟
- هو كما تقولين .

نظرت إلى البحر وقالت :

- نفس السحب ، ونفس الموج ، ونفس المنحدر . إذن هى المدينة ، وأنت تعرفها ؟
- أية مدينة . لم أعد أفهم ؟
- «مدينة الموت الجميل»
- يا سيدتى لا يوجد مدينة اسمها «مدينة الموت الجميل»
- لكن . . أليست هذه فيلا النورس .
- نعم .
- إذن فأنت تعرفها ؟
- أعرف ماذا بالله ؟
- تعرفها البنت .
- البنت ؟
- نعم . البنت . لقد كانت ترتدى ثوباً من الدانتلا الخضراء ، وكانت تقف عند مقدمة السفينة ، وتحادث النورس .
- لا أعرف يا سيدتى عم تتحدثين ؟ .
- لقد أخذها منى وسافر . بعدها لم يعد . من زمان وأنا أجوب المدن بحثا عنها .
- عن ماذا ؟
- عن المدنة .

أتعسه شحوب وجهها المفاجىء ، وإحساسه بالسقوط فى فخ الأشياء التى تبدو له خاطئة .

قالت :

- إننى أبحث من سنين .
- يا سيدتى . هذه ليست مدينة للموت ، ولا يوجد بنت ولا نورس .

- لقد كانت فى عمر الشباب . لها شعر فى لون البندق ووجه مثل وجهى . انظر ولها عينان لوزيتان . . كانت لحظة أن تبتسم تفيض الشمس ، وكنت أرقبها وهى معه .

- معه . . مع من ؟
- البحر .

اختلطت عليه الأمور . عذبته اللحظة وأحس بأسره . كانت يده تقبض حديد البوابة بعصبية ، فيما كانت دقات قلبه تتسارع . أراد أن يتكلم لكنها قاطعته :

- ظننتك تعرف كل شىء .

بكت فجأة ، وعلا نشيجها موازيا للرياح التى بدأت تعصف . رجعت بظهرها مركزة عينيها فى عينيه . عادت عجلى . كان وجهها مصفرا كأنما هى للتو عائدة من شوط بعيد . وقف جامدا كتمثال «العبد الأسير» بملحق الدار . هى على البعد يعلو نشيجها . دعاها للدخول فامتنعت ، وظلت واقفة ترقب بوابة الحديد .

أغلق البوابة ، وعاد إلى مكتبه . أشعل سيجارته ، وأخذ يطرد الدخان بعصبية وخوف .

فجأة وبلا أدنى توقع . فى اللحظة الموازية للانتباه ، وقبل أن تدخل فى دائرته المروعة ، حيث يكون الذهن أقرب إلى حالات - أقصى حدود حالات - التركيز بالوعى وبالمشاعر ، حيث يخترق الشعور مكتسحا المخاوف للوصول إلى تخوم التوقع . فى تلك اللحظة اصطدم باللوحة المعلقة : مساحات هائلة من البحر ، سفينة تبحر إلى لا مكان ، وبنت تلبس ثوبا من الدانتيلا الخضراء . وطائر النورس يطلق استغاثته الأخيرة .

أحس بقلبه ينضغط تحت ثقل ، والريح تصفر فى فجوات الشطآن البعيدة . هل هى كتب الحكايا ، أم أقاصيص الجدة فى ليالى الشتاء ؟ يشعر بوجوده فى الزمن المحاصر ، والذى لا يمكن أن يخطئه . تلك الأشياء التى يألفها ويعيشها . كتب الشعر ، والملامح ، والهجرات كأنما يستعد للطمة الأخيرة .

هل هى الصور وقوس قزح ، أم أنه الحلم الذى يعدو خلفه من زمن الطفولة ؟

هل هو الغموض المروع من زمن الأبدية ، ولحظة التحقق الذى كاشفه بها الحدث ؟

لم يعد يدرك .

حدق فى اللوحة بعينين مفتوحتين ذاهلتين . دارت عيناه حتى وصلت أسفل اللوحة ، فوق الإطار الخشبى ، وجد حروفا من أبجدية منشورة ، متآكلة وقديمة ، كأنها لغة مهجورة ، ميته تخرج من كتاب تليد ، تمعن الحروف وظل يجمعها ويرتبها ، انصعق بتيار خفى . أعطته المعنى الوحيد المستحيل «مدينة الموت الجميل» . ارتج ، وجرى ناحية النافذة ، يبحث عن المرآة ، لكنه لم يجد أحداً .

المحلة الكبرى : سعيد الكفراوى

الابتلاع

أحمد الشيخ

عيبك الخطير أنك تحوّل كل مآسيك إلى نكات تضحك عليها وتحاول اضحاك الخلق معك . أنا لست ضد الضحك طبعاً ، أنا ضد الضحك من غير سبب معقول ، حكايتك مأساة بكل المقاييس ، أو هى على الأقل بوادر مأساة ، يلزم العمل على عدم وقوعها . سأوضح لك الأمر مستشهداً بكلامك أنت نفسك . ظاهر أى موضوع يختلف عن جوهره ، وسوف نسعى للوصول إلى الجوهر . الولد يكبر البنت بعامين وتسعة أشهر ، والبنت لم تكمل عامها الأول وتحتاج فى هذه السن الحرجة قبل الفطام إلى غذاء كاف ، لا يحق لك أن تقاطعنى قبل أن أكمل كلامى ، عيبنا هو عدم القدرة على الإصغاء الجيد لمن يتحدثون إلينا ، المسألة ليست زمنا يستغرقه متحدث أطول أو أقصر من الآخر ، يجب أن تفهم ما سبق وقلته لك قبلا من أن البعض عندهم كلام أكثر أهمية وجدوى ، وقد يحتاج إلى وقت أطول مما يحتاجه أولئك الذين ليست لديهم غير بعض التعليقات اللفظية العابرة التى تسعى إلى الاضحاك ، وإشاعة جو من المرح المفتعل . هناك أيضا من يبرع فى صياغة أفكاره فى كلام مختصر يفى بالغرض ، ومن يعجز عن توصيل فكرة بسيطة مهما طالت ثرثراته ، كل هذا تفريع هامشى للموضوع الأساسى الذى يلزم أن نعود إليه ونفسره .

***

« لم يكن مثل هذا الكشف لغزا لأنك عشت مرارة الفقد منذ البداية ، أعطيت لأنه لم يكن لديك غير الاستعداد الفطرى للعطاء ، وعندما أدركت أنك تعيش وحيدا فى عراء العالم ، دون الاستناد على أحد ، فرحت لأنك لم تفعل معكوس ما فعلت ، ولأن اللعبة كانت قد تخللتك ولبستك ، وصارت مبرر بقائك الوحيد ، رغم أنه حدث أن كشر هو عن أنياب الوحش فيه ، واستباحك كما استباحهم غير أن الجرح سكن فى الأعماق الغويطة واستكان ، وكلما ضاقت بك الدنيا كان يعل عليك فتستعيد تاريخا من النهب كنت فيه أول الضحايا »

« ليلتها أدركت أن وجودك وسط الجمع خدعة ، فلا الوجه ضحاك ، ولا اللسان تدرب على الهدهدة والتملق ، لم يكن غير الكدر على سحنة مضروبة بألف سوط فى المزمن الفائت وميراث مسلوب لم تستند عليه فترنحت دوما ، ومطالب الآخرين طوق فى عنقك يصعب الخلاص منه ، ليلتها لم تسهم معهم بالقرش الصعب فى حفل المأكلة بعد المشربة ، فهون أكثرهم عليك الأمر ، وتسابقوا فى التطوع باحتمالك ، لكنك أحسست بسخف المتطفل عندما تسابقت مع أحدهم منتشيا على قطعة لحم مثلما فعل الآخرون فواجهك وبدا لك أنه يعايرك تصفية لحساب قديم ، أعادك رغما عنك إلى ما فات من أمر

استلابك وتأكد لديك ما كان مؤكدا وتناسيته فى زحمة الرغبة فى الخروج اليهم من قوقعتك أنه من يمتلك ويدفع يحق له البقاء فبكيت مترنحا بعبء شراب ابتلعته ولا يخصك . .

***

تقول ان الولد وقد تخطى منتصف العام الرابع أخذ « ببرونة » البنت ، ووضع حلمتها فى فمه وامتص محتوياتها ، ثم أعادها فارغة بجوار البنت النائمة التى لابد وأنها سوف تعجز فى صحوها عن حماية رضعتها من قبضته الأقوى ، تقول إن الأمر لم يشغلك كثيرا إلا بعد تكراره على مشهد منك فى الليلة التالية ، فأيقظت زوجتك لتحكى لها ما حدث فلم تهتم هى على عكس ما كنت تتوقع من انخراطها فى الضحك مثلما كنت تضحك ، كانت هى غارقة فى نومها الثقيل فتركتها لتغطس فى نفس البحر الذى أخرجتها منه قسرا ، وفى الصباح عاودت الحديث معها عن اكتشافك بنفس الحماس لإضحاكها ، فبدا لك أنها تستمع إلى نكتة سخيفة سمعتها ألف مرة ، لابد أنك شعرت بالخجل لحظتها ، وتلعثمت على عادتك ، ثم حدثتها متواريا خلف نبرة الفاهم مقدما اليها تفسيرك الخاطىء بأنه مجرد حلم ، حلم برىء لطفل برىء ، يبتلع بينما هو نائم فى واقع الأمر ، مستيقظا فى ظاهره - يبتلع جرعة لبن صناعى لا تخصه تنفيسا عن رغبة مكبوتة فى ابتلاع ماكف عن تعاطيه خضوعا لإرادة الكبار ، حدثتها عن كل ما سمعت به من كشوف فى علم نفس الأطفال فلم تسعفك باستعدادها للسماع وغيرت الموضوع .

***

« وزور هو أوراقا بشراء الأرض والدار ، واستخدام بصمة الراقد فى ركن القاعة رقدة الموت ، كانت هى تحت قدميه تحرسه ، وتنتظر تلبية ما قد يصدر عنه من رغبات ، لكنها أغفت فى قيلولة ساكنة لتتيح له اكمال مراسيم السلب بلا مانع ، اكترى شهود زور ، ودفع واطمأن إلى ضمان الامتلاك ، ويوم طالبته هى بأن يتولى بنفسه تقسيم الميراث ، بعد ذكرى أربعين الرجل ، ضحك ساخرا من حسن نواياها حيث أصبح هو سيد الدار ومالكها ، ضربت صدرها المهدود براحتيها ، وخرج صوتها ندبا متواصلا لمَّ رجالَ الدرب وحريمه يستفسرون ان كانت قد حلت بالدار مصيبة جديدة ، فأشارت اليهم أن اسألوه ، فأجاب بأنه اشترى بمحض إرادة الرجل ، وأظهر عقد الشراء ، أضاف بأن الرجل

كان يكره الضعفاء ، ويعشق الأقوياء القادرين على حماية ميراثهم من عدوان المتربصين ، كان متبجحا إلى حد أنها أنكرت أن تكون بالفعل قد حملته فى بطنها تسعة أشهر ، أو أرضعته من لبنها ، تبرأت منه ، وسقطت من طولها ، ولم تقم لها بعد ذلك الصباح الصعب قائمة ، تاه منها العقل الموزون ، وانفتحت العينان على عدم ، وبقيت جالسة فوق فراشها مشلولة الأطراف واللسان تتأبى على الرقاد ، علها حسبت نفسها تكفر عن لحظة الغفلة التى أتاحت له فرصة التحكم فى مصائرنا بلا حياء . »

***

أمهات الزمن الفائت يا صاحبى كانت تعرف واجباتها ، وتقوم بها على خير وجه ، كانت الواحدة منهن تصحو من نومها إذا كح طفل أو تقلب فى فراشه ، يدها المدرَّبة تتحسس جبهته لتطمئن على حرارته دون مقياس للحرارة ، تسرع بالقيام من مرقدها فى برد « طوبة » لتعمل له الينسون أو النعناع بحسب ما تتطلب الحالة ، زوجتك مأساة بكل الحسابات ، لأنها تستغرق فى النوم ، وتترك الولد يمارس استغفالها ، ويستلب غذاء البنت ، قال القدامى إن المال السائب يعلم السرقة ، وهو قول صائب يتأكد صدقه كل يوم لو قرأنا ما ينشر عن بعض تلك الشركات الاستثمارية ، والبنوك الأجنبية ، والمشاريع الوهمية التى يؤسسها محتالون على مستوى عالمى بهدف استلاب رصيدنا وتمييع ميراثنا ، القياس مع الفارق طبعا لكن الغفلة هى الغفلة ، والأم التى تسمح باغتصاب جرعات من اللبن الصناعى ، قبل أن تصل إلى فم طفلة فى عامها الأول ، لا تؤتمن على مصيرها فى مستقبل الأيام .

***

« وقالت البنات بعد موت الأم محسورة : دافع عنا وساعدنا لنستعيد حقنا المسلوب ، حتى لو لجأت إلى قتله ما شهدنا ضدك ، لكنك استخدمت حكمة الأفندية ، وجمعت مجلسا من كبار رجال العائلة وطرحت عليهم ما كان من أمر الحق الضائع ، فطيبوا خاطرك ببضع عبارات : عيب أن تتهم أخاك الأكبر وهو الذى أصبح فى مقام المرحوم ، ما فى جيبك فى جيبه ، وما فى عبِّه فى عبِّك ، والدم لا يتحول إلى ماء ، البنات مصيرهن الزواج ، والواحدة منهن لها جهازها كأحسن ما يكون فى شرع العائلة ، أما أن تستولى على موروث من الأرض وتضيفه إلى ملكية غريب ، فهو ما لن يقبله أحد

منا » ولو طارت فيها رقاب ، وأنت أفندى لن تزرع أو تحصد ، شهادتك سلاحك الذى يعفيك من طين الأرض ووسخها ، انفض المجلس فتحسس ذقنه وهز رأسه متوعدا فابتلعك الخذى لأنك جرؤت على فضحه فى حضورهم »

***

تقول أنت إنه حدث أن تطوعت بمحض اختيارك لإعداد جرعات اللبن الصناعى للبنت فى تلك الأمسيات التى مرضت هى فيها والهانم تستغرق فى نومها عقب ذلك المسلسل الساذج الذى تصادف وكان يعرضه التليفزيون أيامها ، كنت تعد الرضعات وتضعها بين يدى البنت وأنه حدث أن فعلت نفس الشىء مرة وخرجت من الحجرة بحثا عن عود ثقاب تشعل به سيجارتك ثم عدت لتجد عبوة اللبن الصناعى قد تلاشت عن آخرها والبنت تبكى بحرقة والوعاء الفارغ بينها وبين الولد الذى بدا لك متناوما يدارى جرمه متقلبا فى الفراش بغير معنى

***

«وذهبت لحضور حفل زفاف كبرى البنات مكرها لأنه لم يكن من المناسب لطبعك التخلى عنها فى يوم فرحتها ، قابلك أمام الغرباء بعبوس الوجه وفتور الكلمات ، فأجهدت نفسك لتحتفظ بشكل علاقة مألوفة بين شقيقين أحدهما وفد من مدينة يعمل بها ، والآخر راسخ ومعدود فى درب عائلة تشمخ بالأنوف اعتزازا بجذورها الضاربة فى طين الأرض رغم ما يجرى بين أفرادها من انتهاك الحرمات ، واستلاب الحقوق ، كان اسم العائلة يطن فى أذنيك ويجلجل فى مكبر الصوت ، وكأنه يعلن للأسرة الأخرى تحذيره الخفى شأن أفراحها التى تتحول إلى سباق بين عائلتين ، ولأنه مثل دور الأخ المسيطر عليك وامتثلت أمامهم ، انتحى بك جانبا وسألك عن سر غيابك الطويل عنهم وتعلل بأشواق البنات متناسيا أنه طردك ، فاعتذر المطرود للطارد عن تقصيره فى طرق بابه من أجل أشواق البنات . . كنت تتعامل معه بحذر وتخشى لو دب بينكما خلاف جديد أن يحرمك من تقليل شكاياتهن منه . لأنك كنت تفلح أحيانا فى تخليص بعض حقوقهن بالحيلة أو بالحزم المحسوب ، أو حتى بالدعابة فى لحظة انتشائه مع سر الدخان الأزرق الذى يخرج من صدره العريض مع ضحكاته ونحنحاته ، كان يتجاوز حدوده ويسألك إن كنت أيها الأفندى قادرا على دفع تكاليف قعدة من قعداته المسائية فتجيب بالنفى . ليضحك ويوشك أن يجعلك هدفا لإضحاك أتباعه ناسيا أنه هو نفسه الشقيق الذى نهب ميراثك ، وأجبرك على العمل بنصف مؤهل هو مجدك وعارك ، سلاحك والطعنة النافذة فى قلبك ، مصدر زهوك لأنك انتزعته بعناء من واقع شرس أول سنوات اغترابك ، كان يتأكد لديك صدق ما سبق أن قرأته من أن العالم انقسم إلى مظلومين وظلمة ، مقتولين وقتلة ، حاكمين ومحكومين ، فقراء تنطمس تحت الرماد مواهبهم وقدراتهم ، وأغنياء أكثرهم حمقى مثله ، يباهون ويتيهون لأنهم يسهمون فى فساد العالم . »

***

تقول أن الشكوك حامت حول دماغك على نحو غامض ، خطرت فى خيالك شاحبة وبعيدة ثم تخلقت وبعثت ومضاتها التى حيرت الدماغ بقدر ما بعثت فيه من مشاعر الارتياح ، وفى المساء التالى أخذت الولد لينام فى حجرتك خلافا لاعتيادك النوم منفردا ، كان يقوم من فراشه فى منتصف الليل ، أو قرب الفجر ، ويخرج من الحجرة ويتصادف أن تشعر بحركته ، وتسأله عن وجهته فيرد عليك بأنه ذاهب لقضاء حاجته فى دورة المياه فتفرح ، وتتوهم أنه تعلم أخيرا وجوب المحافظة على نظافة الفراش ، كنت تتقلب ولا تشغل نفسك فى أول الأمر بمتابعة خطواته حتى اكتشفت أنه يذهب إلى الحجرة الأخرى كأى لص محترف ليستلب غذاء البنت ، ذلك أنك صحوت مرة على صراخ الطفلة ، وذهبت لتهدئتها بينما الهانم غارقة على عادتها فى نومها الثقيل لتلاحظ ابتلاع الرضعة التى كنت قد أعددتها لتوك ، ليلتها أيقظتها غاضبا ، وأفهمتها أنه من الواجب أن تحمى هى البنت من لصوصية الولد ، لكنها سخرت من فكرتك وأنكرتها فأكدت لها صدق ما كان من ابتلاع غذاء البنت ، فابتسمت ، وفسرت لك الأمر على أنه نوع من أنانية الأطفال شائع ، ضحكت أنت واعتبرت الأمر نكتة ، ورحت ترويها على مسامع الأصدقاء والأهل مستجديا ضحكاتهم أيضا ، وفاتك أن الأنانية شعور إنسانى لا ينتهى فى مرحلة الطفولة ، وإن كان يبدأ منها ويستفحل خطره فى الزمن التالى ، وفاتك أيضا أن تؤكد لها أن من يفرط فى حق طفلة لم تكمل عامها الأول مستعد أن يتعامى عن حقوق شعب واستلاب وطن .

القاهرة : أحمد الشيخ

عبد الوهاب الأسواني | فصول

فوق الجسر الكبير ظهرت الفرس المبرقشة يمتطيها الرجل السمين . عندما تهبط فى أحد المنخفضات تغيب عن ناظرى فلا أرى غير عمامة صاحبها ، وحين تصعد مرتفعا تظهر أرجلها كأن سنابكها تدقّ فوق رأسى .

أولاد عبده الجيعان خرجوا من حقل الأذرة الرفيعة ومناجلهم فى أيديهم . وضعوا أكفهم فوق رؤوسهم باستثناء أصغرهم . الرجل السمين رفع سبابته وأنزلها بسرعة دون أن ينظر إليهم .

سيدى لم يرفع يده حين خرج من حقله لحظة صعود الفرس . أعطاها ظهره ومضى نحو الجنينة . ودخلها وأغلق الباب وراءه بوجه متجهِّم . السمين كان يحدق فى ظهر سيدى لكنه أعاد عنقه إلى وضعه الأول بحدّة عندما سمع باب الجنينة يُغلق فى عنف .

حين غابت الفرس براكبها وراء نخل آل موسى ، ظهر «ويسكى» بأذنيه العريضتين المتهدلتين وشعره الذى ينحدر ويغطى عينيه . حجمه أربعة أضعاف حجم واحد من المساكين أمثالى . هذه أول مرة أرى فيها واحدا من جنسنا له مثل هذا الذيل القصير الناصع بياض الشعر . يقال إن أجداده من بلاد أولئك الناس ، زرق العيون ، الذين يأتون لتأمل الجدران الصخرية عند حافة الجبل .

أولاد عبده الجيعان وقفوا يرقبونه صامتين . أشار أصغرهم إلى الرجل السمين وقال : هو فى طريقه لزيارة صديقه مهندس الطلمبات ، وكلبه يزور صديقته كلبة المهندس . أراد أن يضيف شيئا لكنه صمت حين رأى أخاه الأكبر ينظر إليه واضعا سبابته فوق شفتيه .

قبالة شونة آل طاهر ، وقف «ويسكى» يُشمشم رافعا أنفه إلى أعلى. خفّ إليه كلب عبده الجيعان الأسود وفى أثره كلب عوض الله بلونه الرمادى . صعدا الجسر ووقفا أمامه يهزان ذيليهما فمضى يشمشم متشامخا كأنهما غير موجودين . هبط من الجسر واتجه ناحية الغندورة ووقف يشمشم فى أنفها فى حين كان جروها الصغير ، بأذنيه العريضتين المتهدلتين ، يتقافز فى مرح ، والشعر الغزير ، الناصع البياض ، يغطى عينيه .

جاء كلب النجار بلونه الباهت ، هزّ ذيله هزات سريعة متتالية ، وتلوّى فى مشيته كأنه يرقص . رقد على جنبه تحت قدمى ويسكى ومضى يضرب ذيله فى الأرض مثيرا التراب من حوله . من حلقه يخرج صوت يشبه صوت باب الجنينة حين يُفتح ببطء .

كلب عبده الجيعان ابتعد حين رأى بداية الغزل بين الغندورة وبين ويسكى . كلب عوض الله تراجع بظهره وبقى كلب النجار راقدا لكنه نهض بسرعة مبتعدا ، وذيله بين فخذيه ، حين أظهر ويسكى أنيابه وشخر .

فى الفترة التى ساد فيها «أرْمَنْتى الرابع» كان كلب النجّار هذا ، بلونه الباهت من أعز أحبابه . تحوّل إلى صداقة

«الرومى» فى اللحظة التى أعقبت انتصاره . يتلقاه على الجسر ، قبل أن يصل قبالتنا بمسافة طويلة . يتقافز أمامه ، ويهز ذيله ويقلد صوت باب الجنينة حين يُفتح ببطء . الآن هو يحتمى فى صداقة ويسكى - بعد انتصاره - ويتشامخ مستغلا ضعفى ، يرفع ساقه الخلفية ويطلق بوله على جذع النخلة التى أرقد فى ظلها . حتى الغندورة تغيّرت . فى غابر الأيام كانت تُسمعنى أرق الأصوات . تستسلم الآن لشمشمات «ويسكى» ، توهمنا بأنها تتجاهله . وهى فخورة باهتمام سيّد اللحظة بها .

ما أقسى الذل يأتى بعد عزّ . فى زمن مضى كنت أظن أن الحياة الأخرى سوف تعوّضنى . صُدمت حين سمعت الواعظ يقول لسيدى إن الكلاب والبقر والخراف والجاموس وبقية الحيوانات لاحياة أخرى لها . من التراب وإليه ولا شىء آخر .

ما هذا ؟ كيف لم أتنبّه لهذه الضجة من قبل ؟ «فلافل» ينبح بشدّة ويتراجع إلى الوراء ثم يندفع إلى الأمام فى عنف حتى أخال أن طوق السلسلة سوف يمزق رقبته . لست مع فلافل . صغر سنه يوهمه بأنه يستطيع مصارعة ويسكى . النتيجة معروفة سوف يمزقة ويسكى بأنيابه الحادّة التى فى طول شوك ذكر النخل . حين كنت فى قوتى الأولى تعرضت لويسكى على أثر انتصاره على الرومى . ظننت وقتذاك أننى أستطيع استعادة مجدنا أيام أرْمَنْتى الرابع . اعترضت طريقه فوق الجسر أثناء مروره اليومى خلف فرس سيده السمين . وثب إلى رقبتى وغرس أنيابه فلم أعرف بحقيقة ما حدث إلاّ فى اليوم الثالث . تورّمت الجروح وطوال فترة وجود القمح فوق الأرض لم أستطع بلع شىء إلاّ بشق الأنفس . منظر الشعر الناصع البياض ، المتهدل فوق عينى ويسكى ، يبعث القشعريرة فى جسدى الواهن كلما رأيته .

«فلافل» لا زال يتراجع ويثب إلى الأمام فى عنف . ذيله ، بشعره القصير الداكن ، ينتفض بشدة فوق ظهره ، وأذناه الحادتان كأذنى ذئب متوترتان ، وولولة السلسلة تختلط بنباحه الذى بحّ الآن وغلظ .

فلافل يظن المسائل سهلة . حماسة هذا مصدره - كما قال سيدى بحق - أنه مربوط طوال حياته والمربوط ضيق الخُلق ، إذا أُطلق يظل لشهور طويلة يتحرّق شوقا لعقر كل من يلقاه من بشر وحيوان .

فُتح باب الجنينة وخرج سيدى وهو يحدّق فى فلافل بدهشة . راقبه للحظة وهو يتراجع ويثب فى اندفاعات عنيفة ويلهث . اقترب منه وركع أمامه على ركبتيه واحتضنه يهدّئه ، لكن «فلافل» كاد يعضه ، ثم تملص منه وعاد إلى شدّ السلسلة كأنما يريد تمزيق نفسه . وقف سيدى وأدار عنقه نحو باب الجنينة وقال : يا عبد الرحيم .

جاء ابن سيدى فقال له أبوه : هدىء الكلب ، ضاق خلقه لأنه مربوط . عبد الرحيم أومأ موافقا ، ولما رأى أباه يدخل الجنينة ، وقف يتأمل فلافل متثائبا . لكنه حين لمح ويسكى يقف أمام الغندورة ، فى ظل شونة آل طاهر ، لمعت عيناه .

بحركة سريعة مفاجئة تشبه لحظة اندفاع أنياب ويسكى نحو عنقى فتح عبد الرحيم الطوق ، واندفع فلافل نحو شونة آل طاهر . لم أر جسما مندفعا بهذه السرعة إلاّ فى يوم سقوط عجل آل الجيعان الأبلق فى بئر الساقية المهجورة. ويسكى رفع رأسه يحدق فى المندفع نحوه . تراجع إلى الوراء قليلا ، بعد أن هبط ذيله وأصبح فى وضع أفقى . الغندورة أدارت عنقها ، من مرقدها ، تنظر إلى حيث ينظر . حين اقترب فلافل أكثر ، هبط ذيل ويسكى ، غزير الشعر ، ودخل بين فخذيه .

تحاملت على نفسى وصعدت الجسر لأرى ما يحدث فى الأفق البعيد . ويسكى منطلق فى اتجاه الغرب وفلافل ، بلونه الداكن ، مندفع وراءه ، يتمدد جسده حتى ليبدو أطول من حجمه تارة ، ويتلملم فى شكل كروى تارة أخرى . ويصعدان ويهبطان ، مرة أرى هذا ومرة أرى ذاك ، حتى غابا وراء قرص الشمس الأحمر .

كلب آل الجيعان وكلب عوض الله وقفا يشمشمان فى الهواء دون حراك ، وانشغل كلب النجار فى نفض التراب عن شعره الباهت ولم تتحرك الغندورة من مكانها . مضت ترقب جروها يلعب وكأن شيئا لا يحدث .

استدرت أنظر إلى الاتجاه الأخر حين سمعت وقع الحوافر على الأرض . رأيت الرجل السمين يتراكض بفرسه عائدا ، ماطّاً عنقه فى اتجاه الصاعديْن الهابطيْن ، فمه مفتوح وعيناه جاحظتان .

أولاد عبده الجيعان خرجوا من حقلهم يحملون مناجلهم . وتغامزوا مع ابن سيدى وتضاحكوا لكنهم قطعوا ضحكاتهم حين أدار الرجل السمين عنقه ناحيتهم بحدّة .

سيدى أطلّ من باب الجنينة فأشار اليه ابن الجيعان الأصغر ناحية الغرب . خرج من الجنينة وارتقى الجسر مظللا حاجبيه بكفِّه محدِّقا فى الأفق الغربى للحظات ثم هبط ودخل الجنينة دون أن ينبس . حين اجتاز العتبة واستدار يغلق الباب لمحت ابتسامته .

- ٢ -

الأرض على مدى الشوف مكشوفة يتناثر فوقها البقر يرعى فى اطمئنان . حقول الأذرة الرفيعة كانت تحجب عنى بيوت النجع البعيدة الآن أراها واضحة يتقدمها بيت شيخ البلد بنوافذه الخضراء العريضة . الغنم نسيت سجن الحظيرة وانطلقت ترعى فى مرح وصغارها تتقافز فوق الجداول .

فلافل بجسده المبروم وأذنيه الحادتين كأذنى ذئب يقف فوق الجسر الآن ، شموخه يعيد إلى ذاكرتى أيام أرمنتى الرابع . هبط ووقف يشمشم فى أنف الغندورة التى ترقد بشعرها الأحمر الناعم فى ظل شونة آل طاهر ، ترقب جروها الجديد ، بجسده المبروم وشعره الداكن . وأذنيه الحادتين كأذنى ذئب .

عن يمين فلافل وقف كلب عبده الجيعان وعن يساره ركع كلب عوض الله ، ولما جاء كلب النجّار بلونه الباهت ، تواثب أمام فلافل ، وتلوّى راقصا ، ثم رقد تحت قدميه ، ضاربا ذيله فى الأرض ، مثيرا التراب حوله ، مصدرا ذلك الصوت الذى يشبه صوت باب الجنينة ، حين يُفتح ببطء .

أعرف الآن أنه سوف يتجه ناحيتى متشامخا ، مستغلاً صداقته لفلافل . لكننى سوف أتّقيه بالتظاهر - مثل كل مرة - بالنوم .

القاهرة : عبد الوهاب الأسوانى

الــكاميــرا

عبد الله خيرت

تحركت عيناه تكتشف الميدان الواسع والعمارات العالية التى تلتف حوله ، كان الوقت أصيلاً والهواء يتحرك بين الأشجار الصغيـرة ، وكانت الـظلال قد امتـدت على الأرض طـويلة متقـاطعة ، ولهـذا ترك ولـديـه ينـزلان ليلعبـا مـع الأطفـال الآخـرين ، ومن مكانـه فى شرفـة الدور الثـالث كان يـراهما ويتعجب من قدرة الأطفال على عقد صداقات حارة وسريعة ، إن هذه أول مرة يختلطان فيها مع الآخرين ، ولكنهما يشاركان فى كل شىء ويجريان ، ويغرقان فى أحاديث هامة تتطاير بعدها الضحكات المرحة من الجميع .

طوال هذا الأسبوع وحتى فى صباح اليوم كانت هناك حركة عمل لا تهدأ فى هذا الميدان ، ولم يعرف بالضبط مـاذا يفعل العمال ، ولكنه الآن يدرك أن الميدان مخطط بدقة بالغة ، وأن أرضه مقسمة إلى مثلثات متساوية ، على رأس كل مثلث شجرة صغيـرة ، وفى الداخـل امتدت مسـاحة خضـراء ، أو زهور متعددة الألوان ، وكان يغير مكانه فى الشرفة ليستطيع أن يرى بوضوح أكثر العلاقة بين هذه المثلثات ، إن العمل لم يكمل بعد على كل حال ، وقد ذهب العمال الآن ، وتركوا أدواتهم التى كان الأطفال يعبثون بها بعض الوقت ، ثم يتركونها بسرعة ، ويجرون فى كل اتجاه ،وفى جريهم كانوا يدوسون الزهور غيـر مبالين .

وفى الداخل كانت زوجته منهمكة فى ترتيب الأثاث ، إنها لم تهدأ لحظة واحدة ، وكان ترك الشقة القديمة والانتقال إلى هنا عبئـا شاقـاً تحملته وحـدها وإن لم تشـك ، أو حتى تقبـل أن يساعدها . كانت راضية وسعيدة . بل إنه سمعها الآن تغنى بصوت خافت ، ولكنه يريدها أن تستريح قليـلا ، أو هو فى الحقيقة يريد أن يتحدث معها ، وخطا إلى الداخل محاولا مرة أخرى كما فعل من قبل :

– دعينى أساعدك .

– لا . . لا . . لا . .

– أمامنا وقت كثير . . أجلسى .

– لا بد أن أنتهى من حجرة الأولاد الآن . لن يستطيعا السهر بعد كل هذا اللعب .

– مارأيك ؟ أظن أن هذه الشقة أكبر بكثير من القديمة ؟ وهكذا استطاع أن يعطلها ، فجلست على السجادة وهى تلهث ضاحكة :

– أكبـر ؟ ليس هذا هـو المهم . إنك هنـا تستـطيـع أن تصرخ ، وتشتكى من زوجتك المسكينة . ألم يكن هذا حلمك لسنوات طويلة ؟ هناك كنا غرباء . وهنا كنا نسكن فى الشارع تقريباً ألا تذكر ؟

– صحيح.أن يكون الإنسان حراً فى بيته . أتعرفين ؟ لقد وصلت خصوصاً فى السنوات الأخيرة إلى يقين بأننا لسنا أول أو آخـر نـاس يخدعـون ، ويسلب منهم كـل مـا يملكــون ثم لا يحصلون على شىء .

- الحمد لله أن المسألة انتهت . لا تعطلنى . عندى عمل لا ينتهى .

انتظر فى الشرفة بعض الوقت ، فلما رأى ولديه يلعبان مع الآخرين أحس بحاجة شديدة إلى مواصلة الحديث مع زوجته مرة أخرى ، كان يريد أن يظل الحديث متصلا بلا نهاية حول هذا الموضوع وحده . كان يريد أن يعترف لها بما ظل يعذبه عذاباً حقيقياً ، خاصة فى السنوات الثلاث الأخيرة .

كانت الأجازة شهراً واحدا كل سنة ، ولكنها لم تكن أجازة أبداً . ففى اليوم التالى لعودتهم ، وقبل أن تستيقظ زوجته وأولاده ، كان يجد نفسه يجرى إلى هذا المكان ويتخيل وهو فى الطريق أن العمارات ومنها هذه العمارة لا بد أن تكون قد ارتفعت قليلا ، وأحياناً كان يشتط فيتصور أنها قد انتهت تماماً ، وأحاطت بالميدان كما يرى الآن ، ولكن هذا الحلم القصير الذى لم يكن يدوم إلا للحظة واحدة فى السنة ، كان يتبدد حين يقف هنا - ودائما كان يأتى فى الصيف الملتهب - فيرى الأرض لا تزال - رغم الحفر وأكوام الرمل البنى والطوب - جزءاً من الصحراء الواسعة ، ويسمع من العمال إجابات غامضة فهم مثله لا يعرفون شيئاً . إنه لا يستطيع أن يعود إلى البيت الآن . فيظل يدور فى الشوارع غريباً مندهشاً من هذه المبانى الشاهقة التى ملأت المدينة فى غيبته ، ولكنه فى النهاية لا بد أن يرجع إلى البيت .

ومن وقع أقدامه داخلاً تدرك زوجته قبل أن يقلب شفته ويهز كتفيه أن الحلم لازال بعيداً ولكنها لم تعرف أبداً ما كان يراه ويسمعه ، من المستحيل أن يقول لها إنها تعلم فقط أن العمل يجرى ببطء ، وهذا وحده سبب كاف للحزن ولضياع الأجازة . أما الذهول الذى كان يقتله حين يأتى إلى هنا : [illegible] مع العمال . تردده على هذا المكان مرات دون أن [illegible] لقاؤه أحياناً ببعض الناس الذين وقعوا مثله فى هذا [illegible] الاشاعات التى يؤكدها الواقع بأن هذا مشروع وهمى [illegible] أصحابه لصوص . احتمال دخوله فى منازعات واتصاله بالمحامين ولجوئه إلى المحاكم ، وانتظاره سنوات أخرى طويلة متعلقا بأمل واه أن يسترد نقوده ، احساسه خاصة حين كان يعود من هذه الرحلة الخائبة بأن الشقة مظلمة وخانقة ، وأنهم فى الحقيقة لا يستطيعون أن يفتحوا نافذة لا بالليل ولا بالنهار حيث يمكن لأى طفل فى الشارع رؤ ية كل شىء فى الشقة ، حتى الجيران الذين يواجهونهم والذين كانوا فى الدور الأرضى مثلهم كانوا يكشفونهم تماماً . إنه لم يحدث زوجته بكل هذا . وهل كان يستطيع ؟ والغريب أنه حين يحل موعد سداد القسط كان يجد نفسه مسوقاً للدفع كالمقامر الذى يخسر ولكنه لا يمكنه أن يتوقف عن اللعب ، وفى كل مرة كان يسمع وعوداً ، ويجمع إيصالات ثم لا شىء . لقد انتهى كل هذا الآن كما قالت زوجته ، وسوف يحكى لها ، هو يريد أن يفعل ذلك الآن .

حين بدأ الظلام ينتشر فى أركان الميدان طلب من ولديه بصوت خافت أن يصعدا ، كانت أعمدة المصابيح مثبتة فى الميدان على شكل دائرة واسعة ، وسوف يمر بعض الوقت قبل أن تضاء . ولكن الميدان لم يكن مظلماً تماماً ، فكل السكان تقريباً - وهو يكتشف ذلك الآن - أضاءوا شرفاتهم ، واشتركوا بصراخهم وضحكاتهم مع أجهزة التليفزيون والكاسيت فى إحداث ضوضاء متداخلة صاخبة أخذت تموج فى الميدان ، فمن يصدق أن هذا المكان كان منذ سنة واحدة فقط جزءاً مخيفاً من هذه الصحراء التى تحاصرهم بظلامها وهواء ليلها البارد ؟

جلسوا يأكلون فى الشرفة بعد أن وجدت زوجته مكاناً مؤقتاً للتليفزيون فى ركن منها . نظرت وهى تهم بالجلوس إلى الولد الصغير :

- ما هذا . . أكنت تبكى ؟

قال الولد الكبير :

- أبداً يا ماما . ولد قليل الأدب قال له أنت لا تعرف «عربى» .

- ولكنى سمعتكما الآن تضحكان وتلعبان .

- نعم يا بابا . ولكن لم نكن نلعب مع هذا الولد .

- أنت تتكلم أحسن منهم جميعا . أنا كنت هنا طول الوقت وكنت أسمعك .

وكان الولدان مرهقين فلم يستطيعا مشاهدة التليفزيون مع أنهما أصرا على أن تأتى به أمهما إلى الشرفة.قامت معهما وجلس هو وحده من جديد . . عليه أن يذهب غداً ليقدم لهما فى المدرسة . كيف شغل عن هذا الأمر ؟ حين دخل هذه الشقة لأول مرة مع زوجته منذ أسبوع واحد كتب قبل أن ينتهى اليوم خطاباً يعتذر فيه عن السفر ، كانت الشقة هى الهدف ، وقد تحقق الآن فلا بد أن يخرجوا جميعاً من سجن الغربة القاتل . هذا السجن الذى أقام بينهم وبين الناس هنا وهناك حوائط عالية . وهو الآن يدرك صواب القرار الذى اتخذه مع أن هذه المشكلة كانت غائبة عنه حين كتب الخطاب . فلأى سبب ينشأ الأولاد بعيدين عن الوطن ؟ أى شىء يمكن أن يعوض هذا ؟ وكم من الوقت سيمر قبل أن يستقيم لسانهما الذى اعوج بسرعة ؟

جاءت زوجته أخيراً دون أن يناديها . كانت قد أخذت حماما أزال كل تعب النهار كما تقول . وكانت وهى تتكلم ينتشر حولها عطر أخاذ ولكن الذى أدهشه فى تلك اللحظة كان هو الثوب الليلى الذى ترتديه . لا يذكر أنه رآها هكذا أبداً . لقد تعود عليها ملتفة فى تلك الملابس البيتية الباهتة،وفى سنوات السفر الكئيبة كانت تتعمد أن تفسد مظهرها - مثل كل المصريات هناك - بغطاء عجيب مائل مستدير للرأس وملابس طويلة باهتة كذلك .

قالت وهى تنظر إليه فى عتاب :

- طبعا لا تصدق . وأين كان يمكن أن ألبس ثوبا مثل هذا ؟

- ولكننى لم أره من قبل .

- أنت الذى اشتريته لى مع أثواب أخرى نسيتها بالتاكيد سأريها لك الآن .

وتحولت دهشته إلى فرح حقيقى ، فقال :

- لا بد أن نسجل هذه اللحظة النادرة .

وقام يجرى فأحضر الكاميرا ، وجلس يضبطها أمامها :

- الصور التى سنلتقطها الليلة سنضعها فى ألبوم خاص أنت تعرفين طبعا أن حفلات المصريين وأعياد أبنائهم لم تكن تتم إلا إذا سجلتها هذه الكاميرا . استعدى .

وتوهج الفلاش فأضحكتها المفاجأة ثم غيرت مكانها مرات كما اقترح عليها وأعطت ظهرها للميدان حتى تظهر الأشجار الصغيرة خلفها .

دق الباب فتوقفا مندهشين صامتين . لا أحد من أصدقائها أو أقاربها يعرف أنهما هنا . تحرك هو إلى الباب بينما أسرعت هى بثوبها الخفيف إلى الداخل وجد أمامه ثلاثة رجال لم يرهم من قبل . وقف صامتاً متحيراً قال أحدهم بصوت مرتفع إنهم جيرانه . فى هذه الساعة من الليل ؟ ! ومع ذلك فقد ابتعد عن الباب بعد أن فتحه على آخره :

- تفضلوا . . لا تؤاخذونى . . تفضلوا

كان واضحا أن الرجل صاحب الصوت المرتفع هو الذى يقودهما ، فقد تقدم ، وتبعاه حتى وقفوا فى الصالة . قال الرجل :

- لا داعى ولكن أنت تعلم أن للجيران حقوقا .

ولا يصح أن تلتقط صوراً لجيرانك .

آلمه سوء الفهم الذى حدث فقال بسرعة :

- أنا ؟ كيف أفعل ذلك ؟ . إنما كنت أصور زوجتى تفضلوا .

ارتفع صوت الرجل أكثر :

- هذا غير صحيح لقد صورت هذا الرجل وأسرته . وهذا الرجل وأسرته وأنا .

وأومأ الرجلان كلاهما مؤكدين ما يقول .

خاف أن يجادل الرجل مرة أخرى فيرفع صوته أكثر ويستيقظ الأولاد . ولذلك توجه إلى واحد منهما موضحاً :

- لا يمكن أن أفعل ذلك . لأى سبب ألتقط لكم أو لغيركم صوراً ؟

ولكن الرجل هو الذى أجاب بصوت أكثر حدة :

- الأسباب كثيرة . على كل حال . . نحن نحذرك .

ولم يتركوا له فرصة أخرى ليتكلم فقد أخذوا طريقهم إلى الباب ونزلوا السلم ، وسمعهم يتحدثون وكانت أصواتهم ترتفع أكثر ، حتى خيل إليه أنهم قد يعودون مرة أخرى ، وأخذ يفكر فيما سيقوله لهم .

لم يستيقظ الأولاد . ولكن زوجته سمعت كل شىء بالتأكيد . ظل واقفاً فى الصالة حتى سمع أصوات الرجال تضيع فى الميدان الواسع . ثم جرّ قدميه والكاميرا تتدلى من يده إلى غرفة النوم . وهناك كانت زوجته جالسة على طرف السرير ، منكمشة صغيرة ، فى فضاء الغرفة ، تحرك ببطء حتى اقترب منها . سقطت الكاميرا فجأة على السجادة فأحدثت صوتاً مكتوماً مزعجاً فى هذا السكون ، ولكن زوجته لم تنتبه ولم تتحرك . ظلت كما هى منكمشة على طرف السرير ، محدقة أمامها فى الحائط الأملس !!

القاهرة : عبد الله خيرت

الـوجـه

عبدالستار ناصر

دخلتُ قبل أيام حديقة واسعة تشبه غابة ، كُتب على سورها الخارجى «مشتل السيّد جابر الحسن» . . ولم تمر بى سوى دقيقة ، وإذا بحارس متسخ العينين يطردنى . . بيد أنى لم أجب عليه بنفس وقاحته ، ولم أستطع النظر إلى عينيه المتسختين ، أهملته وأنا أقول :

- جئت إلى جابر الحسن ، قالوا : إنه أبى ، وإنه يريد أن يرانى .

فرك الحارس عينيه ، والتفت إلى الوراء كمن أصيب بلوثة فى عقله ، ثم هبط على عشب الحديقة مثل طفل ، ونظر إلىّ - إلى شىء ما فى وجدانى - وراح يهذى يمنة ويسرة محركاً هيكله بسرعة عجيبة ، مثل واحد من الدراويش أو المسحورين ، وردد ملء حنجرته :

- أى واحد أنت يامسكين ؟ العاشر أم التسعون ؟ العاشر أنت أم المائة ؟

ثم سكت قليلاً ، وقال بصوت مجروح :

- أتعبتمونى أيها الشياطين ، لم نكن مثلكم قبل الآن !

كان التهكم الذى أطلقه الحارس قد خيّب كل ظنونى . . . تركت الحديقة راجعاً من حيث أتيت ، سمعته خلفى يصرخ من جديد :

- أىّ واحد أنت ؟ تأكد من ذلك جيداً ثم تعال .

ثمة ما كان يوحى بالشك . لم أكن راغباً فى الذهاب إلى المكان ، تخيّلت ما مرّ بى من تشنجات سلبت صحوى ، رأيت فى مكان يشبه الشاشة أن أوردتى قد انفكت ، قد يكون حقيقياً ما تهيأ لى فى تلك الليلة ، حيث السيّد جابر الحسن واقفاً عند دكان الخياط يسأله عن مقاييس ثيابى وبنطلونى . لحظتها كنت أشك فى يقظتى ، بل كنت أعى فى داخل عقلى ان ثمة ما أصابنى فى بحور السنين الطوال التى انسحقت خلفى !

حين رأيت مقاس ثيابى جاهزاً فى واجهة المحل - وكان هذا فى اليوم التالى - خفق فى أوردتى هاجس غريب ، لمست عن كثب : كتلة الرعب التى صارت تمسخنى بهدوء يستحيل إلى جانبه الصمت ، وتسلّل الخوف من يومها إلى روتين حياتى .

لكن ، وبدافع من حب مكتوم إلى ماضى حياتى ، أوهمت نفسى بأننى لن أعبأ بالسيّد جابر ، سيما وقد تأكدت ان أوهامى سرعان ما تنفك عن رأسى بمجرد اندفاعى فى

الشرب أو الغناء ، وهذا ما فعلته يومين كاملين .

كنت أقول :

- انني اخترت نفسي حقل تجارب لهذا العالم ، ضحية لكل متاعب الحضارة التي وسختني ، لن أعكس أفعال الناس ولن أهزأ من فعل شائن ، بل سأكون طوع يد العالم ، وبهذا اتمكن من رؤ ية أفعالي ، دون تسليط إرادتي على فعل ما

هذا على صعوبته أقرب لي من فرص صداقتي على أحد ، أو مراقبة أفعاله وهو اجسه ، أو تسول المعونة منه ، وانتهيت إلى هذه الفكرة ، وكان عليّ أن أبدأ في تنفيذها مهما كانت الصعوبة .

***

كنتُ خارج بيت السيدة بدرية الحزايني ، في مكان يبعد بضعة أمتار عن غابة «السيّد جابر الحسن» ، أيقنت بأني سأذهب دون إرادتي إلى المكان نفسه . مع أني حذرت نفسي ، لكن هذا ما كنت قررته سلفاً : أن اكون مجرد حقل لتجارب العالم ؟

عرضت نفسي على الناس الذين يمرون حولي . رآني البعض أشبه بالعفريت ، حيث كان شعري منفوشاً على غير عادتي بينما رآني البعض أشبه الطفل ، كان هذا كله مجرد إحساس سببه الذعر الذي هجسته من السيّد جابر الحسن . .

وفجأة . كان الخوف قد تعمّق في داخلي ، وبات مرئياً ذاك الانكسار الذي رمته عيناي ، فانكمشت على نفسي كفأر وتلمستُ في هذا بداية انحساري عند رغبات تموت ، لم أتواجد في مطامعها النقيّة ، كي أنقذها من أجل نفسي - ربما - لأني كنت وحيداً دون رفيق !

***

دفعتُ باب الحديقة . .

كان خلفها عمود من الهواء البارد . رجعت إلى الوراء نازعاً نفسي من وهم كبير ، هجست بأني وقعت في مدارات ضوئية ، كان عليّ أن أعي سلوكي ، راجياً لنفسي أن أصبح قادراً على النطق في كل ثانية تمر !

فتشت في داخل ذكرياتي عن الفطنة والدهاء اللتين تمتعت بهما في أغلب أيام عمري ، قارنت حالتي بالذل الذي أتخيّله جاثماً فوق عنقي ، أنا الذي يخاله المرء سيداً ، والذي يظنه الكثيرون أعمق من ظاهره ، بالثياب العريضة ، والبفطال ذي الطبقتين الذي لم يعد من أحد يلبسه سوى الفقراء ، والرجعيين ، ورجال الشرطة .

عدت ثانية للتفيش داخل أعماقي ، عن الوجه المعقول الذي تعاملت به مع الناس : الممقوتين منهم أو المألوفين ، المملوئين رذالة والباعثين على الحب ، وكان عليّ أن اخفي عيوب ذاتي ، وألبس ثوب قناعاتي ، وأهرب من نفسي إلى حياة أخرى خالية من الهواجس المميتة !

كنت أقول كمن يهذي :

- إنه أبي ، قد يكون ، من يدري ؟

قالت بدرية الحزايني في ليلة لم أنسها :

- إن جابر الحسن في الستين من العمر ، يملك عينين غريبتين ، فيهما نعاس وخدر ، يمكن أن تهجس تأثيرهما وأنت خلف حجاب ، فهما إلى جانب اتساعهما يتوهجان عند النن العسلي ، ثم يخفت هذا الوهج كلما قلت المسافة عند الحافتين السميكتين ، فتحس أنك بمواصلة النظر إلى قعريهما تتدفأ بإحساس خاص لم تتلقفه دماؤك من قبل ، ليس من السهل أن ترى عينيه وحدهما لدقائق ، فقد يكون في هذا ما يخفي وعيك أو ينسيك مواطن الحساسية لحين إنجاز ما يريد ، وهذا ما كان جارياً مع النسَاء بوجه خاص . .

ثم انسلت نسمة من هواء أقوى من نعاس أيقظت حبّي لهذا الكون الذي أغفلته خلف ترهات الهواجس والعيوب ، أساء إليّ وجه معلمي لما تخيّلته يصفعني على خدي ، ويطردني من بين أصدقائي دون تقدير لطفولتي ، وهذا ما أحسّه الآن ، وأنا ضمن مملكة السيّد الحسن ، هذا الرجل الذي يمتهن قدرتي وطباعي ، ويسوقهما إلى النفي والاهمال . .

عندها نزل السيد جابر الحسن بعد أن نسّق شاربيه على حدود الشفة العليا ، ثم جاء الخادم بكأسين فارغين أبقاهما بتلك الحالة ، كأنهما يشاركان في لغز متعمد ، نظر إلى الخلف كأنه يوحي لخادمه أن نكون وحدنا فقط . بينما

تخلل أعماقى هواء ذو رائحة خاصة لم أعتدها ، وانغمرتُ فى سديم سرابى النكهة ، جامدا فى مكانى ، لم أتحرك ، لم أرفع اصبعاً من أصابعى ، لم ترمش عينى ، لم أقل أىّ شىء أبداً . .

كنت منتهياً ، بحيث أنى لم أفطن إلى أن الرجل الجالس قبالة وجهى هو نفسه : جابر الحسن .

* * *

ثمة فى الجانب المنسى من جسدى ، تكالبت الجروح ، تعود بى إلى دنيا قديمة تعمق فيها الخوف ، وهاجرت من تفاقمها وجوه أحبائى ، وبقيت وحدى فى الموجة التى جرتنى إلى ساحل موبوء بالوحدة .

كنت أفترض ان السيّد جابر الحسن قد أمعن - وهو بعيد عنى - فى تعذيبى ، وأنه وجد السبل التى أبعدت عنى كل الذين أعرفهم ، بعد أن وجدوا أن وجهى مملوء بالحزن ، وكان علىّ أن أبقى وحدى إلى النهاية .

بعدها ، جاء الليل إلى الشوارع ، وعاد الحب إلى القلوب ، وببطء عجيب أدركت ان رأسى يدور ، وأن جابر الحسن مازال ينظر إلىّ بهاتين العينين [illegible]وتيين ، فأيقنت أن كل شىء يوحى بالشك ، وجرنى نعاسٍ خفيف إلى حلم لم يكتمل : «كنت فى ساعات ذلى أتخيل وجهاً ينقذنى من طفحات آلامى وأوجاعى ، ثم اعتدت - بمرور الايام - أن أسأل هذا الوجه ، أعاتبه ، وأكفر به أحياناً ، غير أننى تبينت بأن الوجه صار يتحدانى ، وأن فى السحب المهملة العتيقة كانت ملامحه تغالب هذا الفرح المنسى . . »

الوجه يسألنى أن أهرب من تلك القاعة المريبة ، ومن جابر الحسن . نسيت فى زاوية من الزوايا ، الفرح الدافىء الجميل ، كان الوجه نقياً ، أعرفه فى الحلم اليومى ، فى عيون الأطفال ، أشمّه فى الخوف ، أسأل نفسى رغم قناعاتى .

- ترى من يكون هذا الوجه النبوى ؟ لماذا أحسّه معى دائماً ؟ أعشقه . . كيف ؟ أهجسه يطارحنى الحب فى كل ملليمتر مربع من جسدى ، يدخل فى خفايا الوطن اللحمى و[illegible] المتعة والخلاص .

عندما كنت صغيراً ، سألت بدرية الخ[illegible]ن تكون أمى ، فقالت :

- أمك ماتت ، لم أكن أعرفها جيداً

ترى هل كانت أمى هى الوجه الذى يتسلل نحو أعماقى :

- وأبى ؟

- أبوك الذى تسأل عنه : يسمونه جابر الحسن ، ليس له من عمل ، لكنه يملك مليوناً من الدنانير ، ورصيداً فى كل مكان ؟ ومجموعة من النساء ، إحداهن هولندية وأمك كانت الواحدة بعد المائة ، إن لم تكن بعد المائتين !

قلت كأنى أتوهم النظر إلى وجه معروف :

- جابر الحسن !

ترى هل كانت أمى : هى الوجه الذى يزورنى كل ليلة ، وفى كل حين يلمسنى الذعر فيه ؟

- أنت واحد من أطفاله المشردين الضائعين فى كل مكان !

لم يعد الوجه معى ، كان بعيداً عنى ، فتوهمت أن ثمة ما يشبه النيازك راح يهبط فوق جلدى ، وأن حياتى لم تعد ملكى ، هناك الكثير مما أحسّه وأغفله ، إذ أنى أتأطر فى مساحة ضيقة حدّ الكبس القاطع . . أرانى ممتداً من الشمال إلى الجنوب ، ازداد توهماً أن تلك النيازك تجلدنى ، وأننى أتحول شيئاً بعد شىء إلى نثارات لحمية ، كأنى لم أعد أملك نفسى ، وأن عينى هبة لجابر الحسن ، أنفى ، رقبتى ، مساماتى المغلقة منها والمفتوحة ، بل وإدراكى أيضاً . . .

كل شىء لى ، صار فى لمحة عين مسحوباً لهذا السر اللغز ، وكنت دون رفيق ، أتلوى من ألم أقوى من كل السنين ، فى أوقات سكونى وطفولتى أصرخ :

- أين أنت أيها المنقذ ، أجبنى أيها الوجه الذى غامر في زيارتى ، أين تراك تختفى الآن ؟ . .

كان الوجه لصقى ، فابتهجت به جداً .

لا أدرى ماذا يفعل بى هذا الوجه النبوى الصافى ؟ كنت قد غفوت على بزوغه الطالع من تجاويف القلب ، وكان علىّ أن أخفى شيئاً من ألمى كى أستعد للتموجات التى أحسّ ارتفاعها فى صدرى .

- ياهذا الوجه الذى أحبه : ماذا كنت أفعل من دونه . . ماذا كنت من دونه ؟

خمنت أن ثمة مفاجآت لابد أن تغيرّ مجرى حياتى فى ليلة ما ، فى فجر ما ، فى فجأة ما . .

قلت بهمس خجل :

- لماذا ياسيد جابر ؟

ردّ علىّ ضاحكاً :

- لماذا عن ماذا ؟

يتسلقنى إحساس بالمرارة - فتشتُ عن الله فى منزلقات وريدية ، كنت بحاجة إليه علّه ينقذ هذه البقية القليلة من كبريائى ، فتشتُ فى منحدرات تشبه صفحتى البالونة المملوءة بالغاز ، فوقعت إلى أدنى حال ، ولمست فى لحمى فورات من ألم كالسم وسألت :

- لماذا فعلت بى ذلك ؟

ردّ علىّ ضاحكاً :

- فعلت ماذا ، ومتى ؟

كدت أبكى ، كان الذى يسمونه جابر الحسن يردد فى أعمق وجدانى : إنك بارد ، ساقط ، ميت ، أحس نفسى وحيداً ، قاومت تشنجات أوردتى ، والتفت إلى الخلف دونما سبب ، عندها تأكدت ان خادمه غير موجود ، وأن القاعة فارغة من أىّ حليف ! رفعت عليه السكين . .

كنت أريد قتله فى الحال ، وأخلص من زعيق دواخلى ، من التعب الذى دمرنى فى سنى طفولتى ، لكن عينيه تسلقتا كبريائى فأنزلت يدى وعينى . . عدت إلى أزمنة مسحوقة ، أدركت عندها أن أول انسحاقاتى ، وأول خوف أحاطنى ، كانا فى ليلة السابع من حزيران : يوم زفّ الله بدرية الحزاينى لتجذبنى من أحشاء لقيطة معتمة ، ثم لتهملنى عند أعلى درجات «الحسينية» علها تشارك فى إخفاء العيب .

لكن بدرية الحزاينى نفسها عادت لتأخذنى إلى غرفة طينية هالكة ، كان فى نيتها منذ السابع من حزيران أن ترانى قادراً على ملء فراغاتها الدنيوية ، أن أكون لها زوجاً ، أنا الطفل الذى جرتنى بيديها ، وأكون لها البديل الذى تبحث عنه بين الرجال ، أعوض حرمانها وانوثتها التى انغمرت فى أسفلها . .

لذلك عوّدتنى منذ السابع من حزيران على أن أركن ما بين نهايتى فخذيها ، تحتك بى ، ليلة بعد ليلة ، تحس بأنها مثل بقية النساء تملك فى دارها (ذكراً) له ما لغيره من الذكور . . استيقظت آلاف المرات ، ونمت آلاف المرات بين الفخذين ، فكان المهبل العانس محدق لعشر سنوات حقيقية ، وكان الفخذ فراشاً تحلم فيه نيابة عنى ، والفخذ الثانى لحافاً أتدفأ به !

صرخت دون وعى منى :

- أيتها المومس الطيبة ، أجيبينى : أين مكان الله ؟ انى بحاجة إليه ، ليس ثمة منقذ يا بدرية ، أحتاجه الآن جداً فأنا دون رفيق !

تسرب فوقى هواء بارد ، تسرب تحتى ما يشبه التيار الكهربائى ، فهزّنى جداً ، همست بأنى غير ملتصق بشىء ، وأن هيكلى بدا منزوعاً عن كل شىء ملموس ، فطنت إلى جابر الحسن . وذهلت . لم أعِ كيف تمكنت من نسيانه ؟ أترانى توهمت ذلك - لا أدرى - بيد أنى سألته بتودد :

- سيدى ، إننى أسأل نفسى : لماذا كنت أخافك منذ العاشرة ؟ حدق فى عينىّ طويلاً ، وقال باتزان أخجلنى :

- إنها بدرية الحزاينى ، تلك القابلة المضحكة ، بذرت فيك الخوف دونما سبب !

لم أسمعه جيداً ، فقد تسرب فوقى الهواء وتسرب تحتى تيار أقوى ، فرحت أعوى مثل كلب :

- أريدك أن تموت ، لابد أن تموت ياجابر الحسن ، لن تكون ثمة حرية لى مادمت موجوداً ، أريدك أن تموت ، بل أرجوك أن تموت الآن !

ورفعت عليه السكين ، غرزتها إلى جانبه ، ولسوء حالى توهمت بأنى غرزتها فى القلب ، لكنى سرعان ما هدأت ثانية ، وقلت بهمس متعب كأنى انسان آخر لم أعرفه :

- ماذا تراك تعمل ؟ سمعت أنك تملك أشياء جميلة لم نتعرف عليها .

ردّ علىّ ضاحكاً كما فى كل مرة ، وكان قد أبعد السكين إلى ماوراء الجانب الشرقى من القاعة . .

- يالك من ولد منهك ، ماذا فعلوا فيك ياترى ؟ لقد أتعبوك حقاً ، ليست هذه حالة معقولة ، ماذا تراهم فعلوا ؟

صرخت به :

- من ؟ من هم الذين تقصدهم ؟ إننى بلا أحد ولم ألق فى حياتى من أتعبه أو يتعبنى . .

مع ذلك كان جابر الحسن مستمراً فى حديثه ، وكأنى لم أقل أى شىء :

- بماذا أوهموك يا صغيرى ؟

راح يردد فى أذنى عدة مرات وهو يضحك :

- بماذا أوهموك أيها الصغير ؟ بماذا أوهموك ؟

هجسته بعيداً عنى ، كان صوته يأتى من أعماق مسحوقة لتأريخ لم يكتب ، ثم . . كان ما حدث فى تلك الثوانى أعجب من قدرتى على تصديقه ، وأقوى من قوة احتمالى عليه : إذ انى ابتهجت لشىء غريب تسلل تواً فى أعماقى ، نزوع بنوى إلى فرح عظيم ، رجوع إلى الطفولة ، لهيب أبيض أحمر أو رمادى يمر من بين عينى يحيل كل شىء إلى فرح هائل ليس له جذر حقيقى ، وليس له سبب معقول ، كدت أبكى من الفرح ، دون أن أعى سرّ هذه الهواجس الدفينة التى فاجأتنى توا ، تبينت أن الوجه الذى أحبه جاء ينقذنى ، بينما جابر الحسن يطيل التحديق فى أعمق ما يمكن لعينيه أن تصلا إليه . ، وراح يردد من خلف ريح بارد مرّ بنا .

- ماذا بك يا صغيرى ؟ أعترف لك : لست أول واحد منهم ، لكنك قد تكون آخرهم ، أحسّ عذابى فيك ، سمّنى أول اسم يجىء على رأسك المتعب المسكين ، قل إنى أجرمت بحقك يا طفلى ، لكن إبعد عن عينيك هذه السحابة التى قتلتنى . . اهرب منى وتعال إلىّ ، أنا جديد عليك ، وخائف منك خوفك منى قبل يومين أو سنتين ، خائف . خائف . خائف . . خائف ؟

تدوى فى القاعة ، تعاد مع الصدى الخفيف ، أحسّ لها طعماً روحياً لم يخلق إلاّ فى رأسى ، وأختفى وراء اصابعى ، أصرخ فى كل مرة : يكفى . يكفى . . .

وعلى عكس ما أحسست به ، كان جوابى غريباً لم أعه ، فقد فشلت فى إخفاء الوجه من ذاكرتى ، وهمست :

- إننى خائف جداً ، كان علىّ أن أعى أن خوفى ليس منك ، ربما كان خوفى من أسباب أخرى ، أحسّ نفسى قوياً فى هذه الثوانى ، وأن خوفى الحقيقى قد يعود إليك ثانية ، وبسببك أنت نفسك !

نظر إلىّ وقرب حاجبيه ، قائلاً :

- لماذا ؟ كيف ترى هذه الأشياء المعمية ؟

قلت ولم أكن منتبهاً إلى شىء خاص :

- جسدى ينفصل إلى قطعتين ، خائف ، خائف يا سيدى ، كما لم أعرف الخوف مطلقاً .

قال لى :

- اسمع ، لم أتبين رعباً فى وجه إنسان كما أراه الآن فيك ، ماذا بك يا ولد ؟ حاول أن تصل إلى إحساسك النهائى ، أن يكون خوفك منى أم من شىء آخر لا أعرفه أنا ، ذلك ما يهمنى جداً . .

قلت كأنى أحكى عن جوعى إلى إنسان لا أعرفه :

- يارب . . أحتاجك جداً ، لقد فقدت كل شىء

* * *

ثم كفّ جابر الحسن عن النظر إلىّ ، لكنه لم يكف عن الرواح والمجىء فى مساحة مترين ، أهجسه يتكلم ، بينا فى أوردتى يتشعب الذل ، تتناثر الكتل البكتيرية حول مدارات أتوهمها وحدى . .

رفعت رأسى إلى أعلى وصرخت بهمس مبحوح :

- يارب .

كان الحسن قد تكهن أن الله بالنسبة لى مثل النهر ، أو مثل الماء النقىّ ، رحت انظر إليه بدقة : «عينان تلتهبان بالذكاء ، ماوراء البؤ بؤين ألم يلتف بالسواد العسلى ، أنف مفروش عند نهايته ، يوحى بالشر ، كأنه تنفس أكثر من حقه من هواء العالم ، أما الشفتان فكان فى ممراتها انقطاع رقيق يوحى بالحب» . .

فى أماكن منحدرة من جسدى ، ترسبات مائية أحسّها تندلق ذات اليمين وذات الشمال ، تجعلنى أتأمل انتهائى بسهولة ، ازداد يقيناً بأن هذه التوهمات آخذة بالتعمق فى عقلى ، تنسل من خارجى وتمرق فى الروح ، تهزنى بعنف ، أنا الذى تبرع أن يكون مختبراً للعاطلين عن الحب ، وتجربة مجانية لكل من تجزأ عن كرامته ، أزداد إيماناً بأنى خسرت ، وأن هناك من تمكن من إغراق هذا الجسد النقىّ .

ثمة فى الداخل ، ما يساعد جابر الحسن وبدرية الحزاينى على ايقاف هذه النفس ، وانهاء دورها وسلوكها ، دون أى إحساس بما يخلقانه فى ذاتى من حقد يجعلنى واحداً من اثنين : إما قواداً عَلى حقيقتى ، قانعاً بما يحكمان به على حياتى ، أو حيواناً أخرس لا أعى ثقل المساوىء التى تفاقمت عند رأسى وأوردتنى هذا السكون المدمر ، الذى أتهالك فيه وحدى .

قال جابر الحسن بهدوء :

- ليس من السهل أن تفهمنى ، أتيت ملتهباً كأنك تمنيت مكانى مسبقاً من نفسك ، فكيف لى ان (اتبناك) وأعى مايدور فى ذاتك المستحيلة !؟

قلت مثل طفل يدافع عن شرف دمية يملكها :

- إننى عاقل جداً ، هذا ما أحسه على الأقل ، تحركت إلى اليسار ، رأيت عينيه ، فقلت بشىء من التهكم :

- تقول «أتبناك» وكأنى جئت أشحذ منك الأبوة . .

خفتت حنجرتى ، كنت أعى جيداً أن ملامحى أصابها الخجل ، ردّ علىّ ضاحكاً :

- أيها الولد المضحك ، ماذا تفعل بنفسك ؟ ماذا تفعل بى ؟ حدّقت فى عينيه بجرأة ، كدت أغرق فى قعرهما ، سمعته يهمس فى أذنى أو ربما توهمت انه يتكلم ، حين أوشكت على اجتياز حالة الحذر الباهتة ، ماراً بها إلى حالة من نعاس طفولى . . فطنت إلى نفسى كأنى أهجس صوته يتغلغل فى صميمى :

- قبل أن تدخل بوابات الروح البشرية عليك أن تعى من أنت أولا ، ومن أين أنت ؟

حين أجبته بوقار ، كنت لم أزل فى حالة من نعاس طفولى :

قبل أن تسألنى ، تأكد من نفسك يا سيدى : من تراه يضمن حديثى إذا فشلت !

تفشل فى ماذا ؟

قلت كأنى أتدفأ فوق نار :

إذا قتلتك هذى الساعة ، أعرف أنك لن تموت ، وأنك باق فى هذا البيت ، تأتيك نساء الكون : المجرمات منهن والطيبات ، ويخرجن منك ليفرزن واحداً مثلى .

رفع هيكله دون حذر ، والتفت إلى الوراء ، وهو يقول :

واحد مثلك أنت ، لقيط يعنى ؟

كأنى سمعت الحروف تعانق شرياناً منقطعاً من جسدى ، عدت إلى صجوى ، فرأيت عينيه تنطقان بما لم تنطقه أيما عينان . هجست أنى فشلت فعلاً ، قال لى :

ماذا تحب أن تفعل ؟

رأيت - وقد تنقلت عيناى فى أرجاء القاعة - دورقاً زجاجياً وثلاث قنانى فارغة ماركة «وايت هورس» ، ونعلان من ايران وعمودان مذهبان بالورد المستورد ، ومجموعة من العبارات الدينية المزخرفة ، إطارات فارغات معلقات دونما سبب عند واجهة القاعة ، ثم عظمتان وجمجمة يتحركان فى الداخل لم أنتبه إليهما عند أول وهلة ،

لأنى كنت فى حالة مائجة محشوة بالهذيان تخللها الحزن والإغراق فى الالم . .

قلت : ماذا تريد أن أفعل ؟

نفث بوجهى دخان سيجارته وقال :

أنا الذى يسأل وأنت الذى يجيب .

كان جابر الحسن قد آلمنى . كأنه تمكن من إعادة نفسه التى أرهبنى شكلها فى الماضى ، حتى أن جوابى كان باهتاً وحزيناً .

اننى أفعل ما تريد ياسيّد جابر .

عينان تلتهبان بالذكاء ، ألم غارق وراء السواد العسلى ، شفتان تجمعان الذعر والرغبات ، أنف يذكرنى بتأريخ عريق للإنسان ، تمتم مع نفسه : (لا أريد اسمى ناقصاً) . .

* * *

فى جانب خفىّ ، هجست عيوب الماضى ، جرثومة بدرية الحزاينى تمر بأروقة لا ترى بالعين ، المرض الذى كنت أخافه تسلّل فى تلك الاروقة ، تمكن من أعضائى حتماً . .

صرخت ، كسرت كل زجاجة رأيتها ، كنت دون رفيق يحمينى من الذعر لذا رأيت نفسى : أبكى عند كسرة من زجاج ، أبكى عند صفحة نظيفة من حذاء أسود ، أبكى عند آية قرآنية ممسوحة ، ثم وقعت عند نهاية الكسورات كأنى تعمدت بوعى ملحوظ أن أحمى نفسى من تلك النثارات الجارحة ، عندها كانت يدى تتلمس مكان الجرثمة ، التى اجتاحتنى منذ السابع من حزيران .

اكتشفت فجأة أن جابر الحسن قد انزوى فى جانب من القاعة ، ربما كان حقيقياً ما رأيت فى تلك الثوانى ، فقد تهيأ لى أن السيدّ كان يبكى ، نظرت إلى عينيه (كانتا قد فقدتا ذاك الوهج الغريب) فنظرت ثانية إلى عينيه : كانتا تغرقان فى بله لم أصدقه ، صرخت من أعمق وجدانى :

– لست أبى ، ولن تكون أبى ياجابر الحسن ، انك تبكى ، وهم يقولون : إن أباك قوى جداً ، لست أبى إذن ، لست أبى . . .

نظرت مرة ثالثة إلى عينيه : «كان وجه جابر الحسن قد تسلّل خلف أصابعه ، ثم ابتعد إلى الوراء ، صارخاً ملء حنجرته : لقد كشفتنى أيها الولد العاق . .» . .

– تخيلت النيازك تمطرنى بالموت ، بقايا طفولتى إرتسمت عند قمة رأسى ، وابتعد الوجه المنقذ ، شعرت أن حاجتى إليه قد انحلت عن تركيب هيكلى ، أننى أملك نفسى الآن ، لم يعد الخوف جحيمى الذى خبأونى فيه ، أدرى أن الوجه الذى أوهمت نفسى به كان من خرافات عقلى ، وأن عشقى لكذبة أحملها فى حياتى ؛ هو الذى هيأ لى وجه منقذى ، وأننى الآن خال من هذا القيد المجانى الخرف .

أحمل وجهى ، وأحكى عن جوع الماضى ومرارته ورعبه ، كان جابر الحسن ما انفك يصرخ عالياً :

– كشفتنى أخيراً ، أيها الصغير اللعين !

نظرت إليه بعنف لم أجربه فى عينى ، كان يصرخ ، يعوى :

– إننى أرثى لك ما اكتشفت ، أرثى لك أيها المسكين . .

كنت أسأل نفسى :

– ماذا ترانى فعلت ؟ اننى لم أفعل شيئاً . .

كان هدوئى قد عاد إلىّ ، أيقنت بأنى أتمزق بين حالتين لم تنفكا عنى منذ أول يوم عرفت فيه جابر الحسن ، كنت قد رفعت السكين واقتربت منه .

خبأت عينى خلف أصابعى ، وفتحت منفذاً أُفقياً بين الأصابع ، رأيت من بينه الدماء تتوزع فى أرجاء القاعة ، بينما كان الخادم يضحك عالياً بلزوجة دبقة ، راح بعدها وقد فطن إلى نفسه ينبح دون إدراك :

– لكنه أبوك ياأحمق ، إنه أبوك . إنه أبوك . .

خرجت من مشتل السيّد جابر الحسن . . رأيت الحارس ، قال وهو يرش أرض الحديقة :

- تقبل اعتذارى ياولدى ، كنت أظنك واحداً ممن نعرف ! .

وضحكت بقوة . ثم انحدرت إلى شارع جانبى ، أنتظر الفرح السىء ، انتظر الخوف الذى صار يحمل وجهاً جديداً علىّ . . لكننى كنت أبكى أو تهيأ لى ذلك ، فقد كنت أحمل منديلاً متسخاً بالماء والدماء ومتسخاً بوجهى الجديد .

العراق : عبد الستار ناصر

عبد الحكيم قاسم | شجرة الحب

● الأم

بائعة البلح . امرأة شامخة ، أثيثة الشعر ، تكاد تدرك غدائرها عجزها . عيناها صحنا عسل ، شباكان مفتوحان على المتاهات الغريبة . وهى امرأة لينة الصوت مبتسمة ماكرة .

يقولون إنها متاع متاح ، وأن من له زند حبل وقلب جسور ، قادر على أن يجتنى شهدها . أما هى فإنها ميادة ، تدور تنادى على بضاعتها ، تملأ القلوب بالحنين ، إذا عبق الكون بغبار فضى واستضاء القمر وترقرق الأسى كالحرير لا منطلق له ولا مستقر ، ونامت الظلال السمراء على اخضرار الضوء فى الحارات . حينئذ يسمع وقع قدميها . ومن الرؤى المنسحبة إلى أبعد الأغوار يأتى صوتها .

يامن يجيب القنانى يابلح . .
ياخد العسل منك . .

إذ تخلد الأشياء حولها للسكون فى غرفتها ، ويتكسر ضوء الصباح الشاحب على بلادة الجدران الطينية فى هزيم مكتوم ، تنزع عنها قميصها . تلصق على قمم الأكتاف الناصعة الرخصة العرقانة ذوائب من دفقات الشعر الليلية السواد . العينان جناحان محلقان اشتياقا . الثديان فريدان ناعمان ناعسان مكدودان انتظاراً .

أحشاؤها تنوح شوقاً . تقتم عيناها عذابا . تحلم برجال ، وجوههم مذبوحة بخطوط الدموع على صدرها ، تسقى حرقتهم من بئرها ، تخبىء مخافتهم تحت جناحها . الظلال السمراء على الحيطان تسقط هاماتها مذلة وكمداً .

حين يتسلل ضوء الصبح من الشقوق عيوناً طفلية ملتصصة خائفة . تلقى قميصها على نفسها . تقوم . تخرج إلى النهار . تعانيه إلى المساء . المساء الريفى فى قيعان حارات مفروشة بمربعات الضوء القمرى الأخضر . على واجهات دور طينية تتهدل عليها ذوائب الحطب ، تنصت لخفقات الشبشب على تراب السكة .

تنادى على بلحها . تغنى لبلحها . تغنى أشواقها . الحنان الذى بلا حدود يعمر قلباً وذراعين رخصتين ممتلئتين .

* * *

● الولد

لم يودع قدميه أبداً صون الحذاء ، مفرطحتين غليظتين ، علمتاه السير الجسور . يسير وسط الطريق ، لايتسكع جنب الحيطان ولايتخذ سكة مطروقة وطأتها له من قبله الأقدام .

لم يرتد طول عمره سوى جلباب وحيد مهلهل لايدارى من جسده شيئا . لم يتعود لحمه رفه الخزن تحت طيات الثياب الثقال . جلده أسمر خشن جاسر مثل ظاهر اليد وباطن القدم . جسده لم يعرف الخجل ، أو الرجفة من اللمس ، أو التهيب من النظرة ، معروض على العيون كالكلمة الوقحة العارية الجارحة الواضحة المقاطع والمقاصد .

لم يصدق أن فى الليل عفاريت . ليله لم يكن أبداً غرفة دفيئة مضاءة محكمة الإغلاق . لم يهدهده للنوم صوت حنون مرتجف بالخوف يحكى له الحكايا . كان ليله دائما عاريا شاسع الجنبات فارغاً ترن فيه الأصوات كما ترن فى علبة من الصفيح ، ليلاً بلا مخاوف وبلا أحلام نجماته مرتجفات تحدق فى دهشة وغباء .

وكلما اجتمعت حلقة العيال فى المساء ، وانشغلت قلوبهم بالمخاوف ، وتعذبت ملامح الوجوه وتفنجلت العيون مبهورة برؤى موهومة ، كان يجلس بينهم وحيداً ، خوفهم لايصل قلبه . يتلفت حواليه متسائلا أبله غير مصدق . ثم ينهض كاسرا إطار عزلته يغرق فى صخب اللعب حتى يسقط العيال حوله إعياء وهوأطولهم عنقاً وأعلاهم صوتاً وأكثرهم توحداً . يضرب ، يشتم ، يخالف ، يجرب أكثر الأشياء خرقاً ، والعيون حوله ترمقه إنكاراً وتخوفاً ، وهو تطوقه الوحدة إلى الاختناق .

وحينما يوغل المساء يثوب العيال . يعودون إلى الدور فى قيعان الحارات ، إلى غرف تضيئها مصابيح راقصة الشعل ، وتملأها أنفاس دافئة وروائح دسمة ، أو ربما منتنة زخمة . يضحك . فهو لا يعرف الرجوع . داره حيث يقف يدق قدميه . وحيث يريح ظهره غرفته . وفراشه مصطبة جنب جدار فى جوف ليل شاسع نجومه خرساء لا تقول .
يغمض عينيه ، لايخاف ، لكنه يشتاق لويدخل فى كن دافىء حنون . لويدفن وجهه فى صدر ملىء بالحب . لو يجرب الاحتضان . لو تحيطه ذراعان سمينتان تضمانه . لو كانت له أم تسخن أنفاسها على رقبته فى الليل . آه من وحشة اليتم . تنحدر دموعه سخينة .

● شجرة الحب

- ماهذا ياولد . . ؟
- سجرة الحب . . !

الكلمة هكذا ، من غير ثلاث نقاط ، ثاقبة جاسرة غريبة . نظر العيال إلى وجه الولد مذهولين . صَعَّر هو خده لهم وشمخ بأنفه عليهم . تحلقوا حوله ، عيونهم معلقة بجبينه . يتدافعون يتزاحمون يريدون أن يعرفوا ، وهو قائم بينهم كتمثال معبود . هتف واحد من العيال ملهوجاً مشروخ الصوت :

- وكيف . . ؟

تقدم الولد إليهم برصانة المعلم . انبعجت حلقة العيال منفسحة تجاه خطوته . أخذ التقية الصوفية الحمراء من على رأس الصغير :

- هكذا . . !

كوَّر التقية فى قبضة يده اليمنى . استل منها ثنية صغيرة بين أصبعيه . أراح مؤخرة رأس الصغير فى كفه الأيسر أقبل على الجبين يحكه بثنية الصوف . صنع فيه سحجة مستطيلة تمتد مما بين الحاجبين صاعدة حتى منبت الشعر تتندى بسائل شفيف يميل إلى الاصفرار .

وإذا كان قد انتهى فإنه طوح بالتقية التقطها الصغير وهو يتحسس جبينه الملتهب غير فاهم شيئا . داخ العيال بين الجبين المشجوج والولد المبتسم فى استعلاء وعيونهم مفنجلة دهشة . يسألون :

- ولا شىء أكثر . . ؟

وفى الصباح كانت السحجة قد طابت وصار لونها بنياً قاتما . وفى الصباح كانت جباه مشقوقة بسحجات بنية تمتد مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر . على كل جبين شجرة حب . وجوه عالية الأنوف مجتمعة ماضية . تحلقوا فى الأماسى يتكلمون فى عذوبة القمر أصواتهم رصينة وأحاديثهم شجية عن :

- سجرة الحب . . !

الكلمة رائعة . والحب صوت ذو أصداء مبهمة آتية من آفاق ضبابية محاطة بالمخاوف والارتجاف . ارتجاف يود القلب - من وراء الوعى - أن يستعيده ، يجتره ويستطعمه .

● عن الرجال

وجوه العيال حيثما نظرت نحيلة رقيقة شاحبة غضة . عيونهم واسعة دعجاء كثيفة الأهداب تملأ القلوب حنانا . لكن الجباه إذا تشق بهذه السحجات البنية ، إن الرجال إذن يرتابون ، تغيم آفاقهم بسحب الخوف .

وحينما تسخن الشمس فى الضحى ، وتتلوى البهيمتان تحت النير فى محاولات أليمة ، وسلاح المحراث يشق الثرى الهش ، والرجل من فوق كل هذا يترنم بسوطه فى الهواء قادراً مسيطراً .

وحينما يترقرق ضوء مصباح الكيروسين الملمع الزجاجة ساجياً حالماً متعالياً على صخب وسط الدار فى العشية وقد تحلق الجميع حول قصعة الطعام متربعين ، والأب الكبير فى الصدر كتفاه عريضتان عاليتان ممتلئتان قوة .

وحينما تسكن كل الأشياء فى قلب الليل ، وتعبق الغرفة برائحة عرق أجساد النائمين المفروشة على ظهر الفرن ، وتتردد

الأنفاس فى نظام مستسلم مريب بعيد الغور . حينئذ تترقرق فى قلب الزوج ، فى الفراغ المكبوس بالظلال رغبة كالخاطرة الحزينة . يمتلىء خوفا تتسلل يده إلى امرأته ، تزحف على وركيها من تحت الثياب الثقيلة الوسخة ، مثل أرجل الحشرة تزحف الأصابع على طراوة اللحم . لدانة ساخنة مطاوعة ميلولة مخبوءة تحت طيات تكتم خائف متأثم .

الجباه المشقوقة بتلك السحجات البنية مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر ، فى ضحى الشمس الباهر ، فى ضوء المصباح الساجى ، فى ظلام الغرفة العابقة برائحة عرق الأجساد ، فى كل وقت وفى كل مكان ، يخرجون من كل ركن وجوها طفلة ، يدفعونك ، يحاصرونك ماكرين عارفين قساة لايرحمون ، تبرق عيونهم جسارة .

- يسأل الرجل متحشرجاً :

- ماهذا ياولد . . ؟

ويأتى الرد معاجلاً وقحاً جسوراً :

- سجرة الحب . . !

لم تعد لأحاديث الرجال طلاوة ولا للضحكات أصداء مجلجلة . وكثيرا ما يرين الصمت على المجلس وتصّاعد الزفرات . وكثيرا ما تسمع لعنات وكلمات سوداء . الخواطر مؤطرة بالمخاوف . تضطرم فى الصدور على العيال مشاعر حاقدة ، مشاعر ذئبية .

● معلم الصبيان

يعصف به الغضب إلى الجنون . يحس ألما ثعبانيا يتلوى فى عروقه ، سرطانا ينهش فى خلاياه . يغمض عينيه . يصر على أسنانه . يكاد يسحق قطعة الطباشير بين إصبعيه . يلتفت إلى العيال صارخا . هؤلاء الكلاب ، إذ يستدير لهم يخرسون ، تتطلع إليه صفوف وجوههم النحيلة الشاحبة وصفوف عيونهم المفنجلة بالذعر والبراءة . يجتاحهم بالعصا يمزقهم تمزيقاً . يولولون أذلاء غارقين فى الدموع . تملؤه النشوة والارتياح وتفتر شفتاه عن بسمة مهتزة مترددة . يستدير إلى السبورة تاركاً صفوف العيال فى حراسة الخوف . لكنهم يعودون هؤلاء الكلاب إلى ذلك الهمس . مايكاد يدير لهم ظهره حتى يسمع الحركات الغريبة واللفظ المكتوم .

الحقائق بالغة البساطة والجد ، وتلك الخطوط السمراء فى الخرائط المعلقة فى الحيطان إنما هى أنهار وجبال ووديان . وفى تلك الناحية من الدنيا ناس ذهبيو الشعر ، عندهم قطر كهربائية مارقة وطائرات كالرعود . يشرح المعلم ويعيد الشرح ، لكن العيال لايفهمون . كلاب جرباء . يمرغون عقولهم فى أكوام السباخ . تفترس دماءهم ديدان البلهارسيا التى تتسلل إليهم من أقدامهم الحافية تماما كما هو موضح فى اللوحات المعلقة . لكنهم لايتعلمون . يلغطون خلف ظهره ويلهون بالضحكات والدسائس .

يخرج المعلم . يتمشى فى العصارى وإلى جانبيه مساعداه . يلقى السلام على الناس ويرهف قرون استشعاره يتحسس الكلمات وملامح الوجوه والنظرات فى العيون . أترى يبجله الناس أم يسخرون منه ؟ بماذا يهمسون خلف ظهره ؟ ماذا يحكى العيال لأهلهم عنه ؟ يحكم جبته السابقة حول جسده ، الجبة العظيمة التى لايتخلى عنها أبدا .

يكره مساعديه ، ذلك الطويل المنحنى ذا الغليون الذى لا يخرج يديه من جيبى بنطلونه أبداً ، وذلك القصير التائه النظرات الذى لاتكف شفتاه عن الارتجاف بالتسابيح . لو كان معه مدرسان أفضل لكان استطاع أن يصنع شيئا من هذه المدرسة التى هى حظيرة قميئة قابعة وسط أكوام السباخ .

الليل الريفى ترتجف فى قيعانه الهمسات الغامضة . غرفة المعلم كثيبة الحيطان . زجاجة مصباحه مطموسة بالسناج . وقف عاريا أمام مرآة الدولاب العتيق . ساقاه رفيعتان مقوستان وكرشه كالقربة وضلوع صدره ناتئة وساعداه متدليان هزيلان . جسد حربائى . أسدل على نفسه جلباب نومه . مشى إلى سريره . أحكم اللحاف حول نفسه . يحدق فى ظلام الغرفة خائفاً .

● يوم غير مجيد

فى ضحى ذلك اليوم كان المعلم القمىء المتغضن الوجه يحس بإحساسات مجيدة ، حينما وقف على سلم المدرسة الوسخ المتآكل وإلى جانبيه مساعداه .

فى الباحة الصغيرة قدام المدرسة تحت ناظريه امتد صفان من العيال ، رثين مهلهلين تقف وراءهما أكوام السباخ . على البعد وقف الآباء ينظرون . وفى الفضاء صمت معلق متدل مثل حبل المشنقة .

نزل المعلم الدرجات القليلة متمهلاً . عصاه الطويلة فى يده . وقف بين صفى العيال . صرخ فيهم . وهو يضرب الأرض بالعصا :

- فليخرج من الصف من على جبينه شجرة حب . . !

الصفان يتلويان فزعاً . العيال يتزاحمون . يتدافعون بلا نظام . الأيدى تجتمع فى ظهر واحد لتدفعه خارج الصف . ثم واحد وواحد وواحد . تجمع المذنبون مقعين حول قدمى المعلم مرتجفين صفر الوجوه مشجوجى الجباه بسحجات انسلخت عنها قشرتها البنية وانتثرت عليها رقطات بيضاء محمرة .

إرتعد جسد المعلم بغضب عارم . رفع عصاه إلى أعلى وانهال بها على العيال يمزقهم تمزيقا . تشق العصا الجلابيب الرقيقة عن الأجساد الطرية وتذبحها ذبحاً . الصراخ يمزق الصمت المعلق . الوجوه الطفلة معجونة بالرعب والدموع .

تأمل المعلم كومة العيال ترتعش محمومة وتتخبط عمياء عند قدميه مثل كومة قطط وليدة . إستجمع أنفاسه المبهورة تعباً ثم بصق عليهم واستدار صاعداً درجات سلم المدرسة القليلة الوسخة .

فى ذلك اليوم استدبر المعلم العيال ليكتب الدرس على السبورة ولم يسمع وراءه لغطاً . لكنه كان كل حين يساوره الشك فيلتفت إليهم فجأة وبكل سرعة يريد أن يضبط التعبير المرتسم فى عيونهم المسلطة على ظهره . فى كل مرة كان يرى الرعب ملء عيونهم فتهدأ شكوكه إلى حين .

● ثمالات أحاديث

شجرات الجميز متباعدات على شطئان الترع ، أمهات قاعدات هنا منذ الأزل . شجرات الصفصاف دلت غدائرها فى الماء عبر غبش جاثم على السطح الصقيل . الحقول امتداد شاسع من عيدان ناعسه . على الأوراق تحمل من أوائل الندى . الكون صفاء شفيف . كومة البيوت سوداء عند الأفق ، كومة جرداء ساكنة فى حضن كلبة أم .

مجالس الرجال فى الأماسى الحزينة . الملافح أحكمت حول وجوه حددتها السنون . إنعكست جمرات الموقد المحتضرة على العيون الخابية . نبشت فى التراب أصابع معروقة مثل مخلب طائر نافق . ياللتراب ، مصنوع من آلاف القلوب التقية ، وآلاف القلوب الشقية ، التى ملأها الحزن ، والتى إستخفها السرور . لاجدوى . القدر لايرد . لاغناء فى السؤال أو الإلحاح فى الجدل .

توزعت فى الحارات تحت القمر بضعة ظهور محنية ، وخفقت نعال الآيبين على الثرى خفقاً مغرقاً فى الوحشة . فى الغرفة فتحت امرأة وحيدة عينيها على الظلام . المساء ، الجوى وأنين الأحشاء . ليس أكثر حرقة من دموع امرأة وحيدة .

غنت البائعة نادت على بضاعتها :

يابن الطويلة بابلح . .
ياهز نخلتنا . .
خسارة فى التراب . .
ياناير . .

الليل الريفى مئة ألف نجمة مرتجفة ، مئة ألف عين عمياء ، مئة ألف أذن مشرئبة . الطبيعة الساكنة حبلى بالهمسات والوسوسات . ربما هى جنادب تحفر بسيقانها المنشارية فى طراوة الثرى ، ربما هى فراشات غضة تثقب شرانقها أو لوزات تنشق عن نواراتها فى هذا الليل ، ماأشوق كل المخلوقات للصبح ، للنور تزدهى فيه أوراق النوار وأجنحة الفراش .

برلين الغربية : عبد الحكيم قاسم

محمد صوف | صديقي الكاتب

القرار . . . الحملة . . . دوريات الأمن والليل .

حصاد كل من سولَتْ له نفسه مداعبة النسيم المسائى خارج بيته .

الأمر ، جمع كل مار ، كل واقف . كل جالس القرفصاء تحت عمود كهرباء ..

الأمر ، ملء السيارات حتى الاختناق . . .

الأمر ترك البحث عن الهوية والبت فى إطلاق السراح أو عكسه للسلطة المختصة .

تنفيذ !

صديقى الكاتب أعياه الاختناق ، وقرر تلبية نداء نسيم المساء .

نسيم المساء بلسم . وهكذا خرج تلك الليلة ليرى الوجه الثانى للمدينة . الوجه الصامت الذى يرفض ضجيج النهار ودخان المعامل واحتراق البنزين ، واختفاء الوجوه الصاخبة المصبوغة المتعبة . من يلبى نداء النسيم غير شاعر أو عاشق أو متسكع يبتغى رزقا حرمه النهار .

سمع صديقى الكاتب صوتا آدميا يأمره بالوقوف . وقفت السيارة . انفتح بابها ، ووجد نفسه أمام شخص يعطى لنفسه حق السؤال العنيف . وقف ، اقترب من مخاطبه .

ماذا تفعل فى هذا الوقت من الليل ؟

- أتجول .

ضحك صاحبه ، وسأله عن اسمه ثم عن مهنته .

رد صديقى :

- كاتب .

سأل الشخص الذى أعطى لنفسه حق السؤال العنيف :

- فى أى إدارة ؟

قال صديقى الكاتب :

لست كاتبا فى إدارة ما

بادره الشخص بسؤال آخر :

- اذن ، فى أى مؤسسة ؟

قال صديقى الكاتب :

- لست كاتبا فى مؤسسة ما . أنا أديب . أنا أكتب والناس يقرأون .

ضحك الشخص الذى أعطى لنفسه حق الضحك العنيف :

- اصعد .

صعد صديقى إلى السيارة فإذا بها تضج بعدد كبير من هواة التجول . لم يكلم أحدا ، وكبر فى نفسه شعور بالانسحاق . إنهم لا يضعونه فى الخانة التى تليق به . هو ضميرهم ويتجاهلونه . كبر مقتا عند الله أن يظلم شخص مثله . إنهم

يرهقون ، ويهرقون حساسيته ، شفافية روحه ، ومادام كتب عليه أن يتحمل فليتحمل انتشالهم له من عالمه الجميل .

عندما وصل صديقى الكاتب المركز اصطدم بحشد ضخم من الناس ، ولكل واحد منهم حكاية مع الليل ، فوجد نفسه فجأة عاجزا عن شرح أسباب هجرته الليلية من بيته .

وجد نفسه ضائعا وسط عدد من الحالات اختفت معها حالته . ورغم ذلك فقد قرر أن يفصح للناس أنه كاتب وأن تجواله الليلى مصدر إلهامه وأن حظر التجول ليلا قد يقتل فيه الإبداع ويتحملون مسئولية موت عطاءاته ، وبالتالى الفراغ الذى سيخلفه حتما غيابه عن الساحة الثقافية ، وهو الذى يقضى معه قراء الجرائد والمجلات ، والمؤلفات الإبداعية ، أوقاتا ممتعة ، فى المقاهى ، وفى سيارات النقل ، والقطارات .

تقدم شخص يحمل علبة « نيدو » وسأله عن السبب الذى دفع به للخروج ليلا ، حتى التقط من الشارع بحليبه ، أجاب الشخص أن طفله استيقظ صارخا يطلب مؤونته الحليبية ، واكتشفت العائلة الصغيرة أن علبة الحليب لم يبق فيها ما يكفى لرضاع الطفل ، فخرج مسرعا لشرائها ، والنتيجة يراها الجميع .

شخص آخر مسنّ من القدامى الذين يتقززون من مراحيض المدينة . حياتهم القروية عودتهم على قضاء حاجتهم فى فضاء الله الرحيب . اعتاد منذ أن اضطرته ظروفه إلى الهجرة أن يخرج للخلاء فى لحظة حنين إلى الماضى ، وهو فى طريق عودته إلى بيته تلقفه الأمر فالتقطوه . لم يحر جوابا المسكين ، من حسن حظه وحظ أصدقائه أنهم حملوه فى طريق العودة . ماذا لو حدث ذلك قبل أن يعانق الخلاء بفضلاته ؟

آخر استضافوه ، وهو فى طريق عودته من عمله إلى بيته ، وآخر فى خصام مع زوجته ، قرر بدل أن يمارس ساديته على زوجته أن يخرج للهواء الطلق ، فكان أن ندم على عدم خضوعه لأهوائه العنيفة ضمانا لبقائه فى بيته ، وتفاديا لتعرضه لمثل هذه الضيافة .

وآخر ، وآخر ، وآخر . تعددت الحكايات بتعدد الضيوف . سألوا صديقى الكاتب عن السبب الذى جاء به للمكان . لما حكى لهم استغربوا اذ لم يجدوا مبررا معقولا لخروجه فى ذلك الوقت من الليل . عندما قال انه كاتب ؟ اعتقدوا فى أول الأمر أنه يعمل فى إحدى مصالح العمالة ، أو المقاطعة ، أو وزارة ما . لكنه عندما قال إنه يكتب القصص والحكايات ، قالوا عنه « حلايقى » ، متحضر ، وأشفقوا عليه .

اغتاظ صديقى الكاتب من الأمر لكنه كتم غيظه وظل كالآخرين ينتظر الفرج لما سأله رئيس القسم عن مهنته ، رد :

- كاتب .

ظل السائل ينتظر تتمة الجواب . لم تأت التتمة :

- تريد أن تقول موظف ؟

- لا أنا أديب

التفت الرئيس إلى الموظف الذى كان يحرر المحضر وقال :

- اكتب : متسكع

استغرب . آلمه كثيرا ، أنه كان يخفى أمله فى الرئيس ، وكان اعتقاده كبيرا أن من حملوه إلى هذا المكان ليسوا سوى مأمورين ، وأن الرئيس سيتفهم قضيته ، ويفرج عنه . ربما قدَّره وربط معه صداقة .

صمت صديقى الكاتب ودخل الزنزانة التى أمروا برميه فيها ، حتى ينظر فى أمره .

القرار المضاد . الحملة المضادة . تختفي الدوريات . تعود لليل حريته ، ينفتح باب الزنزانة ، ويخرج صديقى المتسكع رسميا ، وفى عينيه ألف سؤال وسؤال ، وفى قلبه وجل من الرد . وأصبح صديقى الكاتب يخاف من الليل وإلهام الليل ، ولكن شيئا فى داخله ألح عليه أن يلفظ خوفه ، وأن يجعل من حكايات الليل أنيسا .

الأنس قاد إلى شوق لليل ، فعاد صديقى يعانق الليل ، متجاهلا خوفه .

ثم حدث مرة أن سمع صوتا آدميا يأمره بالوقوف . استعد للقاء حالات قد تختلف عن الحالات التى صادفها فى حفل الضيافة الأخير عند استعراض الرئيس للزوار الجدد ، سأل صديقى عن مهنته ، رد :

- متسكع .

ضحك الرئيس وقال :

- لأنك قلت الحق سأفرج عنك . حاول أن تلتزم بيتك ليلا لأنى ، لصالحك ، لا أريد أن أراك هنا ثانية . اغرب عن وجهى .

وواصل صديقى الكاتب تسكعه الليلى شطر بيته .

المغرب : محمد صوف

بهاء طاهر

محاورة الجبل

انتميت بالتدريج إلى مجتمع صغير يتكون فى ميدان باب اللوق فى الرابعة عصرا . كنا نلتقى كل يوم خمسة أو ستة وجوه ألفت بعضها بعضا أمام ذلك المحل الصغير لبيع السجائر . وفى البداية كنت آتى أفعالا لا معنى لها أندفع بخطوات سريعةوأطلب من البائع العجوز علبة سجائر . بعد أن آخذها وأدير ظهرى أرفع يدى فجأة وأتوقف ، أو أخبط جبينى بيدى متظاهرا أنى تذكرت شيئا ثم أعود للبائع وأسأله عن الكشف . بعد فترة توقفت عن هذه الأشياء . صرت أذهب فى الموعد وأقف فى هدوءمنتظرا دورى فى الاطلاع على النتيجة . أنتظر مثل الباقين أن أجد يوما الأرقام التى أريدها . لكن ذلك لم يحدث لى ولم يحدث لأحد منهم .

وربما كان خجلى الأول . الذى انتهى مع الأيام ، يرجع إلى أننى كنت أكثر المنتظمين شبابا وتعليما . كانت هناك أولا السيدة السمينة العجوز . هذه تسبقنى دائما مهما بكرت فى الذهاب ، وتهتم بالذات بالورقة الزرقاء التى عليها صورة الحمامة . تلبس باستمرار ثوبا أسود فضفاضا وتربط على رقبتها منديلا أسود له عقدة متدلية فوق كتفها الأيمن . ولم أعرف أبدا إن كان ذلك شارة حداد أو وقاية لرقبتها أو غير ذلك . وكانت أحيانا تشيح جهها ولا تكلمنى . فى أحيان أخرى تقول إنها ترى فى وجهى السماح) فتقبل علىّ متهلّلة وتخرج من صدرها منديلا لفوفاً ، كان أبيض وصار رماديا ، ثم تسحب منه أوراق يانصيب المطوية وتطلب منى أنا أن أكشف عليها . وكانت رواقها مثل أوراقنا : حمراء عليها رأس « أثينا » تعلوه خوذة ، وخضراء عليها صورة ممرضة فوق رأسها طاقية بيضاء ، وأخرى ليس فيها سوى الأرقام العربية فى خانة والإفرنجية فى خانة أخرى تقابلها . وتحتها فقرات من قانون اليانصيب ولوائحه .

أما الأوراق الزرقاء التى تعلوها صورة الحمامة فكانت تصدرها جمعية خيرية فى الإسكندرية ، وهذه هى التى تنتظر السيدة من ورائها شيئا . فبعد أن أكشف على الأوراق جميعها ثم أعيدها لها صامتا تطلب منى باهتمام أن أكشف ثانية على ورقة الحمامة . وكنت أفعل . لم تكن السيدة متلهفة ولا طامعة ولكنها تريد فقط أن تتأكد ، فتسألنى هل الفارق كبير بين رقمها وبين «البريمو» ؟ وكثيرا ما يكون الفارق بسيطا فيسعدها هذا وتتطلع إلىّ منتصرة : « ألم أقل لك ؟ .

أحيانا تحدثنى عن حياتها . أفنت عمرا تعمل فى منزل أحد بكوات زمان الكبار . كان جبارا فى شبابه . يشخط وينطر والبيت ملىء بالخدم . لا يرحم أحدا لو وجد ذرة تراب على مقعد . الآن انتهى . لم يعد فى البيت الواسع غيرها وغيره عليها أن تنظف سبع غرف وأن تشترى الطعام وأن تطبخ و تطعمه بيدها لأنه مشلول . وهى تتمنى له الموت ليس لأنها قليلة الأصل أو لأنها تنسى أن لحم أكتافها من خيره ولكن لكى يرحمه ربنا . فماذا بقى من الإنسان إن كان عليها أن تحمله لكى يقضى حاجته ثم أن تنظف له جسده بعد ذلك ؟ هى تدعو الله أن تموت هى نفسها قبل أن يحدث لها هذا .

من بين الآخرين فى جماعتنا أيضا جرسون فى مطعم قري

يأتى مسرعا دائما بقفطانه الأبيض وحول وسطه الحزام العريض الأخضر ويقول للبائع وهو يلوح بالأوراق ويضحك : « خلصنا . أريد كذا ألف جنيه حالا . لابد أن أرجع بسرعة للزبائن » . وبعد أن يخلصه البائع يعطينا الجرسون نصائح . ربح فى بعض الأحيان جنيها أو جنيهين من تلك الجوائز الصغيرة وكان يفرح بها كثيرا . يقول إن الفضل فى ذلك يرجع إلى نصيحة زبونه الهندى الذى علمه أن يشترى كل أوراقه مسلسلة الأرقام وأن يشتريها كل يوم فى نفس الموعد . بهذه الطريقة لابد أن تصادف دورة نجمه دورة الحظ . وكان يشير علينا أن نترصد مثله للحظ الذى يدور لكى نصطاد نجمه ذات يوم فيتغير كل شىء . ومن يدرى ؟ ربما يكون « البريمو » بذلك من نصيب أحدنا غدا .

يؤكد ذلك كل يوم بحماس بينما يضع أوراقه الجديدة فى جيب قفطانه ويمضى مسرعا وهو يضحك مثلما جاء .

بقية المجموعة كانت هادئة لا تلفت النظر . بائع طعمية متجول يحمل على ظهره إناء مجوفا بداخله الطعمية الساخنة ويسرح على مقاهى باب اللوق . وبواب نوبى فى عمارة قريبة ، وبائع فاكهة على عربة يد من السوق القريب . وهؤلاء كانوا مثلى : يخسرون ويشترون فى صمت .

اليوم لم أقابل أحدا منهم . لم أذهب فى الموعد .

اليوم ذهبت إلى المقهى متأخرا وحين وصلت قال لى الجرسون : سأل عنك عم عباس .

كنت أنوى النزول فى الموعد مثل كل يوم رغم أن النهار شتوى بارد . عدت من العمل بعد الظهر بقليل وتناولت فى حجرتى الواقعة فوق السطح غداء من قطع من السمك المقلى اشتريتها من السوق . ولكنى بعد الغداء ظللت هامدا أنظر عبر زجاج النافذة .

كانت كتل كبيرة سوداء من السحب تنضم وتفترق وتترك فى السماء فتحات صغيرة زرقاء كمداخل الكهوف ، تبرز منها فى بعض الأحيان شمس صفراء صغيرة تنشر نورا أصفر وشاحبا على أسطح البيوت فى حوارى عابدين . كان هناك الغسيل المنشور وأغطية الفراش الداكنة المفرودة فوق الأسوار وفوق أفاريز النوافذ ، والقطط التى تتكور فى بقع الشمس ، والكلاب التى تدفن رؤوسها بين أذرعها الممدودة ، والأطفال الذين يشمرون جلاليبهم ويركبون على الأسطح خيولا من العصى . وانتظرت طويلا أن يصعد جارى الذى يملك (غية) الحمام على السطح المجاور لكى يطلق سربه الملون . كنت أترقب اللحظة التى يحلق فيها هذا السرب فى الفضاء الرحب حولنا ويجلب أسرابا ملونة أخرى تتكاثر وتنضم وتعلو شاهقة فتصبح سربا واحدا يدور وينشر زينته فى السماء .

ولكن جارى تأخر فى هذا اليوم فقمت وخلعت بذلتى ونمت .

لم أصل إلى المقهى إلا بعد الغروب بكثير .

كان دكان السجائر واليانصيب مغلقا . فتوجهت إلى المقهى الذى يشغل ركنا صغيرا فى مدخل جانبى لإحدى العمارات ، وكانت معظم مقاعده مصفوفة فى الممر تتحلق حول مناضد نحاسية مستديرة ذات قوائم نحيلة . ووجدت لحسن الحظ منضدة خالية جلست إليها . وكان يجلس أمامى عبر الممر رجل سمين يلبس جلبابا أبيض ، ويستند بمرفقه إلى المنضدة النحاسية وقد ثنى إحدى ساقيه واضعا رجله تحت فخذه وراح يمتص مبسم الشيشة بانهماك متطلعا إلى الأرض . وعندما قال لى الجرسون إن عم عباس سأل عنّى وأنه متلهف أن يرانى قلت له أن يناديه فقال إنه على المقاهى القريبة وإنه سيعود بعد قليل .

طلبت كوبا من الشاى ، وشعرت أننى لن أستطيع البقاء طويلا فى هذا البرد . كانت البرودة تجثم فى الممر مثل سحابة غير مرئية تلسع ساقى ، ولما وصل الشاى وأمسكت الكوب الساخن براحتىّ كلتيهما جاء ذلك الغريب واستأذن أن يجلس بجوارى وظل واقفا .

كان طويلا بيضاوى الوجه ، شعره ناعم أشيب ، ولكنه عريض الصدر والكتفين . وكان يلبس بذلة رمادية داكنة . قلت له إن المقعد خال وإنه يستطيع أن يتفضل . وساعتها خيّل إلىّ أن الرجل السمين الذى يدخن الشيشة أخرج المبسم من فمه وحركه لليمين ولليسار وهو ينظر إلىّ ولكن حين تطلعت إليه لأتأكد كان المبسم فى فمه وكان يحدّق فى الأرض كالعادة . لم أهتم وبدأت أرشف الشاى . ولكنى لحظتها شاهدت عند المدخل عم عباس يحمل صندوق طلاء الأحذية وحين أشرت إليه تقدم منى متهللا غير أنه بعد خطوتين توقف واستدار وانهمك فى حديث مع بائع الفاكهة الذى يقف عند مدخل الممر . ولما رأيتهما يسيران معا ويوشكان على الاختفاء من المدخل ناديت : « يا عم عباس » . ولم يسمعنى .

كان جارى الأشيب عبر المنضدة المستديرة يتطلع مثلى نحو مدخل الممر وهو يبتسم ثم التفت إلىّ وقال : « الآن سيعود » . هززت رأسى وعدت أشرب الشاى . لكن جارى ظل يتطلع

إلىّ بنفس الابتسامة على فمه الواسع وقال لى :

- هل تعرف عم عباس من زمن ؟
- يمسح حذائى كل يوم تقريبا .
- ألا تعرف حكايته ؟

فقلت بلا اهتمام : لا ، ولكنى أسمعه أحيانا يقول « يا خسارتك يا بنت يا هانم » ، كل المقهى يسمعه يقول ذلك فى بعض الأحيان . أظن كانت عنده بنت اسمها هانم وأنها ماتت .

ضحك جارى ولاحظت أن وجهه يمتلىء بتجاعيد أكثر مما كنت أظن وقال : لا . لا . البنت هانم حكايتها حكاية ، وعم عباس الطيب هذا نمرة كبيرة .

انصرفت بوجهى عنه وعدت أشرب الجرعات الأخيرة من كوب الشاى وأنا أفكر أن أقوم وألحق بعم عباس لأعرف لماذا كان يريدنى . كنت أخشى أن يعاود جولته فى المقاهى وأن يتأخر وكنت أشعر بالبرد ويضايقنى إلحاح الرجل الجالس بجانبى على أن يتكلم ولكنه استمر . قال : كان هذا فى الزمان البعيد . كان عم عباس مختلفا وكانت القاهرة مختلفة . أتعرف أن هذا الميدان الذى نجلس فيه كان اسمه ميدان الأزهار . قلت - نعم سمعت ذلك . قال : سمعت ، ولكنك فى الغالب لم تره - كان هذا الميدان بالفعل بستانا صغيرا من زهور منسقة فى أحواض مدورة وسط نجيل أخضر نظيف ، وكان يحف بالزهور أشجار قصيرة وتتوسطها ساعة ترتفع على حديد مشغول ، ويحيط بذلك كله حاجز قصير من حديد مزخرف على شكل مثلثات رقيقة متداخلة كالدانتلا . وكانت الأشجار فى كل مكان ، فى الميدان وفى الشوارع التى تتفرع منه . أشجار عالية على الرصيف تمتد أغصانها الخضراء وتلتقى عبر الرصيفين وتلتف فيصبح كل شارع كرمة مظللة . وفى الصيف تزهر تلك الأشجار زهورا حمراء وبنفسجية كبيرة ثم تنفضها على الأرض فى الخريف فتمشى على بساط ناعم من الزهور . وفى كل يوم تمر عربة تسقى تلك الأشجار ، ترويها واحدة واحدة فتراها دائما خضراء ، نظيفة ، نضرة ، لا كأشجار اليوم المريضة التى تختفى تحت التراب فلا تعرف إن مررت بها إن كانت شجرة أم عامود نور . يروون الأشجار فى العصر ، وقبل الغروب يمر رجل يحمل سلما على كتفه . يصعد على السلم فينظف فوانيس الشارع من الداخل والخارج حتى يلمع زجاجها ثم يشعل تلك المصابيح التى تضاء بالغاز فيغمر الطريق نور هادىء يتخلل ظلال الأشجار . يحدث هذا كل يوم .

قلت - هنا ، فى باب اللوق ؟

فقال - نعم ، أقصد من زمن .

ثم ضحك وهو يقول : أيام كان هناك الهدهد . هل تعرف الهدهد ؟ ذلك الطائر الصغير بالتاج المزخرف فوق رأسه ؟ كان أيضا يبنى عشه فى تلك الأشجار يجاوره اليمام بهديله الجميل والحمام الزاجل برقبته اللامعة المتعددة الألوان . وكنت تستيقظ فى الصباح على غناء تلك الطيور ، وحين تخرج إلى عملك ترى أسرابها ذاهبة هى أيضا لتعمل فى الحقول . وفى المساء تراها تعود إلى بيوتها الخضراء المورقة . أما على كورنيش النيل فكانت أشجار الكافور العالية تنشر رائحة معطرة . وكان هناك أيضا الفل والياسمين . معظم البيوت بها أسوار قصيرة من الحديد يعرش عليها الزرع الأخضر الذى ينوره الياسمين الأبيض . فى كل مكان تمشى وسط نسيم العطر . وعلى النيل كانت كازينوهات كثيرة . أذكر واحدا من تلك الكازينوهات . كان فى مدخله رمل أصفر نظيف تحف به أصص الزهور وأشجار التمر حنة والكافور ، وبالليل يضاء ذلك المدخل بعقود من مصابيح ملونة وتعزف الموسيقى فى الداخل ويرقص الناس . وكان هناك أيضا فتوات يحرسون الكازينوهات من الأوباش ، فقد كان الزبائن أمراء وكبراء وخواجات وناساً محترمين لكل منهم سيارة لها سائق . وبجوار الرصيف وتحت الأشجار تصطف هذه السيارات البيضاء والحمراء والصفراء ، نظيفة ، تلمع كأنها مرايا ، وبداخلها عقود الفل . عم عباس كان فتوّة فى هذا الكازينو وهانم كانت إحدى الأرتيستات .

صحت : عم عباس ولكنه نحيل كالفتلة !

قال الرجل الأشيب : هذا الآن . أنت لم تره أيامها . كان كل الفتوات يرهبونه وكان هو أيضا طويلا عريضا كشجرة كافور .

سكت الرجل الأشيب وسكتّ أنا أيضا . تطلعت إلى الرجل الذى يدخن الشيشة أمامى . نظر فى عينى نظرة طويلة كأنه شارد ثم عاد يحدق فى الأرض .

قلت : سأنصرف .

فقال الرجل الأشيب : وأنا أيضا طريقنا واحد .

- كيف عرفت ؟

قال : أعرف .

فى الميدان تحت الكوبرى العلوى كان الباعة المتجولون الذى يبيعون الكبريت والأمشاط وغاز الولاعات والعوازل الطبية للرجال والعطور الرخيصة منكمشين من البرد أمام الطبالى الواطئة التى تحمل بضائعهم وتتناثر فى الميدان . كانوا يضعون

أياديهم فى جيوب جلاليبهم وقد تلثم بعضهم بالكوفيات . وعلى الأرض كان تراب وقصاصات ورق ونور أصفر متوهج ينتشر من مصابيح عالية . وكنت أسير ببطء وأتوقف لحظات أتطلع إلى البضائع التى لا أريدها آملا أن يتركنى الرجل الأشيب أو أن أجد فرصة للانسحاب . لكنه ظل إلى جوارى صامتا .

عند سلم الكوبرى مددت يدى لأصافحه وقلت : هذا طريقى .

قال : ولكنك لم تنتظر عم عباس .

قلت : سأراه غدا . أشعر بالبرد وأريد أن أذهب إلى البيت .

ولكنه مد يده وأمسكنى من ذراعى وهو يبتسم وقال : يا رجل الأفضل أن تدور حول هذه الكبارى لا أن تصعدها . أنظر هل ترى واحدا يستعملها ؟ هذه فقط لتجميل المدينة ، سأريك سكة مختصرة . وفى الطريق سنقابل عم عباس . ثم ضحك وهو يقول وربما البنت هانم !

وبينما نسير فى الطريق الذى خف فيه الزحام بسبب البرد . قال : ولكنك لن تعرف أن هذه البنت هانم لو رأيتها الآن لن تعرف كيف كانت . هانم هذه التى يتكلم عنها عباس كانت . . كيف أقول ؟ كانت أجمل شىء فى كل كازينوهات النيل . طويلة خمرية شعرها الأسود ناعم وغزير ، يلمع كالنيل فى الليل . كل شىء فيها جميل ، عنقها الطويل ، صدرها الناعم المرتفع ، بطنها المشدود ، عيناها السوداوان الواسعتان بأهدابها الكثيفة ، ساقاها الطويلتان البضتان ، كل شىء . وفى ذلك الكازينو كانوا يرقصون رقصا افرنجيا فوق منصة خشبية خلفها النيل . . . فى الشتاء فقط يضعون سواتر زجاجية ولكنها كانت أيضا تكشف النيل والأشرعة البيضاء للمراكب التى تسبح فوقه . هانم أيامها كانت تسمى نانا . هناك بالطبع بنات غيرها ، أوربيات ومصريات . نساء جميلات يأتين مع الزبائن وأرتيستات فى المحل . ولكن نانا هى التى ترقص . لا ترى أحدا غيرها فى زحام الراقصين على المنصة . وهى وحدها التى تبقى هناك طول الوقت . تبدأ الفرقة العزف ولا تنزل حتى تنتهى الموسيقى . يتناوب عليها الخواجات والأمراء ، وهى هناك ترقص معهم وكأنها لا تشعر بهم . جاء ناس يتحدونها . رجال أقسموا أن يتعبوها وراقصات وعدن أن يبقين معها وأطول منها . لا فائدة . بعد ساعة ، بعد ساعتين ، كان هؤلاء المنافسون ينسحبون وتظل هى : تطأ الأرض بخفة . تدق الأرض بعنف . . ، ترقص بأقدامها مع الأرض ، وترفع رأسها فوق عنقها العالى للسماء ، فوق كل رؤوس الراقصين فلا تكاد تراها . ترى فقط فستانها الأصفر القصير يتطاير لحول ساقيها الملساويين ، يلتف حولها ، يدور ويدور ، وكل الأعين تدور معها . كان بعض الخواجات يأتون كل ليلة لمجرد أن يشاهدوها . عرض بعضهم عليها أن تسافر إلى أوربا : قالوا لم نر واحدة ترقص هكذا . لو سافرت تكسبين ذهبا . لكنها بقيت . بعد الرقص كانت هى التى تختار من يفتح لها وتطلب الثمن الذى تريده للشمبانيا . قيل إن تجارا كبارا أفلسوا بسببها . قيل هذا ، ولا أعرف إن كان صحيحا أم لا ، ولكنها عندما كانت تجلس مع من تختاره فقد كان الكل يحسده . كان يشعر ويشعر الجميع أنها تمنحه لا أنها تأخذ منه .

غير أن هذا كله ياصاحبى ليس مهما . المهم حقا كان هو أن ترى هانم أو نانا بعد ذلك . بعد أن تشرب ثم ترقص البلدى . لم تكن معها فرقة إنما طبال واحد وعواد واحد . يبدأ هذا بعد نصف الليل بكثير . بعد أن تنصرف الفرقة الإفرنجية ويجلس الجميع يشربون ويضحكون . ثم بعد حين تخفت الضحكات وتتلاشى ويحل الصمت . صمت طويل . ربما نقرة طبلة أو نقرتان . ضربة وتر على العود . همس الموج أو خريره السريع أيام الفيضان . نداء . أتظن أنها كانت تغير ثيابها ؟ تلبس بدلة الرقص مثلا ؟ أبدا . تجلس هناك . دائما بفستان واسع وبلا أكمام ، وغالبا ما يكون لونه أصفر . تشرب ، ساكتة هى أيضا . محنية الرأس هى أيضا . والصمت فى الليل مثل خيمة على الكازينو . ورؤوس السكارى مطرقة وحزينة . ودون أن يشعر أحد ، فى لحظة لا يعرفها سواهما ، يسرع النقر على الطبلة ويسرع خفق الأوتار على العود . وترى هانم فى مكانها . تترك كأسها ، تدق الأرض بقدمها ، يهتز جسدها ، تحرك رأسها لليمين ولليسار ، ترتج كأنها تقاوم ، كأنها ترفض نداء خفيا ، ولكن ذلك النداء لا يقهر . تراها تمد ذراعيها معا وهى تجلس فى مكانها . تخلع بيديها أوتاد تلك الخيمة الحزينة المظلمة التى حلت على الكازينو فتطير بعيدا ، وتقوم هى . تتجه إلى تلك المنصة الخالية الآن إلا من الطبّال والعواد ، ثم هانم سامقة بقوامها فى ثوبها الأصفر القصير . لا تصفيق هناك ، ولكنك تكاد تسمع أنفاس الناس مثل تنهيدة عميقة حين تبدأ بطيئة وناعمة . . تفرد ذراعيها شعاعى نور حول جسدها ومن خلفها الليل والنيل . . تحرك ذراعيها الرشيقتين ، غصنين لينين يتحاوران مع النسيم الليلى ، ترقص أصابعها . . تعزف تلك الأصابع أوتارا لا ترى فتنساب منها شبكة من نغم تحيط بالمشاهدين . بطيئة وناعمة . . جسدها يتموج . . أقدامها تمس الأرض مسًا وهى تنساب فوق المنصة . منديل من حرير

رقيق سيحمله النسيم معه إلى هناك ، حيث النجوم . . ساعتها لا تكاد تسمع الطبلة ، وإنما وتر رفيع متقطع يتموّج هو أيضا مع جسدها . ثم تبدأ الطبلة . . خافتة أيضا . . متقطعة أيضا . . وحركة جديدة تدب فى الساقين الطويلتين . . فى الذراعين المرفوعتين إلى أعلى . . فى الصدر المتوفز . . فى الأرداف الريّانة المرنة . . موجة بحر قادمة من بعيدة تغلى بالزبد ، مهرة بيضاء تشب على ساقيها تمزق اللجام . ثم فجأة تنطلق تلك العاصفة . . تركض المهرة حرة . . تضرب الموجة العاتية الشط وتتناثر فى السماء . . ترقص هانم . . ترقص الدنيا . . النيل تحتها ونجوم السماء فوقها ونقر الطبلة والأشجار والنسيم ورؤوس المشاهدين وأقدامهم وقلوبهم . فرحة ترقص فى الكون ، وهى هناك تدور وترقص . . تنثنى للخلف فترقص الذراعان جناحا طائر أبيض يخفقان وسط ريح جامحة تارة ويسبحان وسط أنسام حانية تارة أخرى والطبلة تجاهد لتلاحق ذلك النغم المتقلب . . تسجد فى الأرض . . يتبعثر شعرها الأسود الناعم حول رأسها . . ترقص الجدائل أمواجا ليلية صاخبة . . ترفع المهرة غرتها السوداء . . تجمح وتشب وتتابع ساقاها الخمريتان الرقص . . يصعد النغم مرة أخرى من الأرض إلى السماء . . لا شىء يروض هذه المهرة وهى تركض وتتمايل وتتثنى وتشب وسط صيحة كالآهة تندلع من قلب المشاهدين وتعبر النيل والخلاء وتظل معلقة فى الفضاء . ثم مرة أخرى ، تطأ الأرض بخفة . فيصبح كل شىء من جديد هادئا . . شفافا . . غلالة ناعمة تترجرج فوق الرؤوس . ويعود الوتر خفيضا ورخيما هذه المرة ، قبل أن يبدأ كل شىء من أوله مرة ، ومرتين ، ومائة مرة . وكم يستمر ذلك ؟ ساعة ؟ ساعتين ؟ صدق هذا إن شئت ولكن فى بعض الأحيان كان الشفق يصبغ الأفق والنيل بلونه الأحمر وتلك وامة ما تزال . هانم . نانا . آه من تلك الأيام .

كان الرجل الأشيب يلهث حين قال ذلك .

توقف عن الكلام فسألته : وأنت ؟ أنت مازلت تذكر ذلك حتى الآن ؟ لابد أنك كنت تذهب كثيرا .

سكت طويلا . ثم استنشق الهواء بعمق وقال بصوت حاول ن يجعله هادئا : نعم بالطبع . أنا كنت هناك كل ليلة . كنت حب هانم وكانت هى تحب عباس .

وأذكر أننا كنا نسير وكان هو يتكلم . لا أستطيع أن أقاطعه ولا أستطيع أن أتركه . وأذكر أننا خلفنا وراءنا عابدين وأننا كنا نسير فى شارع الأزهر ، تملأ أنفى رائحة البخور الخام تنفذ من محلاته المغلقة وأنه كان يتكلم . ثم انتهت الرائحة المعطرة وكف عن الكلام ، ورحنا نمشى فى تلك الحوارى المظلمة المتعرجة وهناك صبية يسيرون خلفنا ويسبقوننا فى تلك الأزقة المتقاطعة وهم يصيحون ويسبّون بعضهم بعضا . ولم أفهم ما الذى يبقيهم فى الطريق فى هذا البرد ولا ما الذى أتى بنا إلى ذلك المكان .

وسألت الرجل الأشيب : أين نذهب ؟

قال بصوت خشن : ألا تتعاطى الأنفاس ؟

قلت : نادرا ، فى بعض الأحيان .

فقال : ليكن الآن بعض الأحيان .

وأذكر تلك الظلمة الليلية فى الأزقة تنفتح فجأة على ساحة متسعة بعض الشىء ومضاءة تماما . يقف فيها طابور قصير من رجال يلبسون الجلاليب والبدل أمام مدخل بيت تسده منضدة عريضة وفوقها ميزان صغير وقد وقف خلفها رجل يلف رأسه بشال كبير أبيض من الحرير ينزل على صدغيه ورقبته ويتدلى على كتفه ويزن تلك الأشياء . وفى ركن آخر من الساحة كانت تجلس عجوز تلبس السواد أمامها قفص من جريد رصت عليه أصابع العسلية وثمار الدوم بجانب باكوات اللبان والشيكولاته المستوردة وحولها بعض الصبية وذباب ليلى يحوم فوق القفص .

تقدم الرجل الأشيب ووقف فى نهاية الطابور .

وأذكر أيضا بعد ذلك أننا كنا نجلس على الجبل الذى يتكون من صخور قليلة وتراب ناعم كثير . فبعد أن اشترى واصلنا السير فى تلك الحوارى المتعرجة الضيقة إلى أن أصبحنا فى الخلاء وأمامنا ظهر الجبل يرتفع فى الظلام كحائط أسود ، ولكن كان هناك ممر يخترق ذلك المرتفع الذى بدا لى كتلة واحدة صماء ، سبقنى هو عليه بخطوات مدربة إلى أن وصلنا إلى قمة تكاد تكون تجويفا وسط الصخور .

وعندما توقفنا وكنت ألهث سألته : أين سنذهب ؟ قال : هنا .

قلت : هنا ، فى هذا الخلاء ؟ ظننتك تعرف غرزة جيدة فى الجبل .

قال : بعد قليل ستكتشف أن هذه أفضل غرزة .

تطلعت حولى . . كانت بجوارنا حديقة ماتت أشجارها من زمن . بقى قليل من تلك الأشجار منتصبا وعاريا . ومال بعضها متعامدا على البعض الآخر وسقط معظمها على الأرض . وعلى يميننا كانت القلعة تضيئها كشافات صفراء ،

وتحتنا شارع صلاح سالم تومض فيه أنوار السيارات المسرعة قبل أن تختفى . وعبر الشارع كان ينتصب جبل المقطم تحته شواهد المقابر الفقيرة وقباب المقابر الغنية . وهناك فى أعلى المقطم مئذنة رفيعة داكنة كرمح مرشوق فى الأرض .

قلت للرجل الأشيب وأنا أضع يدى تحت إبطى وأنكمش : لا أظن أنى أستطيع، أشعر بالبرد .

وكان وقتها يجلس منهمكا فى تفريغ دخان السجائر على ورقة مطوية أخرجها من جيبه واحتضنها بين ذراعه وجسمه لكى لا يتطاير التبغ . فقال لى : ألا تخجل وأنت شاب بهذا الطول والعرض ؟

قلت ومع ذلك أشعر بالبرد فلنعد أرجوك . كنت أريد أن أسمع منك بقية حكاية هانم ولكنى تنازلت عن ذلك . ليس فى هذا البرد .

طوى الورقة جيدا من كل أطرافها ووضعها فى جيبه ثم قام وهو يتنهد واتجه إلى الشجرة القريبة الممدة على الأرض وسمعت صوت تقصف الأغصان الميتة .

بعد ذلك كنا نجلس وبيننا تلك النار الصغيرة التى أشعلها ندفىء عليها أيدينا الباردة ونتبادل السيجارة الثمينة فى حرص لكى لا يسقط منها الرماد .

قلت له : لم تقل لى ما اسمك .

فقال وهو يضحك ما تشاء : حسن ، حسنين ، أمين ، حنا ، حنين ، كلها أسماء سمّنى ما شئت .

- سأسميك حبيب هانم .

- لا بأس . هذا أيضا يصلح . لكن أحباء هانم كانوا كثيرين فلا بد أيضا أن تعطينى رقما . رقم ٣٧ أو ١٦٧ كما تشاء . وأخذ يضحك .

ثم قال : ولكنك يجب أن تحتفظ بالرقم واحد لأخلص أحبائها . لن تصدق من كان هذا . كان طويلا وسمينا . غليظ الرقبة ، ضخم الصوت ، يأتى من أول الليل لكى يشاهدها وهى ترقص الرقص الافرنجى لكنه لا يرقص معها . كان صعبا أن يحرك جسمه البدين فكيف يرقص ؟ ولكن تخرج منه بين الحين والآخر بصوت عميق جدا عبارة واحدة : « الله ياست » . يحجز كل ليلة مائدة ، أول مائدة تحت المنصة مباشرة . وعندما ترقص تراه يشرئب بعنقه ، يرفع رأسه الضخم ، يحدق إليها مأخوذا . لو وضعت سكينا على رقبته ساعتها فلن يشعر بك .

قلت : ولكن ما الغريب فى ذلك ؟ ألم تقل إنها كانت تسحر الجميع بما فيهم أنت ؟

قال : الغريب ياسيدى أن مدحت ، وهذا اسمه ، مدحت الذى كان مفتونا بها إلى هذا الحد كان . . كان يقال إنه عاطل عن النساء . نعم ، لم يتزوج ولم نسمع أنه عشق ، إلا عشقه الغريب لها ثم بطبيعة الحال التى ظل وفيًّا لها حتى النهاية . وكانت هانم تؤثره أيضا . تربت على كتفه إذ تمر به ، تقف بجانبه تقول له كلمة أو كلمتين ، تشرب معه فى ليال كثيرة فتراه ساعتها جاحظ العينين ، مرتجفا ، يرتعش جسمه وترتعش يداه . حتى عباس لم يحب هانم كل هذا الحب .

قلت : ولكنك لم تكمل الحكاية . . مالذى جرى لهانم ؟ ما الذى جرى لك ولعباس ؟

- كلنا بخير ونهديك السلام

- أرجوك . أريد أن أعرف

- ماذا تريد أن تعرف ؟ لكن سأقول لك ، حدثت أشياء نانا أدمنت شم الكوكايين وعادت هانم . هذا الشىء حدث لكثير غيرها فى تلك الأيام . كانت تقف هناك على المنصة تدق الطبلة ويعزف العود وهى تمد يدها صامتة كأنها تستنجد . تحرك ساقيها لترقص فتبدو وكأنها تتعلم المشى . بعد قليل طردوها من الكازينو . وعباس طعن هانم بالسكين وكاد يقتلها فدخل السجن . هذا ما جرى .

- هذا كل شىء .

- نعم هذا كل شىء .

- كيف . وأنت ماذا حدث عندما . . .

فقال وكأنه يصرخ : اسكت .

فسكت . .

كانت النار قد خبت . ورأيت الجمرات الحمراء الكبيرة تنطلق فى الظلمة شرارات لها دوى الرصاص . فتراجعت للخلف .

تراجع هو أيضا . تراجع بجذعه واستند بمرفقه على الأرض وهو يقول : هانم هانم من تكون هانم يعنى ؟ هانم الحقيقة كنت تراها بعد ذلك فى النهار ، بعد أن تخرج من الكازينو فى الفجر وهى تتأبط ذراع عباس . وكانت تبدو بقامتها الفارعة ضئيلة وهى تمشى بجانبه فى الطريق . يتأخر الكبراء والباشوات فى صف السيارات اللامعة ، يتلكأون أمام الكازينو

لمجرد أن يلقوا نظرة عليها وهى تتصرف . كل منهم مستعد أن يدفع ما تشاء لتصاحبه ولكنها تمشى مع عباس . تمشى إلى أين ؟ إلى غرفة فى حى بين السرايات . أيامها كانت تلك المنطقة المجاورة للجامعة كلها حقولا تتناثر وسطها بيوت فقيرة كالعشش . وبعد ساعة أو ساعتين من خروج هانم وحولها تلك الهالة من الإعجاب والسحر تراها هناك ، تلبس جلبابا طويلا وتعصب رأسها بمنديل كبنات البلد ، وتقف وسط بقية النساء فى الحى ومعها طبق تشترى فولا من العربة التى تحمل قدرة المدمس ، أو تراها بعد ذلك تقرفص أمام باب غرفتها الصغيرة المفتوح تعد الخضار وتشعل وابور الغاز لكى تطبخ لرجلها ، لعباس . وإذ تمسح وجهها فربما ترى خطوطا من الهباب فى ذلك الوجه الذى ينير كبدر فى الليل . قد تمر بها ساعتها فلا تراها . لا تتوقف عندها لحظة واحدة . مجرد واحدة من النسوة الفقيرات فى ذلك الحى الفقير . هذه هى هانم الحقيقية . حشرة . صفر كبقية الأصفار حلّت بها نعمة لا تستحقها ومرت كالسحاب . قل لى من تكون هانم ؟ غدا تموت فلا يسمع بها أحد . لا يمشى فى جنازتها أحد . . يدفنونها فى مقابر الصدقة . . هناك تحت مع أمثالها . .

قلت : ولكن . لماذا إذن أحببتها ؟

قال : أردتها . هذا كل شىء . ظننت أن هذه النعمة العابرة رفعتها فوق الأصفار ولكن . . ثم اعتدل فى جلسته وقال :

– ولكن أنت لن تفهم . أنا قلت لك إننى أحببتها لكى أقرب لك الفهم . ولكن ما أعرفه أنا ليس هو الحب الذى يعنيه الأوباش . هو شىء من نوع آخر موضوعه امرأة . امرأة أعلم أننى ذات يوم . . ولكن لا يهم فأنت لن تفهم . نعم كنت هناك كل ليلة . أجلس وأراقبها أرى الأذرع تتناول الالتفاف حول خصرها . . أرى صدرها الناهد يلتصق بصدور أخرى . . أراقبها حين تجلس . . حين تلتفت برأسها فتظهر عضلة رفيعة من خلف أذنها تمتد وتصنع تجويفا صغيرا عند التقاء رقبتها بكتفها أتمنى أن أملأه بشفتى . . أراقبها حين تتحسس بأناملها كأسها فأتخيل هذا الملمس الناعم الطرى . . أتابع امتلاء جديدا فى شفتيها الورديتين المكتنزتين حين تشرب . . ارتخاء أهدابها الكثيفة وزمة شفتيها حين تفكر نعم . لم يكن يفوتنى منها شىء . كل ليلة أجلس هناك وأراقبها ، فهل كان عباس يعرفها مثلى ؟ هل كان يرى منها ما أراه ؟ هل كان يستحقها ؟

– كانت تحبه وكان يحبها . هذا يكفى .

– يكفيك أنت لا أنا .

– وكنت تعذب نفسك كل ليلة بهذا الشكل ؟ تنتظر مثل الآخرين إلى أن تراها تمضى مع عباس ؟ لماذا ؟ لماذا ما دمت تعرف أنها ليست لك ؟

قال : ماذا تقصد لماذا أذهب ؟ ألم أقل لك ألف مرة ؟ كان الكازينو ملكى . كنت أملكه . وكانت كل البنات فى الكازينو ملكى ، ولكنى عندما طلبتها هى قالت ياخواجه هل تقبل الشرك مع عباس ؟ قلت أقبل . أقبل كل ما ترضين به . قالت أنا لا أقبل الشرك . عباس لا يقبل الشرك .

قلت : وهل أنت خواجه ؟

– بالطبع لا ولكن هذه حكاية أخرى . . رفضتنى هانم ولكن انتقامى كان يليق بها .

قلت : إذن فأنت الذى علمتها الكوكايين ؟

– أى كوكايين ؟

– ألم تقل الآن حالا إنها أدمنت شم الكوكايين ولم تعد تستطيع الرقص فطردوها من الكازينو ؟ أقصد طردتها أنت من الكازينو . .

– وصدقت ذلك ؟ أنت كنت تريد حكاية مسلية فحكيت لك حكاية مسلية . حكاية العالمة التى تشحذ فى الطرقات وتشم الكوكايين . لا ياعزيزى . انتقامى كان أبسط من ذلك وأجمل بكثير .

– قال ذلك وقام ثم أخذ يتمطى وقال : ذكرتنى بأشياء كدت أنساها ولكننا نحتاج مزيدا من النار . .

مشى باتجاه الحديقة الميتة . وكانت الكشافات التى تضىء القلعة قد أطفئت فبدت قبتها فى الظلام كتلة واحدة داكنة كصدر امرأة ناهض نحو السماء التى كانت توشيها نجوم كثيرة . كوى صغيرة من نار بعيدة تتكىء حولها كائنات سماوية مجنحة وتثرثر مثلما أثرثر مع الرجل الأشيب ، غير أنها لا تعرف الانتقام ولا تعرف الحزن ، ومن حولها فى ذلك البحر السماوى المظلم كانت تسبح سحب صغيرة . . زوارق بيضاء شفافة ومتتابعة . .

عندما عاد أخذ يكسر الأغصان قطعا صغيرة وسط الجمرات ثم انحنى وأخذ ينفخ فيها إلى أن اشتعلت أطرافها وأخذت تحدث تكتكة خافتة . وكنت أجلس منكمشا وأتأمل وجهه الذى تضيئه النار . كان شعر ذقنه النابت أبيض كله أما شعره

الفضّى الناعم المرجل إلى الخلف فقد بقيت فيه بعض خطوط سوداء . وتخيلت أنه كان وسيما فى شبابه فقد كانت عيناه اللتان تحيط بهما التجاعيد عسليتين واسعتين تلمعان كعينى قط . ولما بدأ يلف سيجارة جديدة قال لى بصوت هادىء : تركتنى أتكلم كثيرا فلماذا لا تتكلم أنت ؟

- عن أى شىء تريدنى أن أتكلم ؟

- كما تشاء عن الحب مثلا . ألم تحب أنت ؟

- كثيرا وفشلت كثيرا . أنت ملكت نساء الكازينو كما قلت وأنا ملكتنى كثيرات غير أنى لم أملك واحدة . كلهن كن هائم معى . بعيدات مهما حاولت أن أقترب .

قال وهو يمد لى السيجار ويضحك : احك لى عن واحدة منهن . ربما استطعت أن أعطيك نصيحة .

رددت يده وأنا أقول : لا شكرا . . لا أريد أن أدخن . يكفينى ما أخذت ، ربما فيما بعد .

لم يلح وسحب نفسا عميقا ثم قال : تخاف أن تغيب عن نفسك ؟ لا يهم ، احك لى . .

- ولكننى قلت لك إنها كانت قصصا فاشلة . كلها متشابهة ، وإن كانت لى أنا أيضا منذ زمن قصة لا أظن أن أحدا يشاركنى فيها . نعم ، هذه الظلمة تذكرنى بها ، وهذا المكان يذكرنى . كنت وقتها فى الخامسة من عمرى أو أكبر أو أصغر قليلا .

- فى الخامسة من عمرك ؟ لابد أنك كنت تحب مربيتك .

- فى قريتنا لم تكن هناك مربيات . أمى هى التى كانت تربينى . وكنت أحبها ، ولكنى كنت أيضا أحب أختى محاسن التى تكبرنى بخمس سنوات . ربما كنت أتعلق بها أكثر من أمى فقد كانت هى أيضا تحبنى كثيرا . تسحبنى من يدى إلى كل مكان تذهب إليه . تأخذنى حين تحمل الطعام إلى أبى فى الظهر فى حقله ، وفى الطريق تتحين فرصة لكى تنزل إلى أحد الحقول وتجمع لى الفول الأخضر الذى أحبه . بينما أقف أنا فى الخارج لأنبهها وأحذرها إن ظهر أحد ، أو تأخذنى معها عندما يرسلونها إلى الدكان لتشترى شيئا فتأخذ من البيت بيضتين أو ثلاثا لتشترى لى أصابع العسلية . وعندما ترسلها أمى إلى الطاحونة ، التى كانت بعيدة فى آخر القرية لكى تطحن شيئا من الغلة كانت تغنى لى فى الطريق أغنيات قريتنا وتحملنى إن تعبت من المشى رغم أنها هى أيضا كانت نحيلة وصغيرة . وكنت أضحك عندما أرى الدقيق فى الطاحونة يغمر وجهها وشعرها الذهبى ويتعلق برموش عينيها الخضراوين فتبدو كبهلوان الحاوى الذى كان يمرّ بنا بين الحين والآخر . ولكن هذا المنظر يسعد أمى التى كانت تريد دائما أن تخفى جمال محاسن لأنها تخاف عليها من العين . كانت تضفر شعرها الأصفر الجميل وتعصب رأسها بمنديل وتخفى ضفيرتها من فتحة رقبتها فى داخل ثوبها . تختار لها حين تخرج جلبابا قديما وممزقا ولاتغسل لها وجهها حتى لايبين صفاء بشرتها . ولكن هذا كله لم يفلح فى إخفاء جمالها الذى كانت كل قريتنا تعرفه وتتكلم عنه . فعندما كانت إحدى جاراتنا تحمل لم يكونوا يدعون لها بولد كما هى العادة عندنا بل أن يرزقها الله بنتا فى جمال محاسن . ولم يفلح حذر أمى فى خداع الموت أيضا . فعندما كانت محاسن فى العاشرة زارها الموت فى حمى قصيرة وأخذها معه . وفى ذلك اليوم ، بعد أن دفنوها ، كانت أمى جالسة تبكى ، والنسوة من حولها يبكين ويعددن بتلك الأغانى الحزينة كنت أنا منزويا فى ركن بعيد لم أكن أبكى ولكنى كنت أنتظر . أنتظر أن ينتهى النهار . تذكرت أن محاسن كانت عندما نمرّ ناحية المقابر فى الغروب تعدو خائفة هى تجرنى وراءها . تقول لى إن الموتى يخرجون من قبورهم بعد مغرب الشمس ويتزاورون . يعقدون جلسات ويحكون حكايات مثلما نفعل نحن الأحياء وليتها ذهبت . أردت أن أرى محاسن حين تخرج وأن أقول لها إنى لا أريدها أن تموت وأريدها أن ترجع معى . كنت متأكدا أننى حين أبكى وأتعلق بثوبها فلن تستطيع أن ترفض طلبى . هكذا كنت أفعل معها دائماً عندما أريد شيئاً فلا ترد لى طلبا . وقبل أن يحين الغروب تسللت خارجاً من البيت . إجتزت بيوت القرية ثم رحت أعدو إلى هناك ، إلى تلك الربوة الصغيرة التى ترتاح فوقها قبور قريتنا ، فى الخلاء . وكان عندنا كلب صغير يتعلق بأختى لاحظت حين تركت البيوت ورائى أنه كان يتبعنى أيضا وأنه يعدو ورائى ، وأراحنى هذا قليلا ، اتئنست به فضممته إلىّ أحتمى به وأنا أعدو . وعندما وصلنا إلى هناك أخذته فى صدرى وجلست إلى جوار قبرها . كان بدر فى السماء ، وكانت القبور واضحة ، وكنت خائفا أرتعش ، وكان الكلب فى حضنى يبكى بالطريقة التى تبكى بها الكلاب ، وأنا أحاول أن أسكته وأكلمه لأسكت خوفى . وجلست أنتظر . ولكن محاسن لم تخرج من أجلى لا فى تلك الليلة ولا فى ليال بعدها . انتظرت فى الليالى المقمرة وفى الليالى التى لاتضيئها النجوم لكنها لم تخرج من أجلى . واعتدت على الذهاب دون خوف حتى عندما كان الكلب يتخلف عن صحبتى . وجدت وسط هذه الشواهد الصغيرة ، وأنا جالس فى الظلام أنتظر ، شيئا كان صعبا أن أفهمه وأنا صغير ومازال صعبا أن أفهمه الآن . كنت أخاطب محاسن فى سرى دون

صوت . أرجوها أن تخرج وأنا متأكد أنها تسمعنى وأنها تفهمنى ولكن شيئا ما يمنعها من أن تخرج .

وذات ليلة أشفقت محاسن علىّ فخرجت من أجلى .

قال الرجل الأشيب بصوت مرتفع - كنت تحلم . نعست إلى جوار قبرها فخيل إليك أنك رأيتها ؛ أليس كذلك ؟ وسكت فقال وهو يتنفس بعمق ماذا حدث ؟ كيف كانت فى ذلك الحلم ؟

فكرت قليلا ثم قلت - كانت محاسن .

قال بصوت نافذ الصبر - محاسن كيف ؟ كانت محاسن نعم ، ولكن كيف ؟

- مثلما كانت دائما ، بثوب منقوش قصير وضفيرتين طويلتين تنسدلان على ظهرها بعينين خضراوين واسعتين ووجه جميل .

- ولكنى أسألك ماذا فعلت ؟ ماذا قالت فى ذلك الحلم ؟

- انحنت علىّ وأنا جالس . وضعت يدها على كتفى وعانقتنى بذراعيها ثم قبلتنى فى خدى كما كانت تفعل دائما . قالت لا تحزن من أجلى . أنا بخير فى مكان جميل فلا تحزن من أجلى . واذهب الآن . قالت إن كنت تحبنى فلا ترجع مرة أخرى إلى هنا . لا أريد ذلك .

- وأنت ماذا فعلت ؟

- كما طلبت هى . قمت وذهبت ولم أعد مرة أخرى ، إلا فى الأعياد مع أبى وأمى ليلتها كان الكلب الصغير معى ولم يكف عن النباح والبكاء طول الوقت .

- هذا كل شىء ؟

- نعم ، كل شىء .

ضرب فخذه بقوة ثم قال - خيبك الله . نعم ، خيبك الله ! أحكى لك أنا عن الحب والرقص ، أحكى لك عن الحياة وعن الدنيا الجميلة ، فتحكى لى عن القبور والموت !

- وفى تلك القبور وأنا طفل صغير ، تعلمت ألا أخاف من الموت . عرفت أنه ما هو إلا رحلة هينة . نقلة قصيرة إلى مكان أجمل سنحبه ونألفه أكثر مما نحب دنيانا هذه ونألفها . هل تخاف أنت من الموت ؟

- لا ، أنا خالد .

ضحكت .

قال - اضحك . أنا فوق السبعين ولكنى أكثر منك صحة وشبابا . كنت أنت ترتجف من البرد ولكنى لا أشعر به . أنت انسطلت من نفسين وأنا لا يغيبنى عن الوعى شىء . أمثالى لا يموتون إلا عندما يريدون أن يموتوا . ولكن قل لى ، مادمت فيلسوفا وزاهداً هكذا فلماذا تشترى أوراق اليانصيب ؟

- وكيف عرفت أنى أشتريها ؟

- أعرف ، المهم لماذا تشتريها ؟

ضحكت وأنا اقول - أولا أنا لست فيلسوفا ، أنا شاعر .

- حقا ؟ تلعب بالكلمات بدل أن تلعب بالحياة ؟ إذن فهل تستطيع أن تدلنى ما هو الشعر ؟

لا أعرف ، ولا أحد يعرف . غير أنى منذ كنت صغيرا أحببت الكلمات التى كانت تغنيها أختى . وفى المدرسة أيضا وفى الأغانى كانت تأسرنى تلك الألفاظ التى تصنع نغما حين ننطقها معا . الخيل والليل ، حمامة الأيك ، بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ، وأضحى التنائى بديلا من تدانينا ، ولا تلم كفى إذا السيف نبا صحّ منى العزم والدهر أبى . كنت أفرح بتلك الكلمات حين أقرأها أو أسمعها وأنا فى المدرسة مثلما كنت أفرح بأشعار قريتنا فقد كان فى بلدتنا أيضا شعراء ، يتجولون بين القرى . يأتون الموالد ويغنون لبهية وياسين : وبهية فى المحاكم شدت واحد وكيل . . احكم ياجاضى النيابة جدّامك مظاليم ، ويغنون للهلالى : لما هجم الزناق ومال على الهلايل ، وأبو زيد يقول نعمين يامن تقاتل . . وفى الأفراح أيضا يأتون . يصنعون من الكلمات هدايا هم لصاحب الفرح . فترى وجه العريس يشرق حين يجعلون اسمه لحنا وسط أنغامهم ، وحين تفتح تلك الكلمات فجأة أبوابا على عوالم لم يرها قبل الشعراء أحد : وعريسنا أبو فوده الأسمر ، ترس داير يسجى فى أخضر . وبعد أن يكون العريس ساقية ماء يروى حبيبته ترى وردة تنبثق فى كفه ، لكنها ليست سوى وجه تلك الحبيبة التى هى مرة أخرى نخلة عالية يرتقيها فيضم بلحها الريان الذى طاب وارتوى . صور كثيرة . . أنغام من ألفاظ تصنع صورا وراء صور كانت غاية الفرحة عندى أن أكررها وأنغمها ثم بعد حين أن أقلدها . . .

قال الرجل الأشيب - إذن فهل كنت ترى أن الشعر هو الفرح ؟

قلت - ربما ، نعم .

فقال – وماذا إذن عن الشعر الحزين ؟ الشعر الذى يجعل الناس تبكى ؟

معك حق ، ماأكثره . ولكنى أنا كنت أجد فى حزن الشعر شيئا آخر غير الحزن ، أو بجانب الحزن ، أنظر ، حين تحزن وأنت تسمع شعرا أو أغنية ألا تشعر أنك أصبحت مختلفا ، ألا تشعر أنك أصبحت تحس أشياء لم تكن تعرف أنت أنها فى داخل نفسك ؟ أليست هذه الدموع أيضا فرحة وأنت تلتقى فجأة بذلك الجزء الغائب من نفسك ، الجزء الأفضل والأحسن الذى لا تعرفه إلا بالشعر ؟

– كلام فارغ .

– ربما ولكنى أنا أحسه وأصدقه . صدقته عندما كنت فى المدرسة وما أزال ، فأخذت أنا أيضا أجول فى الأفراح ، وفى حفلات عودة الحجاج إلى بلدتنا . أذهب إلى البيوت عندما ينجح أحد فى المدرسة أو عندما يشفى واحد من مرض . صرت أختلق المناسبات لكى أقرأ للناس أشعارى ، لكى أفرح ولكى يفرحوا بما أقول وكان الناس عندنا بالفعل يحبون كلماتى ويفرحون بها ، وكان أبى وأمى أيضا يسعدان بما أقول وبحب الناس لى . وعندما جئت إلى القاهرة لكى أدخل الجامعة ، كنت أظن أن المدينة التى تصنع كل هذه الأغانى تتحدث شعرا ولكنى منذ أيامى الأولى عرفت الحقيقة . عرفتها فى الجامعة . كنت تريد أن تسمع قصة حب لى ؟ إذن فاسمع أحببت تلك الفتاة فى الجامعة . كانت هادئة منعزلة فى عينيها الجميلتين نظرة شاردة إلى البعيد . وكان شىء يوشك أن يولد بيننا . وفى ذلك اليوم كنا فى حديقة الجامعة فوجدت نفسى أقرأ لها شعرا . استمعت إلىّ برزانة . وحين انتهيت بدأ وجهها يتشنج بالرغم منها . وضعت يدها على وجهها ، أخذت تصارع لتكتم ضحكها ، ثم استسلمت وراحت تضحك وهى ترتج ، ثم قالت بصوت متقطع والدموع فى عينيها من فرط الضحك اعذرنى ولكن منظرك وأنت تقول الشعر ، منظرك وأنت متأثر ، كان يشبه الأفلام الكوميدى . لا يحدث هذا إلا فى الأفلام الكوميدى . قالت ذلك ثم جرت فى خجل وهى ترى خيبتى . . .

ضحك الرجل الأشيب طويلا وقال – رأيى أنها بنت عاقلة : كان يمكن أن تفعل شيئا أفضل من ذلك مع البنات فى الجامعة . . خيبك الله !

قلت – أجيبت دعوتك من قبل أن تقولها . لم أكمل الجامعة ، وخبت فى الحياة ، وها أنذا موظف بملاليم ، وحتى الشعر فى داخلى قد خرس . .

– ربما أنت لم تفلح لأنك كنت تقول شعرك لمن هـ ودب . إن حلّت بك نعمة فصنها . لاتبددها على م لا يستحق .

– فإنى كنت أجد سعادتى فى أن أعطى ؟

– إذن فعش مع الأوباش . لم تقل لى لماذا تشتر: اليانصيب ؟

– أليس هذا سؤالا غريبا ؟ أتمنى أن أربح بالطبع ,

– فإن ربحت ؟

– إن ربحت . . أنتظر . . . بعد أن أسدد أشياء ضرورية . . . سأؤجر شقة نظيفة ، وربما أتزوج . لا أجد واحدة ترضى بى وأنا مفلس .

علت ضحكاته ثم قال – صح ما توقعته . أنت واحد من الأصفار . أحلامك أحلام الأصفار . . .

ثم قال وهو لايزال يضحك – وبالمناسبة أنت ربحت (البريمو) . . .

– نعم ، ماذا قلت ؟

– ماقلته سمعته . لهذا كان يسأل عنك عباس ، (البريمو) واحدة من الأوراق الخمس التى اشتريتها بالأمس . لهذا كان يريدك صاحب الدكان وكلف عباس بأن يحمل لك البشرى . أوصاه أن يكتم السرّ ليأخذ المكافأة . لكنى بالطبع سآخذ هذه الورقة . .

قلت – أنت تمزح – لم أربح فى حياتى شيئا ولا حتى جنيها أو جنيهين من الجوائز الصغيرة . . (البريمو) مرة واحدة !

فقال : نعم ، أنا أمزح . . .

قال ذلك شارداً ثم كف عن الضحك ورأيته ينكس رأسه محدقاً فى الأرض للحظة ثم فجأة أخرج من جيبه مطواة فتحها بسرعة ولمع نصلها فقمت وأنا أصرخ .

– لا تقتلنى !

ولكنه ظل على الأرض ، انحنى وراح يزوم فى غضب ورأيته يغمد مديته فى الأرض بقوة ، ثم تراجع للخلف وقد اشتد هياجه وأشهر المدية من جديد ثم غرسها فى الأرض وراح يضحك ويصيح صيحات منتصرة وحين رفع المدية كان يتعلق بها جسم أسود صغير يتحرك .

قال – أرأيت ؟ هذه عقرب .

وقرب المدية من النار فرأيت العقرب المرشوقة فيها . لم أكن قد رأيت عقرباً قبل ذلك فى حياتى . كانت سوداء مستطيلة وأخذت تحرك أرجلها الكثيرة المتعرجة حركات سريعة كما يفعل الصرصار حين ينقلب على ظهره بينما راحت تخبط بذنب كبير مقوس نحو جسدها النحيل خبطات منتظمة فيرتطم ذنبها كل مرة بنصل المدية فتسحبه ولكن الحركة نفسها تعود من جديد ، أبطأ فأبطأ .

وكنت ما أزال واقفاً أرتجف فوقف الرجل الأشيب مسدداً نحوى المدية والعقرب . .

قال – لماذا تخاف ؟ هل يبدو على أننى قاتل ؟ أنا . . أنا لا أستعمل العنف أبداً . .

وبينما كان يقول ذلك انحنى وأخذ يهز المدية فوق الجمرات فسقطت العقرب فى النار . لم أنظر ولكنى سمعت الطقطقة وأدرت ظهرى وسرت خطوتين نحو الغابة الميتة لكى لا أشم رائحة اللحم المحترق .

وكان هو يتكلم فقال – اذهبى إلى حيث أردت . إلى النار التى جئت من أجلها . المفروض أن تنامى الآن فى جوف الأرض فإن جذبك صيف زائف فهذا هو ما تستحقين .

ثم قال – نحتاج مزيداً من النار . حاول أنت أن تأتى لنا ببعض الأغصان .

قلت – يكفى هذا . سوف أنصرف .

قال – هل خفت ؟ أنت لم تفهمنى أنا لم أقل إننى سأسرق منك الورقة أو أخطفها . قلت سآخذ الورقة . بإرادتك ولمصلحتك . عندما أشرح لك ستفهم كل شىء .

- إذن فقد ربحت حقا ؟

- نعم . ربحت .

- لا أصدق هذا . لا أصدق أى شىء تقوله . كل حكاياتك فيها شىء لا يصدق وما حكاية العقرب هذه ؟ أنا لم أسمع أن فى هذه المدينة عقارب . حتى فى قريتنا كانوا يحذروننا من العقارب لكنى لم أرها . لماذا تظهر لك أنت عقرب سوداء فى الليل ؟ وكيف تراها . . من أنت ؟ أنا لا أصدقك . حتى إنك تعرف عم عباس الطيب . لا أصدق كل حكاياتك . لاأصدق أنه كانت هناك هانم .

قال بهدوء وهو يعود إلى الجلوس – إن شئت . لا أرغمك على أن تصدق شيئا .

ثم صمت ، وراح ينظف مديته بورقة أخرجها من جيبه ، ولما انتهى طواها ووضعها فى جيبه .

قلت – سأنصرف الآن .

- مع السلامة .

لم يتطلع إلى وبدأ يلف سيجارة جديدة وبقيت واقفاً وكنت أرتعش من البرد .

قلت بشىء من التردد – أرجوك أن تدلنى على الطريق . لا أعرف كيف أعود إلى هذه الحوارى التى جئنا منها . أشار بيده إلى الطريق العمومى دون أن ينظر إلى وقال :

- انزل الجبل وامش فى العمار . لا حاجة بك إلى الحوارى .

استدرت ومشيت خطوتين فى اتجاه الطريق ثم عدت وجلست قبالته .

قلت – سأبقى لكى تعرف أنى لست خائفاً منك . وحتى لو كنت قد ربحت كما تقول والورقة معى فلن أعطيها لك . أنا لا أخافك .

لم يرد على ولم ينظر ناحيتى . سحب نفساً من السيجارة ثم قال – أنا لا أشعر بالبرد . إن كنت أنت تريد ناراً فأمامك الأشجار .

ثم أخذ يضحك وهو يقول بصوت خفيض – شاعر ! شاعر !

هممت بأن أقوم ثم بقيت مكانى وقلت – أستطيع أنا أيضا أن أحتمل البرد كما تحتمله أنت .

ثم قلت وأنا أضحك – رغم أننى لست خالدا .

لكنه واصل وكأنه لا يسمعنى – ولكن أى شاعر ؟ لابد أن شعرك عن الشقق النظيفة والواحدة التى ترضى أن تتزوج بك . .

ثم أخذ فجأة يغنى بصوت خشن : شقتى نظيفة . . واسمها نميرة .

شقتى يا شقتى . . أين أين زوجتى . .

وعاد يضحك ضحكاته العالية وهو يقول : خيب الله الأبعد ! . .

قمت غاضباً وأنا أقول – ما العيب فى أن أريد شقة نظيفة ؟

مـا العيب فى أن أريد زوجـة ؟ . . ألا يحتاج كـل إنسان إلى ذلك ؟

كف عن الضحك وقال بهدوء وبطء - إجلس إجلس خيبك الله ! شاعر ؟ بماذا إذن يحلم بائع الطعمية وجرسـون المطعم اللذان يشتريان معك اليانصيب ؟ أن يسافرا حول العالم وأن يكتشفا المجهول ؟ حسبتك بالفعل شاعرا ! خدعتنى للحـظة وظننت أنك تفهم . أنت بالفعل مثلهم جميعاً . مثل البواب وبائع الطعمية والجرسون . .

- اذن فأنت تعرفنا جميعاً ؟ من أنت ؟

لكنه استمر - . . مثلهم جميعاً . مثل هانم التى تنتظر من عشرين سنة أن تكسب ورقة الحمامة وأن تذهب لتحج . .

قلت - هانم !

لم يرد .

قلت - هذه المرأة البدينة العجوز هى هانم ؟ كيف انتهت هكذا ؟

قال وهو يرفع يديه ويقلب كفيه - انتهت نهاية جيدة . بعد أن طعنها عباس عالجها مدحت بك حبيبها رقم واحد الـذى كلمتك عنه ، ثم آواها . كان كلاهما يحتاج إلى الآخر . . هو يحتاج أن يقتنى فى بيته تحفـة قديمـة وهى تحتاج أن تـرجع إلى أصلها . . والآن ها هى معه . . ترعـاه فى وقت حاجتـه . . تصنع ندوراً كثيرة . . تطوف فى الموالد تحمـل أرغفة العيش والفـول النابت . . تحلم أن تكسب ورقـة الحمامـة لتـذهب وتحج . .

حين جلست مدّ لى يده بالسيجارة فأخذتها . .

تنهـد وقال - ولكن لنعـد إلى ما كنـا فيه . قلت لى شقـة نظيفة ؟ حماك الله ! . . وتسألنى ما العيب فى الشقة . .

قاطعته - لنعد إلى هانم !

قال - لا . لنعد إلى الشقة ! . . لا عيب فى الشقة يا سيدى غير أنها يجب أن تكون قصراً . لا عيب فى الزوجة . . ولكن اسمع . . اسمع أيها الشاعر ما دمت تظن أنك تفهم شيئا . ماذا قلت لى ؟ تلك العبارة التى قلتها . . الموت رحلة هينة . يا سلام ! اسمع سأقـول لك سـراً خطيـراً ولكن لا تبح بـه لأحد : الموت ، هو الموت ، هو الموت .

وحين قال ذلك عاد إلى الضحك بصوت مـرتفع فقلت - هذا هو رأيك ، لكنه ليس رأيى .

قال وضحكاته تتلاشى - ليس رأيا ولكنك لابد أن تفهم . اسمع سأعطيك نصيحة فالحقيقة أنك لا تعرف شيئا أبداً ولهذا لا تفلح أبداً اسمع يابنى . الحقيقة أن هذه الحياة فخ . . فخ نتخبط فيه منذ أن نولد والغلطة أننا نحاول الخـروج من هذا الفخ . . بالشعر كما تحاول أنت وقليل مثلك . . بالتصوف كما يحاول غيرك . . ترى عيوناً مسبلة ومتهدلة وميتة قبل الموت . . فى الشهرة أو المناصب كما يحاول آخرون . . يتسابقون ويضعون خططا ويصنعون مكائد صغيرة لكى يصلوا . . وما يصلون إليه فى نهايـة عدوهم هـو ذلك الحـائط الأصم الذى تـرتطـم بـ رؤ وسهم . . رأيت أيضاً من يحاولون عن طريق الخمر والعشق وفى عيونهم نهم لا يرتوى كأنهم يرشفون سر الحياة نفسه . . ورأيت كثيـراً من الأغبياء يتكـالبون عـلى اكتناز المـال واقتناء الأشياء وأنهم ، مثل أجدادنا القدامى ، سيحملون معهم تلك الأوراق وذلك الحديد إلى مقابرهم . . كل تلك أيها الشاعـر محاولات لمخادعة الموت . . لنسيـان أنه يقف هنـاك ، قريبـاً جدا . . ممسكا بخيوط الفخ . . وحين يمد يده فى النهاية فهى نظرة الذعر وعدم التصديق نفسها فى كل العيون : الشعـراء والأتقياء والفجار . ولكن سأعطيك أنا النصيحة . لا تتخبط بين الشباك وأنت . حاول أن تفهم . مأسور ؟ فهمنا . هذه الحياة فخ . ليكن . إذن فانتقم . انتقم طالما استطعت . خذ ما تستطيعه يداك . حاول أيضا ما لا تستطيعه . خذ ، لا لكى تقتنى ولكن لكى تنتقم . استحوذ على النساء ، على أجملهن فقط . لا ، لكى تحب ، ولكن لكى تنتقم . لا تبال بالأوباش والأصفار . هؤلاء طوبى لهم . هؤلاء يرثون الأرض . واذن فإن كان الآن فى أيديهم شىء فخذه . هم لا يعرفون أن يفعلوا شيئا بما فى أيديهم ولكن أنت تعرف : أنت تنتقم . إذن فخذ ، لا تتردد . لا تترك لحظة دون أن تأخذ .

- ولكن لماذا ؟ لماذا أفعل ذلك كله ؟

- هل أنت غبى ؟ ألم تفهم ؟ قلتها لك ألف مرة . هـذه الحياة فخ فانتقم . إن مددت أنا يدى لأصفعك ألا تصفعنى دون تفكير ؟ هذه الحياة كف غليظة . كف تهوى على وجهك منذ مولدك وتدفعك بصفعة واحدة ممتدة إلى القبر . فمد يدك أيها المغفل واصفع هذه اللبؤة . كن أنت أيضا قوياً مثلى . .

- كيف ؟

- كن شريكى . أعطنى هذه الورقة . .

- لماذا ؟

- لكى أستثمرها لك . كم تظن (البريمو) ؟ ماذا تظن أنك

ستفعل به ؟ هو لا يكفى حتى لشقة نظيفة ولا يأتيك بزوجة ترضى بك . ولكنه معى ، كيف أشرح لك . . ستقامر به مقامرة كبيرة ولكنها مضمونة . معك سينقص المال ، معى سيزيد . .

– ولكن ما دام ذلك المبلغ ضئيلا فى نظرك فلماذا تريده ؟ كيف سينفعك ، ولماذا تريدنى أن أثق بك . من أنت ؟ وكيف عرفت أنى ربحت ؟

– أنا لا يخفى على فى باب اللوق دبيب نملة . أعرف كل شىء

– من أنت ؟

– سأقول لك من أنا . أنا سمسار ، مقاول ، تاجر ، ما شئت . شغلتى المال وأعرف جيداً ما أعمله به . حين أخذوا منى الكازينو ، ثم هدموه بعد ذلك ، من أجل الشعب بالطبع ، فكرت وقلت ليكن . الآن يجب أن يأتى المال ولكن دون أن أضعه فى شىء يمكن أن يأخذه منى أحد . أنا وسيط ،تعبر بى الأملاك ولكنى لا أملك شيئا ، غير المال بالطبع .

– ولكنك لم تشرح لى ، مادام معك المال ، فلماذا تريد هذه الورقة بالذات ؟

– لا هذه الورقة بالذات ، ولكن المال . ستفهم ذلك حين تصبح مثلى . المال معى نعم ولكنه حين يزيد ، بأشياء مثل ورقتك ، فإنه يزيد ، وحين لا يزيد فإنه ينقص . ألا تفهم ؟ لا تهتم سوف تفهم ، قلت لك سأستثمر لك مالك . سندخل به مزادات . سنشترى تحفاً بسعر التراب ونبيعها بالذهب . لا أحد فى مصر يعرف قيمة الأشياء مثلى . اسأل عنى إن شئت . ربما لا يحبنى أحد فى باب اللوق ولكن الكل يعرف من أنا . سنشترى أرضاً رخيصة ونبيعها بأضعاف ثمنها . أشياء كثيرة سنفعلها ، وكلها بالقانون . سأعطيك إيصالات وستأخذ حقك كاملا . ستعرف معنى أن يكون معك مال يزيد لا مال ينقص . وساعتها ستصبح قوياً . لن تحتاج لملاليم الوظيفة وستتفرغ لمواجهة الحياة . ساعتها ستجد ألف واحدة ترضى بك وحين تقول لهن شعرك فسيجدنه جميلا حتى ولو كان عن الشقق النظيفة وقطتى نميرة . سوف تنتقم .

سكت الرجل الأشيب ، وبقيت أنا أيضا ساكتاً أتطلع إلى الطريق السفلى الذى كان يعلو فيه الآن هدير قافلة من سيارات النقل تمر بطيئة ومتتابعة وهى تزدحم فى مقدمتها بأنوار ملونة وتضىء كشافاتها القوية جوانب الجبل والمقابر .

قلت وأنا أضحك ضحكة صغيرة وبعد أن أصبح قوياً فسيأتى الموت ، أليس كذلك ؟ وأنت أيضاً أيها الخالد ، سيأتيك الموت . .

– سيأتينى الموت حين أطلبه .

– ليكن ، فماذا ستفعل ؟ ألن تكون فى عينيك أنت أيضاً نظرة الذعر وعدم التصديق نفسها ؟

قال بهدوء – لا ، عندما أطلب الموت ويأتينى فسوف أدخر بعض القوة لكى ألقى ببصقة .

– قلت – أما أنا فقد شاهدت فى الدنيا شيئا آخر . شيئا لم تعرفه أنت .

– أظن أنى شاهدت فى الدنيا أكثر منك قليلا ، فماذا عرفت أنت ولم أعرفه ؟

– عرفت أبى . كان فلاحاً وكان يملك أرضاً صغيرة . كان يخرج كل يوم فى الصباح ليعمل فى أرضه ويبقى هناك طول النهار . أحياناً كثيرة كان أيضا يسهر الليل ليحرس زرعه ولكنى لم أسمعه يوماً يشكو . لم أر فى عينيه دموعاً إلا يوم ماتت أختى . وبعد أن دخلت أنا الجامعة بقليل أصابه مرض فى ساقه أقعده . أصابته جلطة لم نكن نملك لها علاجاً إلا أن ينام فى الفراش . صرفنا ما معنا وأجرنا الأرض لسنوات كثيرة مقبلة وتركت الجامعة واشتغلت . وكان هو فى فراشه يعتذر لنا لأنه يسبب هذه المتاعب ، وحين يأتيه زوار يحاول أن ينهض من فرشه كما ينبغى لهم من الاحترام . لا يتظاهر بذلك بل يحاوله فعلا فيحلفون أيمانا ويدفعونه بأيديهم بالقوة ليظل كما هو . اشتريت له راديو صغيراً فكان يضعه بجانب أذنه ، لا تكاد تسمع له صوتاً . لا يكلم أحداً إلا إن خاطبه أحد . يحمد الله دائما . إذا أراد أن يطلب من أمى شيئا ونادراً ما كان يطلب ، لا يقول هاتى هذا أو افعلى كذا . يقول هل تذكرين فى العام الماضى حين أكلنا الشىء الفلانى ؟ أو يسألها إن أراد أن تسنده ليجلس خارج الدار ، هل أخرجت الكتاكيت فى الشمس يا أم فلان ؟ شمس اليوم دافئة . . أحياناً كانت أمى تبكى . تقول له أنا امراتك وخادمتك . . لم لا تأمرنى بما تريد ؟ فيدعو لها وتدعو له . لم أسمعه مرة يكلمها عن الحب ولا سمعتها هى تتكلم عنه ، ولكنها حين كانت تساعده على أن يلبس جلبابه ، حين تسند ظهره لتسقيه ، حين تدلك له ذراعه وقدميه بأصابعها الخشنة المتشققة بتلك التشققات المسودة قرب أظافرها فقد كانت هذه الأصابع تنطق شيئا يتجاوز الحب نفسه . وعندما جاء أبى الموت كنت إلى جواره . لم أر فى عينيه ذعراً بل كانت

على شفتيه ابتسامة جميلة . اعتذار نهائى لما سببه لنا من إزعاج وألم ، ولكن كان فى عينيه رضى وسلام . .

وحين سكت قال الرجل الأشيب - ما معنى هذه القصة ؟ .
- إن لم تفهمه فلا جدوى من أن أشرحه لك .
- معذرة لغبائى ولكنى فهمت من قصتك شيئاً آخر . فهمت أنه لو كان معك مال لاستطعت أن تعالج أباك ، أن تخفف آلام مرضه على الأقل ، ألس كذلك ؟ .
- ربما .
- ألا تشعر أنك لو كنت قوياً لاستطعت أن تساعده هو وأمك ؟ .
- فعلت ما استطعت . وكنت أحبه . كان هو يعرف ذلك وكان يسعده .

أخذ يضرب كفاً بكف وهو يقول - الآن بالفعل أفكر أن أقتلك ! . . هل كنت أكلم الهواء طول الوقت ؟ ألم يدخل رأسك شىء ؟ ألم تفهم معنى ما قلته لك ؟ . . أما أنا فقد عرفت الحقيقة منذ عرفت ما هى الدنيا . كنت فى البداية ساذجاً مثلك . كنت أذهب إلى مدرسة راقية وأقرأ أشعاراً وكتباً وموسيقى وكل هذه الأشياء . كان أبى تاجراً غنياً وكنت ولده الوحيد أطيعه وأطيع أمى وأذاكر دروسى وألعب الرياضة فى الصباح وأغسل أسنانى بالمعجون كل ليلة . ولكن ذلك كله لم ينفع . ذات يوم جاءت جارة لى وأخذتنى من المدرسة . قالت أبوك جرح فى حادثة سيارة . ولم يكن هذا صحيحاً . الصحيح أن أبى وأمى ماتا معاً فى حادثة السيارة . كنت فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وكانت جارتنا هذه أوروبية فى حوالى الخمسين . وحين صفّوا تركة أبى لم يبق لى شىء غير هذه الشقة الواسعة فى باب اللوق ، لا أملك حتى إيجارها . كنت وحيداً تماماً . ولكن جارتى تولتنى . كانت تملك الكازينو ، وقالت لى إن شئت أن تكمل تعليمك سأصرف عليك . وإن شئت علّمتك الحرفة . وهكذا ذهبت إلى الكازينو . ظن الناس أننى قريبها أو ابنها ولهذا كانوا يقولون لى ياخواجه . وقالت لى دعهم يقولون ذلك . هذا ينفع . فقد كان الخواجات أيامها يخيفون . وعلمتنى جارتى أول دروسى : قالت لا تتعلق بامرأة فى الكازينو مهما كان جمالها . أترك الناس يحبون ويسكرون ويقامرون إن شاءوا . أما أنت فلا تفعل ذلك . قالت إن أردت أن تنجح فى الدنيا فلا تتعلق بشىء لكى تملك كل شىء . ووعيت الدرس ، فحين تركت جارتى البلد بعد ذلك بسنين كان معى من المال ما يكفى لكى أشترى الكازينو . وساعتها قالت لى الآن أنا سعيدة لأنك تعلمت كل شىء . الآن لا أخاف عليك . وبالفعل كنت قد تعلمت القوة ، قوة أن يملك الإنسان . لا أقصد المال بالطبع . وإن كان ضرورياً وإنما أن تملك فتصير حراً وتصير قوياً . أن تكون سيد نفسا فتستطيع أن تنتقم من الدنيا بأن تفعل ما تشاء . ولا تحسبن أيـ الشاعر أن هذا شىء سهل ، فما أقل الأقوياء فى هذا العا وما أكثر الأوباش . كنت فى شبابى من النوع الذى تحبه النسـ فاخترت منهن ومتعت نفسى كثيراً ، غير أن واحدة لم تملكنى .

ثم جاءت هانم . كانت شيئاً جديداً علىّ ملكتنى بالفعل ولم أملكها . كانت لعبة صغيرة وجميلة بينى وبين هذا الفخ الدنيوى . تمنّعت علىّ ؟ هذا جميل . الحصول عليها بعد ذلك أجمل . كل إنسان يعرف أن النساء حين يرتمين دون مقاومة فلا لذة فيهن ، وأنه بقدر صعوبة الحصول بقدر ما تكون اللذة . تحب عباس ؟ تتمسك به ؟ تعيش جارية له ؟ ليكن . سنرى . ذات صباح ناديت عباس لم يكن يشك فى شىء . جاء وديعاً ومطيعاً كعادته حين كان يقف أمامى . يشبك أصابع يديه المرتخيتين أمام جسمه ويحنى رأسه حين أكلمه . وتظاهرت أنا بغضب لم يفهم له سبباً . قلت له ياعباس من الليلة لا تأت إلى هنا . لم أعد أريدك . قال لماذا ؟ فلفقت له شيئاً . تقصيراً من نوع ما ، مشاجرة فى الكازينو لم يفضها ، أوشيئاً ضاع ولم ينتبه إليه لم أعد أذكر الآن ماقلته . ولكنى أذكر كيف ظل واقفاً أمامى يتمتم ويرفع يده إلى صدره وإلى رأسه وإلى رقبته ويقسم ويقول أشياء . وأذكر أنه هجم على المكتب وقبّل يدى وأنه بكى . قلت له ياعباس . أنت تعرفنى . كلمتى واحدة : خذ ما تستحق هذا الشهر وانصرف . ومضت أيام . كان يأتى كل ليلة ويقف بقامته التى تشبه جذع الشجرة على الرصيف المقابل للكازينو . يرفع يده ليحيينى حين أدخل الكازينو ، وعندما أخرج فى الفجر أجده مازال واقفاً هناك فأتظاهر أنى لا أراه . ودبرت كل شىء مع أصحاب الكازينوهات . كنا نتبادل هذه المجاملات الصغيرة : لانسطو على الأرتيستات ولا على العمال من الكازينوهات الأخرى إلا إن وافق صاحب الكازينو الذى يعملون فيه . وهكذا لم يجد عباس أحداً يعمل عنده ، وأيامها كان صعباً أن تجد العمل ، أى عمل . وكنت أعرف عباس كما أعرف هانم كما أعرف راحة يدى . عرفت بالضبط ما سيفعل . عرفت أنه بعقله الصغير الغبى سيرفض أن تصرف عليه هانم مهما كان ما تكسبه هى ، فهو الرجل ، الفتوة ، الشهم . .

وانتظرت . تركت هانم أيامها تماماً . لم أكن أغادر مكتبى فى الكازينو . أسمع الطبل وأسمع العود وأتخيل ما تفعله مع تلك الدقات الخافتة على الطبلة ، مع ذلك التردد العالى على وتر العود . أرى ساقيها الطويلتين يتحركان ويدوران ، شفتيها

المتوردتين تنفرجان وهى تلهث والعرق يسيل على وجهها . ربما هى الآن تخرج لسانها وهى ترقص فتلحس هذا العرق من على شفتيها أو تمد يدها وتمسحه من صدرها اللامع . أرى كل ذلك وأنا أغمض عينى فى مكتبى وأنتظر . أعرف متى ستنتهى النقود من يد عباس . أعرف متى سيرفض ما تعرضه عليه من مال . أعرف متى سيتشاجر معها ومتى سيطردها من غرفته . وأعرف متى ستجىء هانم . نعم ، تماماً ، ها أنا أسمع الطبلة والعود أسرع من كل ليلة . أسمع صرخات الجمهور وآهاته أعلى من كل ليلة ، وها هو الرقص ينتهى مبكراً ليلتها . نعم ، تماما . . ها هى . . فى الخارج يعلو الصراخ « نانا . . نانا » والباب يفتح وهانم تدخل . تدخل المكتب وتغلق وراءها الباب . منفوشة الشعر . يغمر العرق صدرها المشقوق الذى يلهث ويشهق . ترتمى جالسة على الكنبة التى تواجه مكتبى . . تمد ساقيها أمامها تحاول أن تستجمع أنفاسها وهى تتطلع إلىّ بعينيها الواسعتين بنظرة ثابتة طويلة . لاتتكلم ولا أتكلم . هى تفهم وأنا أفهم . ولكن فجأة تختلج الأهداب السوداء الطويلة ، وتلمع العينان بدموع تطفر فيها وتقول فى نفس واحد « ستعيد عباس » ؟ ولكننى أقول لها وأنا أرفع أصبعى « عندما أريد » .

هكذا جاءت إلىّ ياسيدى . حزينة على نفسها ودموعها تبلل خديها . ولكن هانم لم تكن تعرفنى . لا ياسيدى ، ما كانت تعرفنى قبل تلك الليلة . لقد كنت ملكاً فى الحب . أنا لا أعرف كيف كان عباس الجلف يحبها . ولكنها معى عرفت حباً آخر غيرحب الأوباش . حباً يليق أيضاً بملكة . خضت معها بحاراً لم تعرفها من قبل ولا سمعت بوجودها . وفى تلك البحار كان شراعها البكر الجميل يرفرف بسعادة ما حلمت هى أنها فى هذه الدنيا وكنت أراقب الدهشة والفرحة فى عينيها يوماً بعد يوم . أراقب النشوة فى جسمها وهى ترقص كل ليلة ، خفيفة ، سكرى بسعادتها كأنها تريد أن تنفض عنها كل شىء غير ذلك الفرح الجديد الذى تحمله فى داخلها ، فلم تعد جسماً ولا وزناً ، بل فرحة خالصة تشف وترقص وتتحول ضياء وألقا يلقى فى المشاهدين نوراً ونعمة من قبل ما عرفوها فيصيبهم بالفعل مس وهم ينادونها وقد تجسد أمامهم للحظة ذلك السرّ ، تلك الحياة ، تلك الحقيقة التى قضوا حياتهم يبحثون عنها فلم يجدوها ، ولكنها الآن هنا ، أمامهم ، مرة واحدة ، للحظة من عمرهم . وحين ينتهى الرقص وأسبقها إلى المكتب ، تأتى ورائى ، تلمع عيناها ويرتجف جسمها ، تنحنى وتركع . وتقبل يدى وتلعقها وتمرّغ وجهها فى جسدى كقطة متوسلة .

وعندما كفت هانم عن السؤال عن عباس ، أعدت عباس .

لم أقل لها شيئاً لكنها فوجئت به ذات ليلة وهى تدخل يتجول فى الكازينو . جاءت وسألتنى بنظرة خائفة « أعدت عباس ؟ » قلت نعم ، والآن أنت تعودين إليه قالت : كيف ؟ قلت : هكذا . ما بيننا أنا وأنت انتهى . ارجعى إلى عباس . ثم تغيبت أياما عن الكازينو ، حدث فيها ما حدث .

- حكيت لعباس ما كان بينكما وأوعزت له بالانتقام منها ؟
- مطلقاً . لم أقل له كلمة . فقط أعدته إلى العمل .
- ولكنك كنت تعرف ما سوف يحدث .
- كنت أعرف أننى انتهيت من هانم .
- أو ربما كنت تعرف أنك يجب أن تنتهى منها .

- وإلا فإلى ماذا كنت أصير أيها الشاعر ؟ واحداً من الأوباش ؟ أفعل مثل عباس ؟ أنتهى مثله ؟ أحمل صندوقاً فى يدى وأسرح فى المقاهى ؟ كانت تجيئنى أخباره وأخبارها . لم تصدق هانم فى البداية ماحدث . ظنت أننى أختبرحبها لى . ورفضت أن تعود إلى عباس ، ثم انتظرت أن أرجع . وبينما كانت تنتظر وبينما كان الأمل يذوى فى داخلها كان رقصها أيضاً يذوى ليلة بعد ليلة . طار السحر ورجعت هانم العالمة . تهز أردافها ، ترجرج صدرها ، تعرى ساقيها ، تتحرك شاردة ولا تكاد تخطو على إيقاع ولا نغم . وكانت الناس تتطلع فى دهشة ، ماذا جرى ؟ أين هانم ؟ لم يعرفوا أن هانم ماتت . إنه كان أيسر أن تنادى أنت أختك فى المقابر فتعود إليك عن أن ترجع هانم التى كانت . ولكن عباس لم يصدق . كان يقف هناك فى تلك الليلة يتطلع إلى هانم التى وقفت على المنصة صامتة ، مفرودة الذراعين شاردة بينما تتابع الطبلة إيقاعاً خافتاً ولكن مستمراً ، تحاول الطبلة أيضاً أن توقظها ، أن تستردها ، وهانم تقف هناك ، جثة ممشوقة مفتوحة الذراعين ولكن بلا حركة . فجرى عباس ، جرى إليها ، صعد إلى المنصة ، أمسكها من كتفها ، راح يهزها ، راح يصفعها ، راح يرفعها عن الأرض ويلقى بها ، يرفعها ويلقى بها ، وهو يقول ارقصى ، ارقصى يافاجرة . . وحين أوقفها على قدميها بعد ذلك كله تطلعت إليه هانم صامتة بعينيها الواسعتين ثم مدت يدها ، ثم شقّت فتحة ثوبها ، ثم ضربت صدرها العارى وقالت وهى تضرب لحمها ضع فى جسمى رقصاً ياعباس . . ضع فيه رقصاً ، فجذبها عباس من شعرها الطويل ، ثم أمال رأسها ، ثم حزّ رقبتها . .

سكت الرجل الأشيب وسكتّ أنا أيضا . .

بعد فترة قلت - الآن أصدقك .

- ماذا تصدق ؟

- إنك لم تحب هانم أبدا . إنك عملت بوصية جارتك ولم تحب شيئاً أبداً .

- رددت للدنيا صفعتها .

- وكذبت على حين أوهمتنى أنك أحببت هذه المدينة يوماً وأنك أحببت باب اللوق ولكنى الآن أعـرفك . نعم ، كيف فاتنى أن أعرف ذلك منذ البدء ؟ ألم تكن أنت الذى قـطعت الأشجار فى المدينة ؟ ألم تكن أنت الذى هدمت بيوتها الصغيرة الجميلة ؟ .

- ضحك وهو يقول - أنت مجنون . أنا لم أقطع فى حياتى غصناً ولا هدمت طوبة .

- نعم ، تماماً كما أنك لم تذبح هانم بيدك .

- وماذا جرى لهانم ؟ . . رجعت لأصلها ، أليس كذلك ؟ نسيتنى ونسيت عباس ولعلها نسيت كيف كانت هى نفسها فى تلك الأيام البعيدة . نلتقى كلنا فى باب اللوق فلا يكلم أحدنا الآخر : ربما كل سنتين أو ثلاث سنوات تتطلع فى وجهى وهى تمشى فى الطريق تجر جسدها الضخم وتحمل فى يدها دجاجة أو كيس فاكهة فتقف وتتفـرس وجهى وتقول « كيف حـالك ياخواجه ؟ » كأنها تحاول أن تتذكر من أكون . نعم ياسيدى ، هذه هى هانم ، هذه هى النهاية التى جئت إلى هنا لتسمعها . والآن فأنت تعرف كل شىء . أليس كذلك ؟ ها هو كل شىء قد قيل - عرفت كيف ينتهى من تصفعهم الدنيا ، وماذا عليك أن تفعل لترد للدنيا صفعتها . فماذا اخترت ؟ .

- تقصد الورقة ؟

- أقصد ما هو أكثر ، ولكنى الآن أقصد الورقة . نعم . .

- لا أستطيع أن أعطيها لك . نعم ، أنا أصدقك . أصدق انك تستطيع أن تفعل بها ما لا أستـطيعه أنـا . أصدق أنـك تستـطيع أن تـربح لى مـالا كثيراً وأنها معـك ستـزيـد ومعى ستنقص ، ولكنى لا أستطيع . . .

- فإن كنت تعرف كل ذلك ، ألا يكون غباء أن ترفض ؟

فقلت وأنا أقوم وأضحك ضحكة صغيرة - أظن أنى واحد من الأوباش .

تنهد وقال - نعم ، أنت لم تكذب .

- قلت - وهل تريد أن تعرف شيئاً آخر ؟ أظن أننى أريد أن أبقى واحداً منهم . سلام .

استدرت وأخذت الطريق إلى منحدر الجبل وعندما ابتعدت خطوتين نادانى . . قال : أيها الشاعر . .

التفت إليه . كان يجلس وهو يعتمد بيديه على ركبتيه وقد أحنى رأسه وانسدل شعره الأبيض الناعم على جانبى وجهـه وكان يضحك ضحكات خافتة ثم قال وهو يهز رأسه دون أن ينظر الىّ . .

- أيها الشاعر سوف تبحث عنى وستعود الىّ .

قلت وأنـا أقف مكانى - ومن يـدرى ، ربمـا بحثت أنت عنى . .

فقال - لا أظن .

عدت أمشى وكانت النجوم قد بدأت تنسحب من السماء وبدأ غمام أبيض يصبغ الليل . ومن وسط المقابر صاح ديك .

القاهرة : بهاء طاهر

إدوار الخراط | السحاب الأبيض الجامح

عدت إلى شارع راغب باشا . كان الكوبرى الصغير مفتوحاً ، ومياه ترعة المحمودية تحته حمراء ، وكنت أعرف أنها تدور حول قوائم الكوبرى فى دوامات متقلبة .

كنت أقف فى أول عربة من عربات الكارّو الطويلة ، قدمان متشبثتان بالخشب ، خلف الحصانين القويين بينهما قائم التعريشة الطويلة ، أرى الذيول المقوسة مليئة بالشعر الأشقر ، والكفلين الدائريين بلونهما الأصهب عليهما ندى لامع من العرق ، الرأسان بعيدان ، محنيان ، فى الأمام ، أسمع الحمحمة الغضوب المكتومة بجهد .

من كان إلى جانبى يمسك بالأعنة ؟ وجوده ملىء بالسيطرة والتحكم ، لكنى لا أكاد أراه مع ذلك ، أعرف فقط أنه إلى جانبى فى نور الصبح تحت سحاب الإسكندرية الوضىء الرقيق الذى ينساب بسرعة فى السماء الصافية .

كنا نقف أمام وابور الدقيق ، أحجار جداره العالى باللون الأحمر الكابى ، تقطعه شبابيك طويلة عليها قضبان حديدية رفيعة سوداء من ورائها عتمة الداخل التى تصدر عنها أصوات الماكينات تدق دقات مسدودة الصدى بإصرار .

وكنت أعرف أننى تركت غيط العنب وشارع راغب من زمن بعيد وأننى مع ذلك مازلت هناك .

كانت العربة محملة بالشوالات البيضاء ، تفوح منها رائحة الدقيق المطحون حديثاً ، أمام الباب المكون من ضلفة حديدية واحدة عريضة بعجلات تنزلق على قضيب فى الأرض ، وعلى الرصيف ميزان قبانى ضخم ليس على أرضيته المعدنية الرصاصية اللون شىء . ذراعه الطويلة محدودة ومائلة فى آخرها الصنجة الحديدية مدورة من الجانبين وحافتها العلوية - والسفلية - مقطوعة وحادة .

وكان آخر الحمالين يضع آخر الشوالات على آخر العربة . كانوا سمر الوجوه ، صخريين ، يرتدون شوالات فارغة ، من الخيش ، مقصوصة من الجانبين ، تبرز منها الأذرع الناحلة المفتولة ، عارية حتى الكتف .

كنت أعرف أن الباب يفضى إلى طرقة طويلة مبلطة تقف الى جانبها الغرابيل الاسطوانية الضخمة ، فى الظل ، تحت سقف مائل من الحديد المموّج ، وأن أشعة الشمس تسقط فى أعمدة مخروطية تتسع إلى أسفل وتقطع العتمة وتطير داخل هذه المخروطات من النور ذرات الدقيق الدقيقة المتقلّبة لا تنقطع عن الصعود والهبوط والدوران . وإلى اليسار كنت أرى الماكينات والتروس الدائرية الكبيرة والأقماع المفلطحة الفوهات والسيور الجلدية العريضة التى تتوتر مشدودة ممتدة فى الفراغ حتى تصل إلى الطارات الدوارة فتحتضنها وتدور معها ، والمواسير الضخمة فوق الطرقة تربط بين البناء الرئيسىّ وبين الغرابيل التى تهتز فى عتمة العنبر المستطيل .

كانت أمى ترسلنى إلى الوابور أشترى كيلة دقيق ونصف كيلة ردّة ، من كشك خشبى أخضر اللون من داخل الباب ،

فيه صعيدى عجوز مكسور الأسنان يضع على رأسه الجاف عمامة بيضاء وحول رقبته كوفية صوف ، صيفاً وشتاءً على السواء . وكان يكيل لى الدقيق والردّة ، بجاروف حديدى كبير ، كلاً منهما فى صندوق خشبى عال مائل الفتحة ، ويضعها فى كيسين من الورق الأصفر الداكن ، أحسّ بثقلهما على ذراعىّ ، وأنا أحملها إلى صدرى ، وبقليل من الخجل .

ولكن الكوبرى كان مقطوعاً والترام يلف القضبان الدائرية ويعود ، وعلىّ أن أنتظر حتى يقوم حسين أفندى بإغلاقه ، فأعبره ، وأسير قليلا فى شارع الترام ، وأنعطف يمينا إلى بيتنا فى شارع الكروم .

وكان يسحرنى دائما دوران التروس الحديدية ، المعشقة تحت جسم الكوبرى ، وانطباق أرضية الكوبرى إذ تنزلق ببطء حتى تلتقى بأرضية الشارع ، بإحكام ، لايبقى بينهما إلا خط دقيق جدا كالشعرة ، أرى منه ماء المحمودية يبرق وينساب بسرعة .

وكانت بائعات الفجل اليانع العريض الورق برؤوسه الباهته ، والليمون البنزهير والمش فى قصاعه البنية الصغيرة والبصل الأخضر والكرات المرشوش بالماء ، يجلسن على رأس الكوبرى ، على التراب ، بملابسهن السوداء ، والطرح المغبرة التى تنتهى بربطة عمامة مربعة على الرأس ، ويرضعن أولادهن الذين ينامون وقد انطبقت أفواههم على أثداء مكشوفة متهدلة من شق طولىّ فى جانب الجلابية الواسعة .

كنا نسكن فى الدور الثالث من البيت ، وأمامنا السطح الذى كانت أمى تربى فيه البط والفراخ ، وتربط خروف العيد . وكان للسطح سور قصير أشبّ برأسى فوقه لكى أطلّ على حديقة كثيفة مستطيلة الشكل ، ضيقة ، محصورة بين حائط بيتنا وحائط البيت المجاور ، وفيها نخل ترتفع شواشيه حتى تستند الى الحائط العالى المقابل ، وتحته زرع غامض وأصص ريحان وعتر متزاحمة ، وكان للجنينة باب داخلى يفتح على الشقة التحتانية ، وليس لها باب على الشارع .

وكان حسين افندى يسكن فى الشقة التى تحتنا مباشرة ، فى أول كاط ، وكان أحمر الوجه دائما ، قصير ومدمك وله كرش صغير ، ويلبس الطربوش المكوى على الزاوية الصحيحة دائما ، ويمسك بعضا من خشب الجوز اللامع ذى العقد . وكنت أراه فى بيتهم أحيانا بالجلابية البيضاء النظيفة وكان يضحك معى ويعاكسنى ، بطيبة قلب ، بصوته الأجش المرح .

لم يكن عنده أولاد ، وكانت زوجته الست وهيبة صديقة أمى جداً ، وكانت تقول لها أحياناً إن نبيهم أوصاهم بنا وأن عيسى نبينا هو أيضا رسول من عند الله مثل موسى وإبراهيم ، وكانت أمى تحلف لها أحيانا بالمسيح ابن الله الحىّ ، وكانتا تضحكان معاً على أشياء لا أعرفها يقولانها بهمس ، وتنتهى زيارتها اليومية لنا بأن تقبلّ إحداهما الأخرى وكنت أستغرب قليلا لأنهما تضعان الخد بإزاء الخدّ ، وتمصمصان بالشفتين تضمانهما على شكل التقبيل تماماً لكنها ليست قبلة بالفعل .

وسمعت أمى وست وهيبة تتحدثان همساً عن السكان الجدد الذين جاءوا فى الشقة التحتانية المطلة على الجنينة وسمعت الست وهيبة تقول إن ذلك فى وجهنا ويجب أن نفعل شيئاً .

كانت الشقة التحتانية دائما مغلقة الشبابيك ، وكنت وأنا أعود من المدرسة أرى الباب مواربا قليلا وألمح وراءه حسنية .

كنت أراها ، نحيلة ، شعرها الحالك مربوط بمدورة بيضاء ، وصغيرة الجسم ولا تكبرنى ربما إلا بسنين قلائل ، وأحس أن فيها شيئاً ما يجذبنى وأحبه جداً .

كانت تجلس على كرسى خيزران أمام مائدة رخامية واسعة القرص عليها مفرش أبيض مخرم ومشغول ، وهى فى قميص نوم واسع عليها وقصير لايصل إلى ركبتيها ، مفتوحة الرجلين تمدهما أمامها بتعب واسترخاء . وعند ما تحس بى تستدير بوجهها إلىّ من العتمة الخفيفة التى فيها نور خافت كأنه أخضر اللون يأتى من باب الجنينة الداخلىّ ، وأنا فى الفسحة الرطبة البلاط بعد الباب الخارجى ، أمام الدرجة العريضة الأولى من السلّم ، أرى عينيها الواسعتين فى وجهها الحاد المخروطىّ العظم ، منتفختين ولكن حاجباها كانا مقوسين ورفيعين جداً على محجرى العينين .

وكنت أرى أمها الكبيرة فى السن ، قوية الجسم وسمينة جداً تخرج من البيت بعد الظهر ، لا تلبس ملاية بل دائما بفستان مشجر واحد وفى إحدى ساقيها خلخال غليظ من الفضة يحبك كاحلها المتورم على الشكربينة القماشية ذات الكعب المنخفض .

كانت حسنية ، فى الأول ، تومىء لى برأسها ، على سبيل التحية ، فأجرى أصعد السلالم ووجهى أحسه ممتلئا بالدم لا أعرف إن كنت قد رددت عليها التحية أم هربت .

وفى مرة أشارت إلىّ تدعونى بإصبعها ، برفق ، فخطوت إليها متردداً ووقفت خارج باب شقتها ، وكانت فى قميصها الواسع القصير ، من نسيج حريرى أبيض له وبرة ناعمة ممسوحة من القدم وكثرة اللبس .

قالت لى : تعال ياحبيبى ، تعال

بصوت مبحوح كأنه مدعوك قليلاً

وقالت : تروح تشترى لى باتنين مليم كراملة من عند حسنى البقال ؟

أومأت برأسى موافقاً ، وكان ريقى قد جف ، وجريت بسرعة ، ومعى كتب المدرسة ، وفى غمضة عين كنت قد عدت ، فقامت إلىّ ، وأعطتنى حبة كراملة برتقالية اللون ، سداسية الأضلاع ، وعليها وجه «أبو الهول» فتياً وله لحية، بارزاً ونصف شفاف . وفجأة مدت ذراعها الرفيعة وضمت رأسى إليها ، ووقع وجهى تحت ثديها الحرّ الذى أحسسته لدناً ومتماسكاً وصغيراً وضغطت رأسى إلى أضلاع صدرها اليابسة من فوق القميص اللين النسيج .

وأفلت منها ، وقلبى يدق وأنا أصعد السلم جرياً .

فقالت أمى ضاحكة منى وهى تفتح الباب : مالـك ؟ هو أنت شفت عفريت فى عز الظهر ولا ايه ؟ ادخل اغسل وشك ادخل . .

واحتفظت بالكراملة ، لففتها فى ورقة فضة ، ووضعتها فى علبة دخان الغزالة الذى كان جدى يصنع منه سجائره اللف ، والتى كنت أحتفظ فيها بكنوز طفولتى : عظمة كعب بيضاء ، وقوقعة ملفوفة الطبقات من الشاطبى ، وخمس بليات رقراقة الألوان كالجواهر المخططة المشللة بالأزرق والأصفر ، وزلطة رمادية ناعمة الجسم ، وشرائح من فيلم اسود أحبها عليه صور متعاقبة لتوم ميكس على حصانه لا تكاد تتغير مع أنه يجرى . وظللت احتفظ بقطعة الحلْوى حتى بعد أن ذهبت حسنية ، وبعد أن بهت لونها البرتقالى وساحت حواف صورة أبى الهول ، ثم أكلتها غاضباً .

كنت أحبها وكنت أيضا أخاف من شىء ما مكتوم فى همود جسدها الرفيع المهدود .

قالت لى مرة ، وهى لا تنظر إلىّ ، إنها تسافر فى الليل ، وتروح بعيداً جداً وأن سفر الليل متعب ولا تطلع له شمس .

وخيل إلىّ أننى فهمت وأنها ربما تذهب إلى محطة مصر وتقضى الليل مسافرة فى القطار وتعود قبل الصبح . وكنت أصدق هذا وأعرف فى الوقت نفسه أنها لا تترك البيت أبداً .

وقالت : ربنا يتوب علينا من سفر الليالى .

وكنت فى تلك الأيام أقرأ الكتاب المقدس الكبير بغلافه الأسود المنقوش بزخرفة بارزة قد بهتت قليلا ، من الجلدة للجلدة ، بإصرار ، الإصحاح بعد الإصحاح . وكنت لا أفهم كثيراً تعقيدات العهد القديم والأسماء الكثيرة فيه ، وأحلم مع نشيد الإنشاء وأبكى كثيراً عندما أقرأ عن صلب المسيح وكيف تعذب ومات على الصليب من أجلنا . وكان سر المسيح يمض قلبى ويحمله عبئاً لا يعرفه أحد .

وكنت أنزل عند ست وهيبة أستلف من عندهم روايات روكامبول وفانتوماس وجرجى زيدان ونقولا رزق الله ، التى كان يشتريها سى حسنى أخ حسين افندى ويضعها فى سحّارة خشبية صغيرة جنب سريره . وقرأت من عنده رواية سافو فى طبعة كبيرة غلافها رمادى كالح وعليه اسم المؤلف بالمطبعة بالبنط الثلث الطويل القائم العود . وأشعلت الرواية حواسى وازدحم بها خيالى .

كان سى حسنى عنده وكان بقاله على قمة الشارع الآخر الذى تطل عليه شرفة بيتنا ، وكان طول النهار فى دكانه . وكان طويلا وسليما وخشن الشعر ولم يكن يكلمنى كثيرا . كانت ست وهيبة هى التى تعطينى كتبه ، وأحيانا تتركنى أدخل لكى أفتش فى السحارة وأنتقى ما أريد ، وهى تقف ورائى بجلابية النوم الخفيفة ، ممتلئة الجسد ، وأنثوية ، وصدرها وافر وأسمر وناعم الجلد آراه من فتحة الجلابية ، عالياً عنى ، يهتز بثقل واطمئنان .

كان لدخول البيت عندهم ، دائما ، رهبة فى قلبى ، إحساس مثير ووجل وسعيد كأن فيه إثما ومتعة ، إحساس بالجو السرّى الخاص لبيتهم ، وأنهم ينامون ويأكلون ويعيشون معا ، مجهولين ، بطريقة لا أعرفها ، وعيب أن تعرف ماذا يفعلون ، فى ملابسهم التى لاتراها أبداً خارج البيت . ولما كانوا مسلمين أيضا فقد كان فى ذلك عنصر آخر من عناصر الستر والرهبة والغموض الجذاب .

كنت ألمح حسين افندى نائما أثناء النهار ، على السرير الكبير فى الغرفة الأخرى ، تحت غرفة أبى وأمى ، استعدادا لدورية الليل عندما يقوم ليفتح الكوبرى . وكانت ست وهيبة عندما أدق الباب تفتح الشراعة الزجاجية وترانى وتردها وتفتح لى الباب وأعرف أنها خارجة من عنده ، أنفاسها متسارعة قليلا ووجهها الطيب مضرج السمرة وهى تسوّى شعرها الخشن الوحشىّ الشكل بذراعها الملفوفة فيظهر لى جانب صغير خفى من صدرها بين الإبط والثدى عندما أرفع إليها عينى ، وتقول لى : يوه الله يجازى شيطانك ياميخائيل ، عايز كتاب ثانى ؟ هو أنت ماتشبعيش روايات ؟ تعال ياحبيبى ادخل . وكانت لها

عندئذ رائحة خصيبة ومليئة كرائحة العجين الخمران ، فأدخل بسرعة وأنا خجل ومستشار ، وأسأل نفس ترى أين هو شيطانى وكيف هو ؟ وأنسى ذلك كله وأنا أقلب فى الكتب ، ومازالت رهبة الدخول إلى شقق الغرباء عندى حية حتى الآن ، وكأننى أخطو الى عالم آخر ينذرنى ويناديني،ويصدنى معاً بما يحمل من خطر .

فى يوم مسح السلالم كانت أمى تملأ الجردل الحديدى بالماء من حنفية الحمام ، وتحمله إلى البسطة وتصبّه فيتدفق على درجات السلّم وهى تنزل بصوت التطام متكرر بهيج ، ثم تقعى على رجليها تمسحه بالخيشة الداكنة سلّمة سلّمة حتى باب الست وهيبة التى تكون تنتظر وهى تضحك وتقول : ياختى حاسبى ياست أم ميخائيل ، على مهلك شوية ، عينى عليك باردة ، ثم تنحنى وهى ترفع طرف جلابيتها البيتى عن ساقين ممتلئتين سمراوين وهى تنظر إلىّ بخجل أراه غريباً جداً ، وتكمل المسح حتى الشقة التحتانية وتتأخر الست أم حسنية كثيراً فيظل الماء محصوراً فى برك صغيرة عكرة على البلاط ، وبعد الغداء فقط عندما أنزل لشراء حاجة أرى مدخل البيت والبسطة التحتانية تلمع ورطبة .

وكانت ست وهيبة تجلس بعد ذلك ، وقد غيرّت جلابيتها المبلولة وغسلت شعرها ، مع أمى ، تثرثران وتشربان القهوة على الكنبة الاسطمبولى المفروشة بملاءة بيضاء متغضنة على المرتبة القطن المنجدة ، وفى وسطها مخدتان صغيرتان صلبتان جداً إحداهما فوق الأخرى تميل عليها الست وهيبة بجنبها وهى تتكلم . وأنا أعطيها ظهرى ، أذاكر وأعمل تمارين الانجليزى على مائدتى الرخامية البيضاوية الشكل المفروشة بورق الجرائد ، مسنودة إلى الحائط . رُصّت عليها كتبى المدرسية وكراريس فى رصتين متساويتين ، وبينها رواية من روايات الجيب مخبأة بعناية وقد نزعت غلافها الملون حتى لا يفضحنى بصورة الغانية الزرقاء الممشوقة جداً يلفها رداء عارى الظهر بحمالة واحدة وينسدل الرداء طويلا متموجاً برشاقة حتى آخر الغلاف من تحت .

كنت أسترق السمع إلى حديثها الهامس ، وأنا أنقل تصاريف الأفعال الانجليزية ، الريشة ذات البسن النحاسية الرفيعة التى تنزل منها فجأة قطرة مدوّرة من الحبر فتتشعّع على الورق قبل أن ألحقها بالنشافة . وعرفت أن العربجية من الاصطبل الذى أمامنا يدخلون الشقة التحتانية بالليل ، ويخرجون بعد ساعة أو ساعات ، واحداً بعد الآخر ، وأن رائحة الحشيش تعبق فى بير السلم حتى الصبح ، وهمست ست وهيبة بصوت أجش قليلا وملىء بالحرارة : ومش بس العربجية ياختى ، دول بيجبوهم زباين من القهوة اللى على المحمودية م انصاص الليالى ، ولا كوم بكيره وكان للكلام الغريب وق غامض فى نفسى ولم أجرؤ أن أسأل فقد حدست طبعاً أن فيه يحدث بين الرجال والنساء مايروّع .

كان فى هذه الغرفة جرامفون على شكل صندوق مربع موضوع على كومودينو ببابين ، من الخشب الداكن اللامع وعليه زخرفة نباتية معشقة من الخشب الأصفر ، وفوقه البوق الذى تنفتح فوهته تبدأ دقيقة ثم تتسع حتى تنفرج ضافية الاستدارة ، وكان على الأسطوانات السوداء كلب يضع فمه فى بوق آخر يشبه بوق الجرامفون الذى عندنا تماماً ، ومكتوب تحته صوت سيدة ، ويحيرنى أنه ينبح داخل البوق بصوت سيده ، ومن سيده ؟ بينما كانت الأسطوانة تدور ببطء وقتذاك بصوت سريع رفيع : بيضافون تقدم الأستاذ محمد عبد الوهاب ثم يرتفع صوته الحلو الذى يخشخش بأغنية عن النيل نجاشى حليوه أسمر ، ثم تخفت الأغنية حتى نـدير المقبض ونملأ الجرامفون من جديد .

تنفتح غرفتى هذه على باب شرفة طويلة مغطاة عليها تعريشة خشبية مسقوفة تغطيها من كل الجوانب ولها نافذتان صغيرتان تطلان على الاصطبل الذى تقف فيه بالليل عربتا حنطور وأربعة خيول ، وأكوام رطبة الشكل وزهمة من البرسيم وعجلات مخلوعة ، تحت سقف مائل مقطوع قائم على أربعة أعمدة حجرية قصيرة ، من وراء بداية خشبية عريضة وواطئة تفتح على رحبة ترتفع قليلا واسعة من غير انتظام ، بين الاصطبل والبيوت ، ثم تخلص إلى حارة ضيقة تعلو أرضها ثم تهبط ، أخيرا إلى شارع الترعة المحمودية ، وحافة الترعة العريضة النازلة إلى الماء مزروعة بالجرجير والخص والفجل الذى كنت أشتريه لأمى من فلاح يلبس قميصا خشنا كالح الزرقة من غير أكمام قصير على رجليه العظميتين السوداوين يخرج إلى كالعفريت من خص صغير جداً بناه من الطين والقش تحت جسر الترعة ، وكانت يداه كبيرتين وصلبتين وأصابعه قصير ومقوسة .

كنت نائماً على السرير الكبير ذى الأعمدة السوداء فى نهايته العساكر النحاسية المتخلخلة التى كنت أفكها أحيانا وألعب بـ وأركبها بسرعة قبل أن يعرف أحد وأخواتى البنات نائمات جنبى من ناحية الحائط ، عايدة التى كنت أحبها ، وهنا الصغيرة .

وعندما تيقظت فجأة وسط الليل ، على صوت خبط سري ملهوف على باب الشقة ، كانت لمبة الجاز نمرة خمسة معلقة

بالحائط وفتيلتها منخفضة ، من وراء بطن زجاجتها الرشيقة تلقى ظلالا مهتزة على أركان الغرفة ، وسمعت أبى يقوم من السرير فى الغرفة الكبيرة المقابلة ، ورأيته يمر فى الفسحة ، وهو يلف على نفسه طرفى القفطان الصعيدى المفتوح ويربط حبله المضفور الرفيع حول وسطه ، ويسرع إلى الباب ، ومن ورائه أمى بجلابية نومها ، وتحمل لمبة الجاز الكبيرة نمرة عشرة ، وتلحق به ، حافية على بلاط الفسحة .

كنت قد تيقظت تماماً الآن ، وأنا أرتجف قليلا من الترقب والخوف والمفاجأة ، وأختاى نائمتان جنبى .

سمعت صوت حسنية بالباب ، خافتاً وحاراً ، متفرعاً :

– فى عرضك ياسيدى ، اتسترْ علىَّ ربنا ما يفضح لك ولية . خبّينى عندك ، فى عرضك ، أبوس رجليك .

وسمعت صوت أبى ، أجشّ من النوم ، طيباً وعذباً جداً ، بلهجته الصعيدية التى لم يغيرها طول عمره :

– باسم الأب والإبن والروح الجدس . ادخلى يابنتى ، ادخلى لا حول ولا جوة إلا بالله . مالك يا بنتى ، فيه ايه ؟

وسمعت حسنية تتوسل ، تكاد تجش :

– البوليس ، ياعم قلدس ، ورايا غلبانة يا عمى والله ، مظلومة ، خبينى فى عرضك أبوس رجليك ، فى عرضك .

الباب يرد والخطوات مضطربة ومتلاحقة ، وأمى تدخل علىّ باللمبة الكبيرة وفى همس سريع ، أبى يقول لها : ادخلى يا بنتى . أدخلى فى السرير جنب الأولاد ، واتغطى وكأنما يقول لنفسه ، أو يقول لامرأته بصوت خاص به وحده : ربنا أمر بالستر . ربنا يستر على ولايانا .

أما أمى فقد رأيتها فى الظلال والنور المتراوح متنمرة لامعة العينين متوترة وهمست لأبى : الولد ! فأغمضت عينى وجمدت عندما فتحت عينى رأيت حسنية تنزلق بجانبى فى قميصها الأبيض الواسع الذى أعرفه ، شعرها مهوش وعيناها واسعتان من الخوف ، وكانت حافية وتقلبت عايدة قليلا وتنهدت فى نومها . واحتضنتنى حسنية ، وأحسست كل جارحة فيها تنتفض كأنها لا تملك أن تردها ، وكان جسمها بارداً .

فى الهدوء الليلى الخارجى سمعت وقع سنابك الخيل على الشارع المدكوك بالحجر الأبيض الدقيق والتراب الرملى وضجة أصوات مختلطة ، وخبط يأتى على باب الشقة التحتانية ، ثم خطوات ثقيلة وسريعة تعلو على السلم ، وباب شقة الست وهيبة يفتح ، وطرقات ملحة عنيفة على بابنا .

لم أستطيع أن أقاوم ، فقفزت من السرير ، بجلابيتى البيضاء الحرير ، ولكنى شددت الملاءة وغطيتها ، وجريت إلى الباب .

عندما فتح أبى الباب اندفع إلى داخل الشقة كونستابل فارع الطول بملابس الركوب ، الحزام الجلدى السميك والبنطلون الضيق ، شاهراً فى يده إلى الأمام المسدس الحكومى جسيماً ومنتصباً وشريراً ، ووراءه مخبران بالأحذية الميرى الثقيلة والبالطو الافرنجى على الجلابية البلدى ، وعصا الجوز الغليظة مقوسة اليد .

وعندما رأى الكونستابل أبى ، نحيلاً وقائم العود وفيه كبرياء الصعيدى ، رافع الرأس ، وأمى من ورائه واضح أنها تيقظت على الفور من النوم ، وأنا تردد لحظة ، ثم توقف متحيراً قليلاً وقال :

– لامؤاخذه يابا . لامؤاخذة . ماحدش دخل عندكم دلوقتى ؟

قال أبى بثبات ، هادىء الصوت :

– حد مين يا بنى فى الساعة دى ؟ خير . . إيه الحكاية ؟

صرخت أختى هناء الصغيرة فى نومها صرخة صغيرة فجرت أمى إليها ومعها اللمبة وتركتنا فى العتمة المضطربة ، مع البوليس .

قال الكونستابل وقد بدأ يحس أنه سخيف ومتقحمّ :

– أبداً أنا بس قلبى عليكم يا عمى . انتو ناس طيبين لامؤاخدة جاتنا إخبارية عن الشقة التحتانية عندكم . نصيحة يابا خلّ بالك . ماتدخلش حد عندك لامؤخذاة اقفلوا الباب عليكم تصبحوا على خير .

سمعتهم ينزلون ببطء وسمعت الحصان الميرى فى الليل تتباعد دقات سنابكه على شارعنا .

قال لها أبى : انزلى يابنتى خلاص ربنا يهديك وينور لك سكتك انزلى ربنا معاك .

كانت تبكى من غير دموع تشهق بجفاف ، محنية الرأس . واندفعت تخطف يد أبى تبوسها فاستردها بسرعة كالملسوع وهو يقول بصوتٍ خفيض متتابع النبرات : سامحنى يارب سامحنى يارب سامحنى يارب .

وكنت أطل عليها وهى تنزل السلم ، ورأيت ست وهيبة

تنظر اليها من خلف الباب الموارب الذى يلقى على بسطة السلم خطاً مرتعشاً من النور .

وأنا أرجع للسرير ، رأيت أبى يقف فى غرفة نومه ، يرسم الصليب على وجهه ، ويصلّ .

فى الصبح لم نجد أثراً لحسنية ولا لأمها التى قالت الست وهيبة إنها لم تكن أمها ولا حاجة كانوا قد لموا عزالهم فى عربة كارو وتركوا الشارع وكنت أفكر فيها وأشتاق إليها .

وعندما عرفت أن البوليس لم يدخل شقة الست وهيبة ، ولم يسألها عن شىء سطع لذهنى همسها لأمى ، وفهمت ، وكنت لا أريد أن آراها .

ودون أن أحس كانت العربة قد انتسفت من الأرض وانطلقت يجرها الحصانان الغاضبان بفتوة وعرامة الجموح ، وأنا أسمع قرقعات العجلات الخشبية المكسوة بطبقة رقيقة من الصاج على أحجار البازلت السوداء وكانت حسنية مرمية تحت سنابك الخيل الحديدية التى تطأ عظام صدرها وعيناها مسددتان إلى من الأرض صلبتين وينسكب منها حنان صامت لا أريده وينفجر دق العجلات والحوافر متلاحقة ، والعربة الكارو المحملة بشوالات الدقيق تدور ، تعلو تهبط ، ولا تتوقف تعود مرة ثانية أمام باب وابور الدقيق الضخم ، وتدور أمام الكوبرى المفتوح ، وقد سقطت إلى الخلف على المقعد الخشبى ، أتشبث بيدى بجانب العربة ليس بجانبى أحد ، ولا يتوقف جموح العربة ولكنه لا ينفلت بل هو محكوم .

وكنت أرى نفسى عندئذ والآن فى حضيض وهدة الأشواق تنطلق بى الأحلام الوحشية التى لها وجه خيول الذكريات ، ضجيجها يكاد يطوّ نى .

وفى عتمة آخر العمر التى استضاءت فجأة بالحب الزاخر القابض الفسيح كنت أعرف أننى اعتنق أيضا وهيبة وأتنسم عجينة أنوثتها وكانت هناك ، فى داخل لدونة جسدها الخصب حسنية المقهورة الحنون وكان شعرها القصير الخشن حياً تحت أصابعى ، وكنت أحوّط عليها بذراعين دقت فيهما المسامير ، مطعون الجنب بالحربة يتقطر منى دم نزر .

ادوار الخراط

* هذه القصة هى النص الأول من « ترابها زعفران » نصوص اسكندرنية تحت الكتابة .

محمد جبريل

قصة تكوينات رمادية

مددت يدى بعفوية ، وأضأت النور . كنت قد صحوت على أذان الفجر يتناهى من المرسى أبي العباس . أطلت التحديق في الظلام السادر ، أتبين الشبح الواقف وراء النافذة يتطلع إلى الطريق . بدت المفاجأة في ملامح وجهه أقرب إلى الخوف ، وربما الفزع . هلل بيديه ، فأطفأت النور .

قلت ، وأنا أزيح الغطاء عن جسدى :

- هل تنوى صلاة الفجر فى المسجد ؟ . .

قال فى همس منفعل :

- أى صلاة ؟ . . وهل يتيح لى الملاعين أن أصل إلى المسجد ؟ . .

فطنت إلى ما يعنيه . حدثنا ــ إخوتى وأنا ــ عن متاعب ــ لا يدرى بواعثها ــ بدأت إدارة الشركة تواجهه بها ، حين أعلن رغبته فى التقاعد . الخواجة ليفى (سافر ــ فيما بعد ــ إلى إسرائيل ، ضمن الأفواج الأولى لليهود المصريين) أظهر قلقا واضحا . تمعن فى وجه أبى كأنه يستوضح نواياه . قال وهو يتظاهر بترتيب الأوراق على مكتبه :

- أرى صحتك ممتازة . . فلماذا تتقاعد ؟ . .

سعل أبى ــ بالتذكر ، وأسند راحة يده إلى صدره :

- هدنى الربو . . ولابد أن أنفذ نصيحة الطبيب بالراحة التامة ! . .

- اكتف بالعمل معنا . . وأعدك بزيادة راتبك . .

- صدقنى . . مطلبى الراحة وحدها ! . .

روى أبى ما حدث ، دون أن يشير إلى ملاحظة ما . لكنه ــ فى الأيام التالية ــ حدثنا عن الأوراق التى اختفت من مكتبه ، والبرود القاسى فى معاملة الخواجة ليفى ومعاونيه ، واعتذار الصراف بالمرض حتى لا يتقاضى راتبه . علا الإيقاع ، وبدت التطورات مثيرة عندما فاجأنا أبى ــ ونحن حول الطبلية ننتظر عودته ــ بخطوات متعجلة ، ووجهٍ يكسوه قلق واضح . وضع الصحيفة وكيس البرتقال على المائدة ، وعاد إلى الباب يستوثق ــ أعلى السلم ــ مما رآه . لم أكن رأيت أبى فى تلك الصورة من قبل . تنقل ــ بعينين مرتعشتى الأهداب ــ بين باب الشقة ، والنافذة المطلة على المنور ، ولوحة الكانفاه المعلقة فى الجدار ، وحركة مفيدة ــ داخل المطبخ ــ تعد الطعام ، ونظراتنا القلقة ، والقط السيامى الذى أقعى تحت الطبلية . غلب التوتر محاولته لعناق السكينة . جلس على الكنبة الاسلامبولى . أطال التحديق فى اللاشىء حوله . فى اللحظة التالية ، تبدد السهوم ، فانتفض ، ووقف ، ودار حول نفسه ، وتحركت شفتاه بكلمات لم ينطق بها . .

أزاح له نافع وشاكر مكانا بينهما ، فجلس . أمسك بيديه طرف الطبلية ، كأنه يهم بقلبها :

- هل رأيتم ما رأيت ؟ . .

تطلعنا بأعين متسائلة :

- الخواجة ديفيد مساعد ليفى يختبىء فى بئر السلم ! . .

قلت فى ضيق :

- ولماذا تتصور أنه يختبىء ؟ . . ربما يريدك فى أمر ما ! . .

- أنت لا تفهم شيئا . منذ أيام ، أتابع تنفيذ المؤامرة .

– ضد من ؟ . .

– ضد أبيك ! . .

أغضبه – وإن لم يعلن – تنهدة أخى نافع غير المصدّقة . استطرد وهو يهش – بعصبية – ذبابة حطت على أنفه :

– صدرى ملىء بالأسرار ، وهم يخشون أن أذيعها . .

تغلف صوته بحشرجة قاسية :

– لقد قرروا قتلى ! .

***

لزم أبى البيت ، بعد أن تسلم مكافأته . يكتفى بالتنقل بين غرفته والصالة ، ويشغل نفسه بمراجعة قواميس الإنجليزية والفرنسية ، ويدوّن جملا وملاحظات . . لمجرد الرغبة فى قطع الصمت الذى كان يعمقه مضغ أفواهنا للطعام ، سألت أبى :

– لقد تقاعدت عن مهنة الترجمة . فلماذا تقسو على نفسك بالمذاكرة ؟

قال فى استغراب :

– التقاعد لا يعنى أن أهجر اللغة .

وعلا صوته فى تغير مفاجىء :

– إذا نسيت اللغة ، نسيت كل ما أعرفه من أسرار . . وهذا لن أمنحه لهم ! . .

وصرخ فى نظرتى الداهشة :

– أنت لا تفهم شيئا . لم تعد حياتى تهمنى . المهم أن أرد المؤامرة !

***

تغيرت حياتنا . خطوات أبى الزاحفة بين غرفة النوم والصالة ، تخوفه الواضح من رنين جرس الباب ، تطلعه القلق – فى لحظات متقاربة – من خصاص النافذة ، شروده الساهم وحديثه المفاجىء إلى نفسه أحيانا . لم يعد تشغله المذاكرة ، أو مشكلاتنا الشخصية . تناسى حرصه – منذ وفاة أمى – بدس السندويتشات فى حقائبنا كل صباح ، قبل أن يغادر البيت . شاع حولنا ضباب غير مرئى ، وغلب التوتر على تصرفاتنا ، وقال نافع :

– ينقصنا حفل زار لنعيد هذا البيت إلى سابق عهده !!

***

فى تلك الليلة ، صحوت على حركة أبى خلف النافذة . أطفأت النور ، وأزحت الغطاء عن جسدى . حاولت أن أهبط إلى الأرض برفق ، فلا يصحو إخوتى . أحس بصدرى خلف ساعده ، فقال فى صوته الهامس وهو يشير إلى المجهول من خصاص النافذة المغلقة :

– هذا الذى يقف تحت عامود النور . إنه الخواجة ليفى نفسه !

قلت وأنا أحدق فى الرجل الغائب الملامح :

– هل البالطو الأصفر يرتديه الخواجة ليفى ؟! . .

– أنت لا تفهم شيئا . إنهم يحسنون إخفاء أنفسهم . لكن هذا الواقف هو الخواجة ليفى بعينه ! . .

أحسست – لخوف أبى – بإشفاق . بدا مهدودا ومتحيرا ولا يقوى على التصرف . ذلك الذى يقف تحت عامود النور كان ينتظر سيارة العمل . رأيته مرات من قبل ، وأنا أطل – بعفوية – من النافذة ، لأرق يعقب تناهى الأذان من أبى العباس ، أو ابتهالات ما قبل الصلاة . لكن البريق الذى التمع فى عينى أبى ، بما هو أكبر من الخوف ، كأنه يرى الموت ، جعل السؤال سخافة لا معنى لها . تضاءل العملاق القديم ، فتمنيت أن أحتضنه وأبكى .

غامت عيناى ، فدفعته برفق :

– حديثنا سيوقظ إخوتى . نم أنت ، ولن أغادر مكانى حتى أطمئن إلى انصراف الرجل .

***

أيقظنى أبى لصوت يتصاعد من نافذة المطبخ . قال : إنهم يتسلقون المواسير . وأصر أن يتقاضى محصل الكهرباء نقوده من شراعة الباب . وأعلن قلقه لما تأخر شاكر عن العودة من المدرسة . وزاد من تأكده – ليلا – إلى إغلاق الباب والنوافذ بإحكام .

ولمحته – يوما – يقلب فى حقيبة نافع . أعاد الحقيبة إلى موضعها ، وهمس كالمعتذر :

– لابد أن أحتاط ! .

***

لما صحوت ، كانت الشمس قد ملأت الدنيا . هدنى النقاش مع أبى ، فنمت . كان إخوتى قد انصرفوا إلى مدارسهم ، وران على الشقة هدوء . اتجهت – بتلقائية – إلى غرفة أبى .

كان مكورا – فى الأرض – على جنبه ، وعيناه مبحلقتان فى سكون جامد ، غريب .

القاهرة : محمد جبريل

سمير رمزى المنزلاوى

شرّ البليّة

لم تحظ شخصية فى مركزنا وتوابعه بمثل ما حظى به الشيخ طلبة الصفتى قارىء القرآن الكريم من شهرة وصيت ، وهو من ناحيته كان يؤمن تماماً أنه يستحق هذا وزيادة . يكفى أنه الوحيد الذى يقرأ على السبعة فى الجهة كلها ، علاوة على أنه حجة راسخة فى الحفظ والتجويد .

ولولا الحظ النحس ، وضياع البصر أيام الجدرى لكان الآن يتربع على عرش الإذاعة والتليفزيون !! أو ليس معظم القارئين بهما من تلاميذه الذين ألهب أقدامهم ، والذين لا تعجبه أبداً طرائقهم فى القراءة ، فيغلق الراديو فى وجوههم متحسراً .

ومن صفات الشيخ طلبة ، المتواترة ، أنه لا يرحم أبداً من يتهاون فى أحكام التلاوة ، مهما كانت مكانته ، وتحت أى ظرف !

وليس ببعيد حادث الاشتباك المضحك بينه وبين قارىء إذاعى شهير .

نفش أحد الأغنياء ريشه وأحضره مع الشيخ طلبة فى مأتم أمه .

وكانت ليلة طويلة ، حافلة ، دخلت تاريخ البلدة . فالشيخ طلبة بدا ممتعضاً ، ولم يرض أبداً عن الوافد الجديد الذى ينافس المطربين فى مطّ الحروف ، وتحطيم القواعد .

والذين كانوا يجلسون على مقربة منه قالوا إن وجهه اختلطت فيه الألوان وارتعشت يداه . وقفزت كلمات مبهمة من حلقه قبل أن يهب متحسساً المنصة ، لينحى الإذاعى عنها بالقوة .

وامتدت ثورته العارمة إلى صاحب المأتم ، وإلى كل من حاول تهدئته !!

تكاثف الزبد على جانبى فمه ، وسال على ذقنه ، وهو يشوح بكمه الواسع ذات اليمين وذات الشمال .

وهبط إلى الأرض مبهور الأنفاس لا يكاد يتحكم فى لسانه ، حتى جاء غريمه معتذراً على الملأ ، ومعترفا بأستاذيته .

وظلت الحادثة رصيداً يسحب منه عند الطلب لاعناً الأيام التى ألقت به فى هذه البلدة التى لا تكاد تفرق بين العجوة والطوب الأحمر !!

والناس يضحكون معه من قلوبهم ، ويسايرونه فى طريق المزاح إلى آخره . فمعظمهم تلاميذه ، عاصروه فى عهده الذهبى أيام أن كان الكتّاب دجاجة تبيض له ذهباً . وكان مركزه ــ أيامها ــ يسبق العمدة نفسه ، قبل أن تزول سطوته ، وينصرف الأطفال إلى المدارس ، فينحسر نشاطه إلى المآتم مصدر الرزق المتبقى .

ورغم ذلك لم يسمح أبداً أن تهان كرامته وسط موجة الفوضى التى سادت هذه الأيام . خاصة بين الشباب الذين لا يعترفون بقدسية أى شىء . واستغل أقصى قدرات لسانه وبديهته ليخرس أى متحذلق من أصحاب الشهادات .

وبعد فترة ، اشترى مكبراً للصوت ، وطوّر حرفته مستغلاً شهرته فى المركز ، واحتكاره لمعظم المآتم ، وصارت لديه ــ بمضى الوقت ــ قدرة غريبة على تتبع أخبار المرضى وتوقع ساعات موتهم ، ليكون على أتم استعداد لنصب المأتم .

اتخذ الأهالى من ذلك مادة لمزاحهم ، حتى إن بسيونى الحلاق أقسم أن الشيخ طلبة بعد أن قصّ شعره قال له بالحرف الواحد :

- خالك أبو الفتوح مريض جداً ، وسيموت غداً على أكثر تقدير ، وبعد المآتم سأعطيك الحساب !

هو نفسه لم يكن ينكر ذلك أو يغضب منه إذا ذكر أمامه . بل كان يؤمِّن عليه ، ويسب الجميع . ثم يسير فى الدروب التى يحفظها ، ينقر بعصاه ، فيفزع الأطفال من حوله ، ويلعنهم إلى سابع جد ، ثم يعود إلى بيته راضياً ، لا يشعر بإرهاصات الكارثه التى تنتظره .

ففى مكان لا يبعد كثيراً عن بيته كانت تعقد جلسة سمر عادية فى بيت أحد الموظفين . ولا يستطيع أحد ممن حضروها أن يحدد ــ على وجه الدقة ــ شخصية الذى طرح موضوع المآتم للمناقشة ، فقد نسوا هذا الشخص تماماً فى غمرة الجدل والحماس العنيف ، الذى تمخض فى النهاية عن رأى محدد : يجب إلغاء المآتم !!

أما الحيثيات الذى ذكرت لتبرير هذا الرأى فكثيرة ومقنعة . فالمآتم صارت عبئاً رهيباً على أهل الميت ، وجعلتهم يعانون من الموت وخراب الديار . فهناك طابور طويل عريض يقوم على إخراج الجنازات وتنظيمها . ابتداء من الشيخ طلبة الذى لا يرحم ، ومروراً بصبيان الشادر ، ومقدمى القهوة ، والماء ، والفراشين ، وعامل الميكروفون ، و . . . و . .

ولذلك قوبل الموضوع بالتأييد الساحق ، ولم يعارضه شخص واحد ممن حضروا المناقشة ، ولا ممن سمعوا به ، بعد أن تجاوز الجدران إلى الشوارع ، ودخل كل البيوت ، والمقاهى ، والمحال . . بسرعة الصوت .

وعندما وصل الخبر إلى أذنى الشيخ طلبة أنكره بعنف ، وحاول أن يفهمه على أنه نكتة سخيفة أو موضة يريد المتفلسفون نشرها . ولم يشأ أن يتقبل الموضوع ولم يفترض انسياق الناس وراء هذا التهريج .

لكن أعصابه بدأت تخونه أمام كثرة الكلام ، ونهشته نار الخوف ، والحزن ، خاصة عندما أعلن والد أحد المتوفين ــ أثناء الدفن ــ أنهم اكتفوا بالعزاء على الجبانة .

ولم يعد يطيق نفسه . اعتزل فى حجرته مضرباً عن كل شىء . وتفاقمت حالته ، فاقتربت من الجنون ، عندما قصده صبيانه يستفتونه ، وينقلون له خبر انتشار العدوى إلى القرى المجاورة ، واعتزام أهلها إلغاء المآتم ! لكنّ الشيخ طلبة استطاع فى هذه اللحظات الحرجة أن يستدعى ما تبقى من عقله ، ولقّن تلاميذه خطة يقودهم فيها . فأشاعوا عقب وفاة أحد الأهالى أنهم رأوه فى الحلم فى أسوأ حال : كان وجهه ملطخاً بالطين ، وكانت ملابسه ممزقة . وعندما سألوه عن حاله قال باكياً :

- إنى أتعذب . لماذا حرمونى من القرآن .

وكانت هذه الصيغة تتكرر بتعديل بسيط حسب مقتضى الحال . وكادت تنجح فى المراد منها ، لولا أن الشباب والمثقفين وقفوا لها بالمرصاد ، وأخمدوا النار بنفس السرعة التى اشتعلت بها .

ولم يستطع الشيخ طلبه أن يضع خطة أخرى لأن معظم صبيانه جهزوا أوراقهم استعداداً للسفر إلى البلاد العربية ، تاركين معلمهم فى خيبته الثقيلة .

وأحس الشيخ طلبة بالوحدة والعجز لأول مرة . وتخيل نفسه فى قارب مثقوب يتأرجح فوق الموج ، والبحر الهائج من تحته يستعد لالتهامه .

هل هذه نهاية خادم القرآن ؟
هل يرضيك يا رب أن ينكشف سترى ؟
جاء اليوم الذى أخفض فيه رأسى وأتسول آه يا بلد !
شلة عيال تقلب الدنيا !؟
هل أتركها لهم وأهيم فى الدنيا الواسعة ؟
وبعد
ألا يوجد حل ؟
وكانت زوجته تحاول تبسيط الأمر :
- كل عقدة لها حلال يا رجل
- دبرينى !
- منهم لله . . ألم يجدوا غير المآتم ؟
- . . سأقرأ عليهم يس
رفع صوته فجأة :
- يارب . كل من حاربنى فى رزقى تحرق قلبه !

وسيطر عليه البكاء الذى كان يتجمع فى داخله خلسة ، ولم يستطع أحد إسكاته حتى سكت وحده ولم يتكلم إلا بعد ساعة . استدعى ابنه ، وطلب منه أن يشترى له صفيحة بنزين ! كان الطلب فى منتهى الغرابة ، لكنه ألقاه بمنتهى الجدية دون أن تسمح تكشيرته بالاستفسار . تحرك الغلام ابن الحادية عشرة فى حيرة ، بينما جلس هو يتململ ويتحرك . ودخل دورة المياه أربع مرات . وسعل ، وبصق ، وتنهد ، ثم

تمدد على الأرض حتى حضر الغلام ووضع الصفيحة بجانب قدميه .

- لا تنم . . ستخرج معى .

التصق الغلام بأمه ينتظر الأوامر . وطال الانتظار حتى ظن أن الليل انتهى . ولم تجرؤ أمه على الحركة أو السؤال . ونادى الشيخ طلبة على ابنه أخيراً فجاء يرتجف ويغالب النوم . وأمره أن يحمل الصفيحة . ووضع يده الثقيلة فوق كتفه الرقيق فسار متعثر الخطى ، كل قطعة فيه ترتعش . وقدم له بطارية قائلاً فى حزم :

- اذهب بى إلى الجبانة . . ودلنى على مقبرة إبراهيم مرزوق الذى توفى منذ يومين . . !!

وبعد دقائق كانا أمام المقبرة . البرودة تنهش عظام الصغير . وآلاف الأشباح تكاد تنتزع صراخه لولا اليد الغليظة التى تضغط على كتفه .

- اسكب فوقها البنزين . أغرقها . وناوله علبة الثقاب :
- أشعل

وسرح لحظة يتصور النتائج . ستكون ضربة معلم . لن يكون لهم من الغد حديث سوى مقبرة إبراهيم التى احترقت لأنهم هجروا القرآن . سيضع الأفندية ألسنتهم تحت أقدامهم . آه يا بلد عيال .

وقفز من فوق الأرض فجأة على صرخة ابنه الممزوجة بالألم الشديد وتوالت الصرخات ، وأدرك على الفور أن البنزين أصاب ملابس ابنه ، وأن النار أمسكت بها .

وتناول حفنة تراب ، وحارت يداه فى الهواء دون أن يستطيع الوصول إلى الغلام من شدة اللفح الذى كاد يشوى وجهه .

كان الموقف أقوى منه ، ومن الأم الملتاعة (التى تعقبت صغيرها) فلم تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الصراخ .

واختلط العواء الحاد بصمت الليل القاتل ، فتحولا إلى كابوس هائل اصطدم بأحلام النائمين ، فهبو مهرولين ناحية الجبانات بالمشاعل والبطاريات ، ودارت معركة رهيبة مع النار التى غزت المكان . وبدا الشيخ وزوجته والغلام بداخلها كجماعة من عتاة المذنبين داخل جهنم . وسحبوا الشيخ وزوجته فى الوقت المناسب . أما الغلام فقد تفحم تماماً .

الشيخ طلبه وزوجته ارتميا على تراب الجبانات يحثوانه ويعويان . وحملوهما إلى البيت كالمخدرين فى مظاهرة رهيبة . ولم يحاول أحد أن يسأل أو يستفسر ، رغم حاجة الموقف إلى ألف سؤال . فقد استطاعوا بذكائهم ــ الذى لم يعترف به الشيخ طلبه أبداً ــ أن يصنعوا داخل عقولهم افتراضاً قريباً جداً مما حدث فى هذه الليلة .

كفر الشيخ : سمير رمزى المنزلاوى

منى حلمى

قصة: # أجمل يوم اختلفنا فيه

عرفته منذ أسبوع .
بالتحديد،الليلة الحادية عشرة من الشهر الحادى عشر .

كان الوقت مساء . . . كانت ليلة ممطرة . . . كانت ليلة أحد ، وهو لم يكن كأى أحد ، مازلت أعيش لحظات البداية معه ، وكم تحيرنى . فان أقل أعرفه منذ أسبوع سيكون قولاً مغالطاً إلى حد كبير . لن أكون دقيقة بالقدر الكافى ، لن أكون صادقة بالقدر الكافى .

فأنا أعرفه منذ ارتعش عقلى رغبة فى الحوار مع رجل ، لا حدود لتفكيره ، لا محرمات فى سلوكه . أعرفه منذ أول قطرات مطر بللت جسدى وتمنيتهُ قريباً يتأمل معى الشجر المندى . . يجرى وراء قطرة هاربة ، يقدمها إلىّ وأفاجئه أنا بتقديم بعض الشمس المتوارية . أعرفه منذ تساؤلى عن سر جمال الزهرة الراحل سريعا ، عن سر نشوة المعرفة . أعرفه منذ تساءلت عن معنى الوجود المتغير . . . منذ قلقى ألا أموت دون أن أترك بصمة ثابتة .

أعرفه منذ عرفت احتياجى للمسة متفهمة تزيد حنينى ليدىّ . . لنظرة واثقة تربطنى أعمق بعينىّ . . ولقبلة ممتدة تحببنى أكثر فى شفتىّ .

أعرفه منذ سحرتنى ألحان « فريد » . . منذ صادقت النيل . ومنذ اكتشافى عشقى للرقص وحبى للقهوة .

منذ قرأت عن متعة المشاركة وأنا أعرفه . . منذ سمعت عن نشوة الحب وأنا أعرفه .

وأعرفه منذ تعلمت السباحة تحت الماء ورغبت فى أن نتسابق معا حتى الصخرة البعيدة ، نقف عليها ، نرى الدنيا من أعلى ونشتاق معا إلى دفء الشاطىء .

أعرفه منذ أول مرة أمسكت بالقلم وكتبت .

منذ الأسبوع الأول من عمرى وأنا أعرفه . . بل منذ ليلة مولدى ، هى الأخرى كانت ليلة أحد .

منذ اليوم الحادى عشر وحتى اليوم الثامن عشر ، ونحن ــ بتمهل ــ نتعجل الاقتراب . منذ أول أسبوع نحاول اختصار كل أسابيع الزمن . كان العمر الراقد خلفنا يحكى تاريخ ثمانية وعشرين عاما . لكننا استطعنا اختصار كل أربع سنوات فى يوم فإذا به بعد أسبوع يعيش عمرى . وأنا بعد أسبوع أعيش عمره .

لم يكن الأمر سهلا . . لم يكن مألوفا ولم يكن مؤكداً . لكن حلاوة عينيه دقة مشاعره . . عمق اهتمامه وسخاء عطائه ، جعلت الأمر سهلا . . مألوفا ومؤكداً . والأجمل جعلته ضرورة ممتعة . . ضرورة لأننى أحسست أنه أمر لا مفر منه . . ممتعة لأنها حرة .

ترك نفسه أمامى بكل عيوبه وصراعاته . تركت نفسى أمامه بكل تناقضاتى وأخطائى . عمره قبلى حدد فلسفة للحياة تختلف عن فلسفتى . لكننا منذ أول لقاء اتفقنا على أن نحرص على اختلافنا . . نحترمه . . نتعامل معه بمرونة وحب . اتفقنا أن نستمع لآرائنا كما نستمع لدقات قلبينا .

مازلت أذكر اليوم الرابع من الأسبوع ، الموافق الأربعاء ، الرابع عشر من الشهر الحادى عشر . المكان حولنا يسمح

برؤية صفحة النيل المسافرة فى اللون الأسود ، وأنغام هادئة تنساب مرحبة بنا . كنا نتناقش فى أمور الدين . اختلفت رؤيتنا منذ البداية هو يراه الجوهر والشكل بالدرجة نفسها من الأهمية ، وأنا أركز إيمانى على الجوهر قال « طالما آمنت بوجود الرب فعلىّ التوفيق بين الشكل والجوهر » قلت : « أومن مثلك بوجود الرب ، لكننى أعتقد أن ما فرضه من شكل ليس إلا وسيلة لضمان تحقق الجوهر » .

لم يقتنع . . ولم أقتنع ولم نصل إلى نقطة فى المنتصف . لكن يالدهشتى ويالسعادتى كم ازددنا حبا واقترابا بعد هذا الحوار . احترمته لصراحته وتقديره لصراحتى . لم يحاول أحد منا فرض رأيه على الآخر . كنا ـ ومازلنا ـ حريصين على الوعد . . ألا تبعدنا اختلافاتنا . بل على وعى زائد بهذا الحرص .

كم يحيرنى الاختلاف معه . إننى كثيراً ما اختلفت مع الناس ، بل لا أذكر معهم إلا الاختلاف . المصحوب دائما بالضيق والتوتر . معه . . الأمر مختلف . لا أعرف الضيق أو التوتر ، بل تشملنى فرحة لم آلفها من قبل . تساءلت عن سرها ومازلت لا أعرف إجابة . وتزداد حيرتى حين أتذكر أننا نختلف فى أساسيات الحياة ورغم هذا فإن رغبتنا فى مشاركة الحياة معا لا تتأثر ، ولا تفتر بعد مرات الخلاف . وتتعقد الحيرة وتصبح متحدية لكل محاولات التأمل ، حين أشعر أن هذا الاختلاف هو الذى يجذبنى إليه ، ويضفى على علاقتنا سحراً غامضاً كلون عينيه . فهذا عكس كل ما ألفته أفكارى ، واستقرت عليه قناعاتى .

وجاء اليوم الأخير من الأسبوع ، الموافق الأحد ، الموافق الثامن عشر من الشهر الحادى عشر . نجلس فى مكان مغلق ، لكن اتساع الدنيا كله ينساب من عينيه مرحبا باقترابى ، فأجرى مغمضة العينين ولا أصطدم بالمائدة ذات المفرش الأخضر الفاصلة بيننا .

سألنى : « هل أعترف لك بأمر ما يشغلنى ؟ » . قلت : « مشتاقة لأى شىء منك » . سكت لحظة ثم قال : « إننى مدين لك بإعادة الانسجام فى علاقتى بأمى » . أوقفنى الكلام عن شرب عصير الطماطم المثلج . . سخونة تتدفق إلى وجهى وبريق مندهش وفرح يسأله دون سؤال فيكمل :« منذ رحيل أبى وهى تزداد عصبية وشعوراً بالوحدة . إننى أقدر حالتها . فهى لا تشعر فقط بالحزن ، لكنها تفتقد أختى وأخى منذ زواجهما وتركهما المنزل.» سألته : « لكنك تقيم معها ، أليس كذلك ؟ » قال : « نعم . . نقتسم معا الشقة ، لكننا لا نقتسم الحياة . نادرا ما أجلس معها وإذا حدث هذا يكون صدفة . فأنا أذهب إلى عملى مبكرا فى الصباح ولا أعود قبل السادسة وغالبا أخرج فى المساء وحين أعود تكون نائمة أو تستعد للنوم . وهكذا تمر الأيام بيننا . قد نتناول الغذاء معا فى بعض أيام الأجازات ولا يتطرق الحديث بيننا إلا لأمور عابرة . لا تتصورى كم كان يؤلمنى إحساسى بأننى بعيد عنها وأنها بعيدة عنى وأتألم أكثر حين أتذكر ندمى ، لأننى لم أحاول إسعاد أبى وهو على قيد الحياة . لا أريد أن يتكرر هذا مع أمى » .

يسكت مرة أخرى . هذه المرة أطول . فى عينيه دموع متراكمة . . فى عينىّ دعوة له أن يطلق سراحها ويلبى الدعوة . لحظات من الصمت تمر بيننا ، أرى فيها دموعه لأول مرة . . أرى فيها دموع رجل لأول مرة . مَنْ قال إن الرجل القوى لا يبكى . بحركة رقيقة تذوب اشتياقا اقتربت من دموعه . . لمستها لم أكن أريد ايقافها أو تجفيفها ، أردت فقط التعرف عليها . كانت تشبهه فى حرارتها . . بريقها وتدفقها المتردد . انتظرته حتى آخر دمعة . قلت : « لم تقل لى كيف عاد الانسجام بينكما ؟ » . قال : « عاد بكِ . لقد فكرت كثيراً فى علاقتنا . وحيرنى ذلك الاختلاف الذى لا يفعل شيئاً إلا أن يزيد تقاربنا . سألت نفسى لماذا أريد الاستمرار معكِ رغم أننا لا نتفق كثيراً ، لماذا أريد أن أحبك وأنتِ كما أنتِ وأعادتنى تساؤلاتى إلى الماضى . وجدتنى أتذكر كل أخرى عرفتها قبلك ، تذكرت علاقتى بأختى . . بأخى الكبير ، تذكرت طفولتى وأبى ، تذكرت أمى . تذكرتها أكثر من مرة ، أكثر من أى أحد وتوقفت عند تذكرها » . يتوقف عن الحديث ، يأخذ نظرة من عينى . . يأخذ رشفة من فنجان القهوة الذى يحن دائما لقليل من السكر لكنه مصر على الوفاء لعشق نقاء القهوة .

يكمل حديثه : « وحين تذكرتها ، أحببتها أكثر وعرفت السر الحائر بينى وبينك . تذكرت أننى منذ إدراكى للحياة وأنا أرى أمى إنسانة متميزة عن كل أمهات أقاربى وأصدقائى ، مختلفة عن كل الأمهات اللائى يظهرن فى الأفلام والتمثيليات . لا أذكر مرة أن أبى رفع صوته عليها أو تدخل فى حياتها أو تشاجر معها بسبب تحضير الغذاء . لا أذكر مرة أن سألها عن ملابسه ، كانت واعية بحقوقها ولهذا كانت واعية بحقوقنا . لا أتذكر إلا وقوفها دائما بجانب رغباتنا . خاصة مع أختى . لا أتذكر أبى أو أخى الكبير أو أنا حاول التدخل فى حياة أختى أو أن أحدا منا توقع أن تخدمه بشكل أو بآخر لمجرد أنها البنت فى الأسرة . تساءلت كثيراً عن سر قوتها وتميزها . فهى هادئة . . رقيقة . . لم تكن تكبر أبى ، ليست بارعة الجمال . . ليست ثرية ولا تحمل شهادات عليا كبعض أمهات معارفى . وتغير الأمر بعد أن عرفتك . عرفت الجواب لكثير من تساؤلاتى . . عرفت لماذا أنجذب إلى إنسانة مثلك تعشق حريتها ، عرفت سبب نفورى من الأخريات اللائى حاولن التدخل فى حريتى . عرفت لماذا لم يمنعنى اختلافنا عن احترامك والرغبة فى أن أحبك . إنها أمى . إننى أحترمها لهذا التميز ،

وهى مثلك تختلف معى فى أشياء كثيرة ، ولكن هذا لم يمنع أننى أحبها . . هل ترين مدى التشابه فى علاقتى معها وعلاقتى بك . بهذا الاكتشاف الذى دفعتنى إليه ، عاد الانسجام معها . الآن أجلس معها . . أتحدث إليها وأحاول مشاركتها فى وحدتها . بالأمس مثلا دعوتها إلى العشاء خارج المنزل . كانت أول مرة نخرج فيها معا . ولا تتصورى مدى استمتاعى . اكتشفت فيها جمالا مختبئا تحت التجاعيد . . وحكمة لا تجد مَنْ يأخذها . هى أيضا تكتشف ابنها من جديد وتندهش فى صمت لهذا التحول الغريب . لم نعد كما كنا ـ قبل معرفتك ـ غريبين فقط ، هذا اعترافى . . فهل أبدو واضحا الآن ؟ » .

بالفعل بدا واضحا . لكن الأهم أنه بدا أكثر جمالا ورقة . عرفت قبله كثيرين ، لا أذكر أحدا قال لى شيئاً بهذا السحر . لا أذكر أن كلمات أحد منهم استطاعت ـ حتى فى أجمل اللحظات وأجمل الأماكن ـ أن تذيبنى حبا مثل كلماته المنسابة هنا فى هذا المكان المغلق .

أفقت من خواطرى على صوته يسألنى : « ما رأيك . نزور « النيل » صديقك الليلة ؟ قلت : « سيبدو أجمل ونحن معا » طلب الحساب من الجرسون ، وبينما يستعد لإخراج النقود قلت له : « لتكن ضيفى الليلة . . سأدفع أنا الحساب » . توقفت يده عن لمس النقود وبتردد قال « بالطبع يسعدنى تلبية دعوتك ، لكن . . » أعرف سبب تردده فقد ناقشنا من قبل مسألة مَنْ يدفع الحساب ، وهو لا يعترض على المبدأ لكنه لم يألف أن تدفع صديقته الحساب أمام الناس ، بينما هو يجلس متفرجا .

وأذكر أننى وقتها لم أحاول الخوض فى هذا الأمر وإن لم أتوقف عن التفكير فيه . الليلة ، بداخلى إصرار على أن يألف الوضع .

سألته : « قل لى بصراحة ، هل هو الخجل الذى ستشعر به إذا دفعت أنا الحساب ؟ » بعد لحظة تحاشى فيها عينى قال : « نعم » .أكمل محتضنة صراحته المتَرددة : « لماذا ؟ هل يهمك كثيراً نظرة الجرسون وزبائن المحل ؟ » عادت إلىّ عيناه بالجواب « حتى هذه اللحظة أعتقد كذلك » سألت: « تعتقد أنهم سيصفونك بنقص الرجولة ؟ أم يقولون إننى أنفق عليك أو انك بخيل أو فقير . . ماذا بالتحديد الذى يهمك ويقلقك ؟ » قال : « حين تناقشنا المرة السابقة ، لم تسأليني عن الأسباب » . قلت بابتسامة: « ألست معى ان الليلة مختلفة » . وأرسلت عيناى معنى الاختلاف . استقبل الرد بابتسامة تضن علىّ بجمالها . سألته: « هل أنت مقتنع بأننا مختلفان وأن لعلاقتنا مقاييس غير مقاييس الجرسون والزبائن ؟ » بابتسامة أكثر كرما قال : « أعتقد أن هذه المناقشة دليل كاف على اختلافنا » قلت « اسمح لى أن أسألك: ما أهم فى رأيك نظرة الجرسون أم إحساسك بأننا نخلق معا علاقة جديدة . . أيهما أهم لديك نظرة الجرسون إليك أم نظرتى أنا إليك » . يسكت لحظات ، كاد أن يقول شيئا ، لكنه عاد إلى الصمت .

جاء الجرسون ووضع فاتورة الحساب أمامه . . عيناه تنظران إلى كل شىء فى المكان إلا أنا . عاد الجرسون ووقف ينتظر الدفع . فتحت كيس النقود وناولته المبلغ . الجرسون يحملق نحوه وهو مازال صامتا . . مطرقا . أشعر بما يدور داخله . لكل شىء جديد مرة أولى وقد بدأت الليلة .

أغلقت الكيس ورفعت عينىّ ، فوجدت عينيه وقد عادتا من الإطراقة تنظران إلى الجرسون بنظرة جديدة . . ويقول له بعد الصمت: « شكراً » ويقول لى : « تأخرنا كثيراً » على « النيل » صديقك ، فهل نسرع » ؟ .

القاهرة : منى حلمى